

المنظري الغرناطي مؤسس تطوان

غير مو غوثاليس بوسنو



ترجمة
ممدوح البستاوي
مراجعة وتقديم
جمال عبد الرحمن

المنظري الغرناطي

مؤسس تطوان

المركز القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

– العدد : ١١٨٧

– المنظرى الغرناطى ، مؤسس تطوان

– غيرمو غوثالبيس بوستو

– ممدوح البستاوى

– جمال عبد الرحمن

– الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

AL - Mandari El Granadino,

Fundador De Tetuan

Por: Guillermo Gozalbes Busto

© *Guillermo Gozalbes Busto*

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.mail:egyptcouncil@yahoo.com

Tel: 27354524 - 27354526

Fax: 27354554

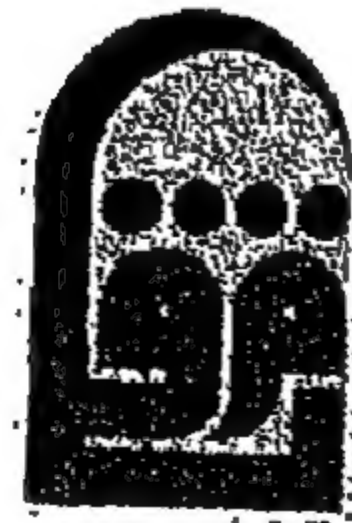
المنظري الغرناطي

مؤسس تطوان

تأليف : غيرمو غوثالبيس بوستو

ترجمة : معدوح البستاوي

مراجعة وتقديم : جمال عبد الرحمن



٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

بوستو ، غيرمو غوثالبيس
المنظري الغرناطي مؤسس تطوان
بقلم : غيرمو غوثالبيس بوستو، ترجمة : ممدوح البستاوى ، مراجعة
وتقديم : جمال عبد الرحمن - القاهرة : المركز القومى للترجمة ،
٢٠٠٨ ،

٣٥٦ ص ، ٢٤ سم (المشروع القومى للترجمة : العدد ١١٨٧)

١ - المغرب - وصف ورحلات

٢ - تطوان ، المغرب - وصف ورحلات

(أ) البستاوى ، ممدوح (مترجم)

(ب) عبد الرحمن ، جمال (مراجع ومقدم)

(ج) العنوان

(د) السلسلة

٩١٦، ٤٢

رقم الإيداع ٢٠٠٨/٥٤٦٥

الترقيم الدولى 977-437-663-3

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة
للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى
ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

7	- مقدمة المراجع
19	- مقدمة الطبعة الثانية
23	- مقدمة المؤلف
27	- الفصل الأول: تطوان تأسيس غرناطى
55	- الفصل الثانى: شخصية المنظرى
81	- الفصل الثالث: زيجات المنظرى
95	- الفصل الرابع: المنظرى محارباً
127	- الفصل الخامس: حكم المنظرى
161	- الفصل السادس: قادة شمال المغرب والمسيحيون
183	- الفصل السابع: غزو مملكة فاس
203	- الفصل الثامن: وفاة المنظرى وتركته
239	- الفصل التاسع: آثار المنظرى فى غرناطة
257	- الفصل العاشر: آثار المنظرى فى تطوان
		الملاحق الوثائقية:
291	- الملحق الوثائقى الأول
295	- الملحق الوثائقى الثانى
298	- الملحق الوثائقى الثالث
307	- الملحق الوثائقى الرابع
333	- الملحق الوثائقى الخامس
351	- الملحق الوثائقى السادس

مقدمة المراجع

هذا هو الكتاب الثانى للدكتور غوثالبيس بوستو حول الأثر الأندلسى الموريسكى فى المغرب. كان الكتاب الأول بعنوان "الموريسكيون فى المغرب"، وقد نشره المجلس الأعلى للثقافة منذ نحو عامين، وكان يتناول الوجود الموريسكى فى المغرب بشكل عام. أما هذا الكتاب فيتحدث عن منطقة مغربية محددة هى تطوان، ويذكر أن قائداً أندلسياً هو الذى أعاد بناء المدينة بعد أن كانت أطلالا.

لم يكن سقوط غرناطة مفاجئاً للمتابعين لتطور الأحداث فى شبه جزيرة إيبيريا فى نهاية القرن الخامس عشر، وقد ذكرنا فى مقدمة الكتاب الأول للمؤلف أنه بعد سقوط دولة الإسلام فى الأندلس - بل وقبل السقوط - كانت الهجرة إلى بلد إسلامى تعد فى كثير من الأحوال هى الحل الأنسب، فقد رأى نبلاء غرناطة أن الأمور فى بلدهم تسير من سيئ إلى أسوأ وأن دولة الإسلام منهارة لا محالة، ولم يكن من الممكن آنذاك عمل أى شىء يوقف زحف الملك الكاثولىكى.

ذكرنا أيضاً أن تلك الهجرة كانت لها نتائج ملموسة، سواء على الذين هاجروا، أو على بعض البلاد التى هاجروا إليها، وتعرض لنا صفحات الكتاب بعضاً من هذه النتائج: لقد أعاد فارس غرناطى مهاجر تأسيس مدينة مغربية.

تعتبر قصة "ابن سراج وشريفة الجميلة" من أهم القصص الموريسكية وأجملها. القصص الموريسكية هى التى تتحدث عن الموريسكيين بإعجاب، وقد اختلف النقاد

حول شخصية مؤلفها، فمنهم من قال إنه مسيحي دفع له النبلاء مالا حتى يظهر الموريسكيين بشكل طيب فيتعاطف معهم الناس وهكذا لا يتم طردهم من إسبانيا، ومنهم من رأى أن المؤلف موريسكي أراد أن يدافع عن بنى وطنه وأن يظهر إيجابياتهم كرد على كتب الأدب الإسباني التي يظهر فيها المسلم بشكل سلبي^(١).

لن نتوقف الآن عند هذه القضية رغم أهميتها، لكننا نوجز القصة.

كان الفتى المسلم "ابن الرئيس" وهو من بنى سراج فى طريقه للقاء خطيبته "شريفة" الجميلة، وكان يتعين عليه أن يمر بمنطقة يسيطر عليها المسيحيون. يعترضه فرسان مسيحيون، فيصرع منهم ثلاثة، ويفر الرابع طلبا للنجدة من القائد نارباييث. يأتى القائد وبارز الفارس المسلم فيصرعه "لأنه كان جريحا وكان قد فرغ لتوه من مبارزة ثلاثة فرسان". يقول ابن سراج للقائد المسيحي إنه انتصر عليه، لا لتفوقه فى القوة، ولكن لأن الله أراد أن يمنعه من رؤية محبوبته. يعجب القائد المسيحي بشجاعة الفتى المسلم ويدور بين الاثنين حوار. يقص ابن سراج على القائد المسيحي أنه يحب شريفة وأنه كان فى الطريق إليها، فيعرض عليه القائد أن يطلق سراحه لمدة ثلاثة أيام يعود بعدها إليه. ينصرف ابن سراج ويلتقى بمحبوبته ويتزوجها، ويعود -ومعه زوجته- إلى الأسر. يعجب القائد المسيحي بوفاء المسلم فيطلق سراحه بلا فدية. يتوجه الزوجان إلى بلدهما ويرسلان إلى القائد المسيحي هدية تتكون من أسلحة وحياد وعملات ذهبية. يقبل القائد المسيحي الأسلحة والحياد "للدفاع عن الزوجة المسلمة ضد الأخطار التي قد تتهددها" ويرد إليهما العملات الذهبية شاكرًا. تنشأ بين المسلم والمسيحي صداقة تدوم مدى الحياة^(٢).

هذه القصة، التي تبدو وكأنها لا يمكن أن تحدث إلا فى عالم الخيال، تستند إلى واقع تاريخي، وقد كتب البروفيسور لوبيث إسترادا بالفعل أن هذه القصة الجميلة ما كان لها أن تصل إلى عالم الأدب لولا أن لها أصلا تاريخيا. على أن جهود ذلك العالم الإسباني فى التوصل إلى حقيقة الأمر ذهبت سدى، فالراوى يزعم أن الأحداث وقعت فى ألورا وأن القائد المسيحي اسمه نارباييث... إلخ. يستعرض لوبيث إسترادا التاريخ

الإسباني فيكتشف أن أنتيكيرا ظلت إسلامية حتى عام ١٤١٠ وقد تولى قيادتها نارباييث، وبالتالي فلا يمكن أن يكون قائداً لأنتيكيرا وألورا - التي كانت إسلامية حتى عام ١٤٨٢ - في آن واحد. يخلص استرادا في النهاية إلى أن التاريخ المشار إليه في القصة لا يتفق مع الوقائع الموثقة، لكنه يؤكد - كما أشرنا - وجود حدث تاريخي استند إليه مؤلف القصة الموريسكية. ما الحل إذن؟

الكتاب الذي بين يدينا الآن يجيب على تساؤلاتنا، إذ يحدثنا عن عروس غرناطية استوقفتها مجموعة جنود إسبان مسيحيين وهي في طريقها لكي تزف إلى زوجها الفارس المسلم في المغرب. وقد تحلى القائد المسيحي بشيم الفرسان وأفرج عن العروس التي واصلت طريقها، اعتباراً من ذلك التاريخ نشأت علاقة ودية بين فارسين نبيلين ، أحدهما مسيحي إسباني ، والآخر مسلم غرناطي كان قد هاجر لتوه إلى المغرب.

أما الفارس المسيحي فهو السيد إنيغو لوبيث دي ميندوثا، ماركيز مونديخار وكونت تينديا، والمسلم الغرناطي هو أبو الحسن على المنظري، قائد قلعة بينيار الغرناطية الذي أسس أو أعاد تأسيس مدينة تطوان المغربية، والفتاة التي ظهرت في القصة الموريسكية إذن هي النموذج الأدبي لفاطمة خطيبة على المنظري.

في السطور التالية نعرض بإيجاز شديد مضمون فصول الكتاب، الفصل الأول يتناول جغرافية تطوان وما حولها، وهي الساحة التي ستجرى عليها الأحداث بعد وصول الموريسكيين المطرودين من إسبانيا أو قبيل سقوط غرناطة. يتوقف المؤلف كذلك عند الفترة السابقة على وصول الأندلسيين. ويتحدث الفصل الثاني عن تاريخ غرناطة في الفترة التي سبقت سقوطها مباشرة حتى يتعرف القارئ على المنظري الذي كان أحد قواد جيش أبي عبد الله الصغير، ويخلص المؤلف إلى القول بأن المنظري قد رحل

عن إسبانيا قبل سبتمبر عام ١٤٨٥، يتحدث المؤلف كذلك عن عائلة المنظرى استناداً إلى مصادر إسبانية وبرتغالية، بالإضافة إلى مؤرخين عرب مثل لسان الدين بن الخطيب والمقرئ صاحب "نفح الطيب".

الفصل الثالث يحدثنا عن خطيبة المنظرى الغرناطية - وهى فاطمة ابنة بن كماشة وقريبة الملك أبى عبد الله الصغير- التى تعرضت للأسر وهى تعبر نهر شنيل ولم يكن برفقتها سوى بعض الخدم. فور علم المسلمين الغرناطيين بما حدث أطلقوا سراح فارس مسيحي لكى يبلغ كونت تينديا استعداد ملك غرناطة لدفع فدية مقابل إطلاق سراح العروس. إزاء هذا الاهتمام يطلق القائد المسيحي سراح العروس دون فدية، وهى بادرة كان لها صدى كبير فيما بعد. يتحدث الفصل الثالث كذلك عن زوجة أخرى للمنظرى، مغربية هذه المرة، وهى ست الحرة ابنة على بن راشد - صاحب السلطان الفعلى على المنطقة الغربية من شمال المغرب آنذاك - التى سيكون لها شأن عظيم فى تاريخ تطوان.

الفصل الرابع يحدثنا عن النشاط الجهادى للمنظرى - استناداً إلى مصادر برتغالية - ضد البرتغال وإسبانيا برا وبحراً، ويخصص المؤلف جانباً من الفصل للحديث عن القرصنة (من وجهة نظر المؤرخين الإسبان) أو الجهاد البحرى (من وجهة نظر المؤرخين العرب)^(٣)، وكيف أن فك أسر المسيحيين الإسبان كان يكلف الدولة الإسبانية مبالغ طائلة كانت تدخل فى خزانة أصحاب السلطة فى المغرب .

الفصل الخامس يتناول إدارة المنظرى لشئون تطوان بعد إعادة تأسيسها، وكيف أن بن راشد - والد ست الحرة^(٤) - ساعده فى ذلك، يذكر المؤلف أن المنظرى ظل يحكم المدينة دون منازع حتى تقدم فى العمر وفقد بصره. يتحدث المؤلف عن يأس كل من المنظرى وبن راشد فى الحصول على الاستقلال المطلق عن فاس، ويقول إن هذا أدى إلى إجرائهما محادثات مع البرتغاليين بهدف توفير سفن تسمح لهما ولعائلتيهما بالرحيل إلى تونس وتسلم مدينة تطوان للبرتغاليين، يقول المؤلف إن لديه وثائق تثبت ما يقول، لكننا لا نملك سوى إبداء التحفظ إزاء ما يذكره، فهو لا يعرض وثيقة وقعها

المنظرى أو بن راشد، ثم إنتا لا نطمئن كثيرا لكتابات المؤرخين الأوروبيين فى ذلك العصر (انظر على سبيل المثال حديثهم عن الذهب الكثير الموجود فى المغرب والعصا السحرية التى تدل على مكانه).

الفصل السادس يتحدث عن العلاقة بين القادة فى شمال المغرب وإسبانيا. يعرض المؤلف وثيقة عبارة عن محضر شرعى قام بمقتضاه أشخاص رسميون إسبان مسيحيون بتنفيذ حكم الإعدام فى مواطنين مسيحيين إسبان مقيمين فى مدينة ترغة. يرى المؤلف أن قيام رسميين مسيحيين بتنفيذ حكم الإعدام فى بلد مسلم لم يكن ممكنا دون اتفاق مسبق بين السلطات فى إسبانيا والمغرب. يتحدث كذلك عن وجود اتصالات بين ثافرا وبن راشد ، وبين كونت تنديا والمنظرى. يعرض رسائل متبادلة بين أولئك القادة.

الفصل السابع يتحدث -استنادا إلى مصادر برتغالية وقشتالية- عن محاولة ملك إسبانيا غزو فاس. يذكر المؤلف أن البرتغال كانت تعارض دائما أى تدخل إسباني فى فاس، ولهذا أخفى الملك الكاثوليكي نيته عن الجميع تقريبا وأراد أن يقود الحملة بنفسه. يسوق المؤلف أدلة على أن الحملة كانت موجهة إلى فاس رغم أن المصادر الإسبانية لا تكاد تذكر شيئا عن هذا الموضوع.

الفصل الثامن يتحدث عن السنوات الأخيرة التى عاشها المنظرى ثم وفاته. يفرد المؤلف صفحات للحديث عن صداقة جمعت بين القائد الغرناطى والراهب كونتريراس. يتحدث بعد ذلك عن ست الحرة التى حكمت تطوان بعد وفاة المنظرى.

الفصل التاسع يتحدث عن آثار عائلة المنظرى فى غرناطة بعد سقوط دولة بنى نصر، فيعرض وثائق تتحدث عن أملاك عائلة المنظرى وعن أن أحد أفراد العائلة استطاع تهدئة ثورة أقرانه من الموريسكيين.

الفصل العاشر يتحدث عن آثار المنظرى فى تطوان ومن بينها برج أو قلعة المنظرى، وبوابات سور مدينة تطوان، وضريح القائد الغرناطى.

يتضمن الكتاب عدة ملاحق وثائقية: وثيقة برتغالية تتحدث عن انهيار مدينة تطوان قبل أن يعيد المنظرى تأسيسها، ووثيقة ثانية تتحدث عن زوجة المنظرى، فاطمة الغرناطية، ووثيقة ثالثة تؤكد وفاة المنظرى فى أواخر عام ١٥٤٠ أو أوائل عام ١٥٤١، أما الملاحق من الرابع إلى السادس فهى تعرض وثائق خاصة بممتلكات عائلة المنظرى فى إسبانيا وتعود إلى الفترة ما بين عامى ١٥٤٤ و ١٥٧٦ .

هناك عامل مهم يضيف على هذا الكتاب أهمية خاصة، وهو يتمثل فى الوثائق البرتغالية التى يعرضها، والتى تتناول العلاقة مع تطوان فى القرن السادس عشر، لا نظن أن هذه الوثائق قد ترجمت إلى العربية، ونأمل أن تؤدى الفقرات المترجمة منها فى هذا الكتاب إلى إدراك أهميتها و - بالتالى - إلى ترجمة الكتاب كله من البرتغالية إلى العربية مباشرة.

هذا الكتاب يثير قضية مهمة إلى أقصى حد، إن أصحاب النفوذ فى المغرب العربى -طبقا لرواية المؤلف- قد تعاونوا مع الملك فيرناندو مما أسهم فى التعجيل بسقوط غرناطة، والأمر هنا شديد الوطأة على النفس، ويبقى أن يتسلح مؤرخونا بالوثائق لدحض هذا رأى أو الاعتراف بصحته وإعادة كتابة تاريخ سقوط غرناطة، (إن صدق ما يرويه المؤلف فسيكون لدى مؤرخينا سبب آخر لكيلا يتحدثوا عن خيانة أبى عبد الله الصغير، يحضرنى هنا أن صديقنا غوثالبيس بوستو كان يرى أن الكتابات التاريخية العربية قد ظلمت آخر ملوك غرناطة ظلما واضحا، فقد حملته مسئولية ضياع غرناطة، فى حين أن سقوط المملكة الإسلامية لم يكن سوى محصلة لعقود طويلة من الضعف والتهاون من جانب أسلافه)^(٥).

يذكر المؤلف - فى الملحق الوثائقى الثالث - أن المؤرخين المغاربة لم يتمكنوا من رصد تاريخ وفاة المنظرى وأنهم - لهذا السبب - حاولوا ملء الفراغات بأحداث بعيدة

الاحتمال، وهذا ما أثر فى الكتابات التاريخية المتعلقة بالمغرب. والمؤلف يعتمد على مصادر إسبانية وبرتغالية لترتيب الأحداث.

نستطيع أن نقول - بناء على هذا الكتاب (الفصل السابع) - إن الحرب التى أعلنتها فرنسا وفرنيسيا ضد إسبانيا هى التى منعت فيرناندو الكاثوليكي من الاستيلاء على مملكة فاس.

إذن فهذا الكتاب مهم لتصحيح بعض الأخطاء الواردة فى الكتب التى تتعرض لتاريخ المغرب، أو يسد فراغات يمكن أن توجد فى هذه الكتب.

يطرح الكتاب الذى نقدم له قضية ينبغى التوقف عندها. هل كان مسلمو الأندلس يقدمون "جنسيتهم الإسبانية" على هويتهم الإسلامية؟ هل كان أبو الحسن على المنظرى مؤسس تطوان على استعداد لتسليم المدينة لفيرناندو الكاثوليكي؟ يقول المؤلف إن تسليم المدن والقلاع لم يكن شيئاً غريباً على القادة المسلمين فى شبه جزيرة إيبيريا، وبالتالي فهو مستعد لقبول فكرة أن المنظرى كان بصدد تسليم تطوان للملك الإسباني. على المؤرخ العربى أن يدلى بدلوه فى هذه القضية، وإن كان هذا لا يمنع من أن نتساءل: إذا كان المنظرى ممن يبيعون أنفسهم بهذا الشكل المخزى، فلماذا هاجر إلى شمال إفريقيا حيث المعيشة الصعبة؟ ألم يكن من الأنسب له أن يعرض خدماته على الملك فيرناندو وينضم إلى حاشيته؟

لعل المشكلة الأولى التى يصادفها من يتصدى لهذا الكتاب الذى نقدم له تتمثل فى قلة المصادر العربية التى كان يمكن أن تحل قضية كتابة أسماء الأعلام، وقد حاولنا التغلب على المشكلة كما حدث فى كتاب غوثالبيس بوستو الأول، فاجتهدنا قدر الإمكان فى التعرف على الاسم الصحيح لكل شخصية تاريخية بارزة، أما أسماء الأعلام الأقل أهمية فلم يكن التعرف عليها بالأمر اليسير، لكننا اجتهدنا على أية حال، ونحسب أننا

وفقنا في بعض محاولاتنا، بل نحسب أننا في هذا الكتاب الثاني كنا أوفر حظا من هذه الناحية، فقد رجعنا إلى مصادر لم تكن متاحة عند ترجمة الكتاب الأول، وهكذا تمكنا الآن من كتابة كثير من أسماء الأعلام بشكل صحيح.

الكتاب مفيد بلا شك، ونحسب أنه يمثل إضافة إلى مكتبتنا العربية الخاصة بتاريخ المغرب العربي وبالنتائج التي ترتبت على سقوط غرناطة الإسلامية.

لست في حاجة إلى إعادة تقديم الدكتور غوثالبيس بوستو إلى القارئ العربي، لكنني أكرر هنا أنه كان يرسل إليّ أبحاثه أولا بأول ومعها كلمات طيبة كإهداء، وحدث أن سمعت عن هذا الكتاب الذي تقدم له اليوم، وأدهشني أنه لم يرسل إلي نسخة كعادته، فكتبت إليه أعاتبه، وحمل إلى البريد نسخة بدون إهداء ففهمت أن الأسرة هي التي أرسلت الكتاب وأن صديقي قد رحل عن عالمنا مأسوفا عليه.

لا يسعني في النهاية سوى أن أعبر عن جزيل الشكر والامتنان مرة أخرى لكل من أرملة المؤلف وابنه الدكتور إنريكي غوثالبيس أستاذ التاريخ بجامعة غرناطة على تعاونهما في إصدار هذا الكتاب.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

جمال عبد الرحمن

القاهرة في الثاني عشر من رجب عام ١٤٢٨ هـ .

الهوامش

- (١) انظر دراستنا " صدى سقوط غرناطة فى الأدب الإشباني"، أعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية، تونس، ١٩٩٣، انظر كذلك كتاب سوليداد كراسكو " مسلم غرناطة فى الآداب الأوربية" ترجمة شرين محمود الرفاعى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، وكتاب سوليداد كراسكو "المسلم عدوا وصديقا" ترجمة وتقديم عبد العال صالح، مراجعة جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥ .
- (٢) Anónimo: Abencerraje, edición de López Estrada, ed. Cátedra, Madrid, 1982.
- (٣) انظر على سبيل المثال بحث الدكتور رأفت غنيمى الشيخ فى المؤتمر الذى عقد فى تونس بمناسبة الذكرى المئوية الخامسة لسقوط غرناطة لإسلامية .
- (٤) السيدة الحرة هى عائشة بنت الأمل على بن راشد الحسنى، تزوجت من القائد أبى الحسن المنظري حاكم تطوان.
- (٥) جاء ذلك فى مداخلة طويلة للمؤلف الراحل تعقبها على رغبة أحد المخرجين التونسيين فى عمل فيلم عن سقوط غرناطة، وكان ذلك ضمن أعمال مؤتمر عقد فى تونس نظمته رابطة الجامعات الإسلامية بالتعاون مع مركز الدراسات الموريسكية والعثمانية والتوثيق والمعلومات بمناسبة الذكرى المئوية الخامسة لسقوط غرناطة الإسلامية.

إلى أبنائى

الذين ولدوا فى تطوان

مقدمة الطبعة الثانية

فى عام ١٤٩٢، فى نفس الوقت الذى كانت تولد فيه آمال عريضة فى البلاد المسيحية الغربية، كان جزء كبير من المغرب الإسلامى يهوى. بينما كان ينشأ عالم جديد، كان ينهار عالم آخر. إن التاريخ لا يمكن أن يكون محايداً مهما سعيينا نحن الذين نزاوله إلى الموضوعية والتخطيط العلمى.

فى الأيام الأولى من عام ١٤٩٢ عندما كان المسيحيون يحتلون غرناطة، كان عند كثير من سكانها التقليديين الأمل اليأس فى وجود تعايش بين الأديان فى المستقبل. باستثناء الانفجارات الوقتية التى نشبت من عدم التسامح، كانت الأندلس فى عصر ازدهارها نموذجاً للتعايش بين مسيحيين ومسلمين ويهود، نموذجاً لاحترام الاختلاف. إن ملوك قشتالة كانوا قد أصبحوا كذلك يحترمون رعاياهم من الديانات الثلاث.

بالإضافة إلى ذلك فإن اتفاقية تسليم غرناطة، التى أبرمت فى سانتافييه، كانت تشير لذلك بشكل حاسم: المسلمون مثلهم مثل اليهود الغرناطيين، سوف تُحترم نراهم وملكيهم ودينهم وعاداتهم.

لكن إلى جانب المتفائلين الذين وقعوا الاتفاقيات، مقتنعين بأنهم كانوا يقدمون إلى مواطنيهم الغرناطيين معروفاً كبيراً، كان هناك آخرون كثيرون، متشائمون جداً. كان البعض منهم قد استبق الأحداث بشكل جيد. لقد أدركوا منذ سنوات سابقة أن عالم مملكة غرناطة، الجزيرة المنعزلة الأخيرة للسلطة الإسلامية فى شبه الجزيرة الأيبيرية، كان ينهار بشكل لا يمكن تفاديه.

كان أحد هؤلاء بالتحديد هو على المنظرى، قائد قلعة بينيار القوية وإقليمها. كان هذا الرجل ينتمى لواحدة من أنبل العائلات الغرناطية التى كانت تمتلك أراضى فى مناطق شتى بالمملكة. كان المنظرى شاهداً على أنه فى سبتمبر من عام ١٤٨٥ كانت قلعته، وكل منطقة الجبال الشرقية تقع بشكل لا يمكن تجنبه فى حوزة المسيحيين.

لم يشأ أن يرى ما سوف يأتى بعد ذلك: توطين المسيحيين فى مجموعة الـ "سبع مدن" التى بحثها مؤخراً رفائيل غ بينادو ببراعة كبيرة. كان المنظرى محارباً وزعيماً سياسياً بكل ما تحمل الكلمة من معنى. لقد تغلب الحدس على حبه لأرضه. كان سقوط بينيار وإثنايوث وكل محيطها بالنسبة إليه مؤشراً لما كان يقترب. لم يقبل الخضوع للمسيحيين، الذى كان يعد اتجاهاً فى ذلك الوقت، ولم يقبل أيضاً المهمة النومانثية البطولية وغير المفيدة على حدٍ سواء، للدفاع عن غرناطة.

قرر المنظرى الإبحار مع جزء من جيشه والعبور إلى المعين الشمالى الغربى للمغرب. كانت البديهة والإحساس تحددان له عديداً من الأفعال، كان أحدها خطأ بلا شك: لم يكن يتعين عليه الابتعاد أكثر من اللازم من أجل إمكانية العودة. فى وادى تطوان، الذى كان قد هاجر إليه من قرون مضت قديسون غرناطيون، وجد ما كان يبحث عنه. السهل الخصب كان يُذكره بغوطته الغرناطية. كانت المدينة فى حالة دمار من جراء الهجمات البرتغالية.

عرف فلاحو المنطقة المنظرى مجاهداً. لقد رأوا فيه قائداً ذا صفات عظيمة ويتمتع بمكانة. رأوا فى جنوده الغرناطيين جبهة أمة ضد هجمات برتغاليى سبتة، الذين كانوا فى كل وقت ينهبون محاصيلهم ويسرقون منهم المواشى. بدأ المنظرى فى رفع أسوار المدينة من جديد وانتشرت البيوت. بدءاً من عام ١٤٩٢ حضر مواطنون جدد قادمون من مملكة غرناطة ليعيدوا تعمير هذه المدينة التى كانت فى مرحلة ازدهار: تجار، صُنَّاع، فنانون، يهود...

بعد ذلك بسنوات، سبب ضغط المسيحيين هجرة حتى لقرويين غرناطيين. نعلم، أن مسلمى ماراسينا Maracena عبروا بأعداد كبيرة ليستقروا فى تطوان. لكن كل

موجة من اللاجئين، مع أنها كانت تزيد من قدرته، لم تكن تجعل محارب بينيار العجوز، بشكل أو بآخر، يتخلى عن يأسه. إن القتال ضد "الحاميات" البرتغالية في سبتة والقصر الصغير وطنجة وأصيلة، لم يكن يحرز انتصارات بل كان النزاع ينتهى بالتعادل. لم يكن البرتغاليون يقدرّون على تطوان، وكانت هذه المدينة تتحول إلى مركز نشط لبيع الأسرى، إلا أن المنظرى لم يكن يستطيع أن يسدد ضربة بارعة تؤدى إلى استيلائه على أحد مواقع البرتغاليين.

كان القائد القديم لبينيار، مُعيد تأسيس تطوان وحاكمها القوى، ييأس شيئاً فشيئاً من العودة. ينبغى الإعجاب بشجاعته واحترام هذه الدراما الإنسانية لمن لمح، قبل أى شخص، سقوط نظام، لكن لم يتحمل أبداً ما كان يعرفه جيداً كل الذين كانوا يحيطون به: استحالة العودة.

هكذا يبرهن لنا هذا المنظرى المُسن الذى كان يستدعى إلى جانبه الأب كونتريراس لكى يحدثه بإسهاب عن أرضه الغرناطية. حتى أن القس رأى طموحات القائد فى العودة قوية جداً، لدرجة أنه صار يثق فى ارتداده إلى المسيحية(*).

من المحتمل أن هذه التفاصيل هى المكان الذى نجد فيه العظمة الكبيرة، الإنسانية، فى شخصية غرناطية عاشت فى ملتقى منطقة، المنطقة الإسبانية - المغربية، فى ظروف كانت بالنسبة إلى الكثيرين المهزومين، درامية على نحو خاص.

إنريكي غوثاليس كرافيو

غرناطة، ديسمبر ١٩٩٢

(*) الحنين إلى البلد لا يعنى بالضرورة الرغبة فى التنصر ، فلو كان الأمر كذلك لما خرج من غرناطة أصلاً ، (المراجع)

مقدمة المؤلف

تُحدّثُ كتابة التاريخ من وجهة نظري سلسلةً من حالات الرضى المختلطة بسلسلةٍ أخرى من حالات التردد وخيبة الأمل، فبينما تتسبب الحالات الأولى على نحوٍ خاص في اكتشاف بيانات جديدة تأتي بشيء موصوفٍ إلى أحداث الماضي، تتسبب الثانية في الشعور الدائم بعدم جودة العمل والشكوك في الموضوعية ذاتها أو في التحليل السليم للبيانات الموجودة.

ويُصنِّحُ كل هذا أكثر وضوحاً عند الكتابة أو البحث في التاريخ الدقيق، بحيث يكون من السهل جداً سكُّب العاطفة ذاتها، عندما يتدخل من يقوم بالسرد في الخبر أو المبتدأ الذي سرّده، يبدو أن هذا الأمر لا يمكن تجنبه.

في حالة كتابة سيرة حياة فإن تجنب الميل أو الرفض من جانب كاتب السيرة لا يزال يُعدُّ أشد استحالة حيث إنه في أحيان كثيرة وبجدة الحيادية يُفَرِّق أو يُمجِّد الشخصية.

تهدف الدراسة الحالية إلى أن تكون سيرة حياتية، سيرة حياتية غريبة نوعاً ما حيث إننا نكاد لا نعرف بيانات شخصية عن صاحب السيرة، لكن هذه البيانات القليلة التي أخذنا نجتمعها بطول أناةٍ على مدى سنين طويلة تقودنا أيضاً، إلى حدٍ ما، إلى سيرة بضعة آلاف من الكائنات البشرية التي عاشت وقاست وماتت في فترة صعبة من عصرها.

إن كل لحظات المسيرة الإنسانية صعبة حقيقةً.

نستطيع أن نقول، مقتبس من التشبيه الوارد بالكتاب المقدس، إن الإنسان يلدُ التاريخ بألم أحشائه. كان الإنسان الأوروبي في نهاية الفترة الثانية من العصر الوسيط يخرج من نهاية طريق شاقٍ وخشن ليبدأ طريقاً آخر مليئاً بالآمال والطموحات.

إن الموقف الأوروبي الإسباني يُعدُّ موقفاً مماثلاً، لكن به - كإضافة - واقعتان أساسيتان: الأولى هي الإنجاز بنجاح لحربٍ قاسية وممتدة، من أجل الحفاظ على هذه الهوية الأوروبية بالتحديد؛ الأخرى، هي التوسع إلى عوالم جديدة ذات نتائج لا تُحسب سواء للشعب الإسباني نفسه، أو للعالم عامةً.

لا شك في أن كلتا الواقعتين، سوف يكون لهما وقع سلبيٌّ على الأقليات الإسبانية التي عاشت، إحداها بالحرب والأخرى بدونها، مع المسيحيين على مدى كل الفترة الثانية من العصر الوسيط، أي من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر.

لقد وجدت الأقلية اليهودية والأقلية المسلمة على حدٍ سواء نفسيهما مهمشتين من المؤسسات الوطنية الكبيرة، وتحولتا، خاصةً الأقلية الثانية، إلى شريحة اجتماعية مرفوضة من قبل باقي مواطنيها.

لا نريد أن نعرض لهذه المشكلة التي قام بتحليلها العديد من المؤرخين، بل أن نذكرها كمنشأ ومصدر لهذا الإبعاد الإسباني المسلم المستمر الذي يأخذ بدءاً من القرن الثالث عشر في إفقار إسبانيا المسلمة ديموغرافياً ويثري، بشكلٍ ما، الدول القريبة بشمال إفريقيا.

على رأس كل العلامات الأخرى، توجد علامتان تاريخيتان تميزان المرحلة الأكثر حِدَّةً لظاهرة الإبعاد الإسباني هذه، إحداها هي السقوط النهائي لمملكة بنى نصر في غرناطة، والأخرى هي الطرد الكلي الذي أصدره الملك فيليبي الثالث في عام ١٦٠٩ .

إن السيرة الحالية فصل من الواقعة الأولى. إن إثبات أن المسلمين الذين رحلوا كانوا إسبانياً مثلهم مثل المسيحيين الذين بقوا، يُعدُّ أمراً خارجاً عن نطاق دراستنا.

من خوليان ريبيرا حتى اليوم، يتعين علينا أن نتفق على أن النزاع لم يكن عنصرياً، بل دينياً واجتماعياً.

إن نتائج هذين العاملين على الطبيعة الوطنية شحذت مواقف كلا الفريقين.

إن مغامرات الغرناطيين التي سوف نراها منعكسة في الفصول التالية، مغامرات لإسبان في أراضٍ غريبة. لا نهدف بذلك إلى أن نضع أنفسنا في موقفٍ قوميٍّ ومفرطٍ في الوطنية، بل أن نعرض ببساطة حقيقة واضحة جداً.

لقد كانت إسبانيا، بسببٍ أو آخر، بلداً ذا هجرة غزيرة ومستمرة وقد نسي التاريخ، عموماً، من رحل إلى الخارج.

نسى التاريخ، على سبيل المثال، أولئك الغرناطيين الذين أسسوا تطوان، أو فتحوا جزءاً من النيجر Niger، بعد أن كسبوا معركةً حاسمةً ضد الأسرة الحاكمة المغربية. سوف ينسى التاريخ فيما بعد، أهل إكستريمادورا الذين أسسوا الرباط، بعد أن عاشوا كجمهورية مستقلة في مواجهة القوى الأجنبية.

إذا كانت البطولات الإسبانية في أمريكا يتم الإعلان عنها، لماذا لا يتم عمل نفس الشيء مع الوقائع التي لا تقل روعة لإسبان مسلمين في إفريقيا؟

نستطيع أن نرد على أنفسنا بأن السبب كان بالتحديد هذه الرؤية القومية الضيقة التي كثيراً ما شوهت تاريخ الشعوب.

لكننا نحن أنفسنا ننزلق، فيما يبدو، نحو ما هو سطحي وفارغ، بينما مقصدنا هو شيء آخر تماماً.

نتساءل ما إذا كانت الهجرات الإسبانية المسلمة إلى شمال إفريقيا تشكل رداً على الاختراقات الإفريقية في شبه الجزيرة، وأن كلا التيارين هما أيضاً جزء من ظاهرة طويلة البقاء، مشتقة من الوضع الجغرافي الإستراتيجي لشبه الجزيرة بالنسبة إلى القارة الإفريقية؛ إنه جهد أوروبا من أجل تثبيت جبهتها الطبيعية مع إفريقيا بشكل حاسم.

لكن، وأمريكا؟، لماذا ينزف الإسباني هناك ولا يحدث ذلك في القارة الإفريقية الأكثر قرباً؟

ليست هناك أية إجابة نراها صالحة بالكامل. عملياً يتم التخلي عن الجبهة البحرية البحر متوسطية، بعد أن وثقوا، مثل السيد برناردينو دي مندوثا، في هذا الخندق المائي الذي يبلغ طوله ١٤ كم ويتم البدء في طريق العالم الجديد.

تُهمل إفريقيا نفسها، تتحول إلى بلد البرابرة، بلد القراصنة، الذين يتعين الوقاية من غاراتهم بالأبراج التي تنتشر على كل الساحل الإسباني.

أن نوضح الآن إذا ما كانت إسبانيا قد أدت أولاً دورها التاريخي بالنسبة إلى إفريقيا، بالتحديد لشمال إفريقيا، يبدو إذن أمراً خيالياً وبعيداً عن الواقع؛ ليس هذا هو الموضوع. وإذا تركنا الوصايا الملكية جانباً، فإن إسبانيا أدت دورها، أو أدوارها، في التطور التاريخي للشعوب ومثلت دورها تماماً كما فعلت باقي بلاد العالم.

بيد أنه إذا كان التاريخ ينبغي أن يؤخذ كعبرة، فليقدم ويبرز الأحداث التي طورها الإسبان في كل العصور وفي كل الأماكن.

وليكن هذا الحدث الخاص بتأسيس مدن في شمال إفريقيا على أيدي المهاجرين الغرناطيين واحداً منها.

الفصل الأول

تطوان، تأسيس غرناطة

الموقع الجغرافى :

يتشكل شمال المغرب من الطرف الشمالى الغربى للقارة الإفريقية. إنه مثل كتلة عملاقة تريد أن تمتد إلى ما بعد مضيق جبل طارق، هذا القطع الذى يتشكل مع الأراضى الجنوبية، يلتقى مع شبه الجزيرة الأيبيرية.

لو أغلق مضيق جبل طارق، فسوف يرسم، فى كلا الجانبين، قوسين فسيحين على شكل علامة x، دون التميز كثيراً بين الفرعين الشماليين والفرعين الجنوبيين للقوسين.

المنحنى بفرعيه نحو اليسار له خصائص أطلنطية متساوية فى الشمال كما فى الجنوب. المنحنى الآخر له، كذلك، محددات جغرافية متماثلة على جانب وآخر من نقطة الانحناء. فى أحد الجانبين، يشكل النظام الخاص بسلسلة جبال سيرا نيبادا الحافة الجنوبية لشبه الجزيرة وفى الجانب الآخر تكوّن سلسلة جبال الريف، التى تجرى قريبة من البحر، أقاليم ذات تشابه كبير. نفس النطاق الجبلى، الذى تتجاوز قممه، كثيراً، ارتفاع ١٥٠٠ متر. ساحل بحر متوسطى شديد الانحدار، دون مأوى جيدة، بمناطق داخلية شديدة الوعورة وأنهار جارفة تجرى فى مضيق فى الجبال الصعبة وبانحدار هائل.

تقريباً فى الطرف الغربى للقوس الجبلى للريف، تتقاطع منطقة الريف مع وادى نهر لاو Lau، الذى يعد واحداً من أهم الأنهار لسعة حوضه التى تبلغ أكثر من ٩٥٠ كيلو متر مربع، بسبب حجم ثروته المائية التى تصل إلى ما يقرب من ٤٠٠ مليون متر مكعب سنوياً. مع ذلك، له كل خصائص الأنهار البحر متوسطة: ثروة مائية متزايدة

فى الشهور الأولى من السنة، وتتلاشى تقريباً فى فترة الضحالة، أرض خصبة فى مصب النهر ذات امتداد صغير، مجرى قصير من منبعه فى جبل ماغو Mago حتى البحر، بالكاد يبلغ طوله ٧٠ كيلو متراً فى خط مستقيم.

وهناك نهر آخر أصغر من سابقه يصب على بعد أكثر قليلاً من ٥ كيلو مترات شرقى نهر اللاو، ألا وهو نهر تارغة، ويوجد نهر آخر، مولود كذلك فى بطن الجبل، وهو نهر التيفيساس، ويصب على بعد يقترب من ١٠ كيلو مترات شرقى نهر التارغة. بالكاد يصل طول مجرى هذا النهر الأخير إلى ٢٠ كيلو متراً. يعد نهر التيفيساس أكبر نوعاً ما. كلاهما به خلجان مجردة من أى مأوى، بعضها معرضة لرياح الشرق والأخرى لرياح الغرب.

سلسلة جبال ريف، التى يقطعها جرف نهر اللاو، تعود إلى الارتفاع بشكل هائل، عند جبل كيلتى المهيّب الذى يبلغ ارتفاعه ما يقرب من ٢٠٠٠ متر، وتمتد فى شكل قوس نحو الشمال، مع جبلى بنى حسن وبنى حزمار Husmar، إلى أن يقطعها من جديد وادٍ آخر، وهو وادى نهر مرتيل. قبل هذا الوادى هناك نهران صغيران يخرجان من الساحل، رأس مكاد Mekad ورأس مازارى Mazari، وهما يشكلان خليجين صغيرين جداً، وهما خليج تمرابط وخليج إمسا. كلاهما منفذان بسيطان لمياه السيول. خليج إمسا له جدول صغير يصب فى الدلتا، إلا أنه ليس لآى من الخليجين قيمة كمأوى بحرى.

يتشكل وادى نهر مرتيل من هذا النهر الذى يستمد مياهه من ثلاثة سيول : الخميس والشكور والنخلة. ينبع الأول من منحدرات جبال أنجرة، والثانى من جبال بنى إيدر والثالث من بنى عروس. سيل الخميس يأخذ اتجاهه من الشمال إلى الجنوب. أما سيل الشكور فيتجه من الجنوب إلى الشمال، هكذا مثل سيل النخلة، ويأخذان اتجاهاً من الغرب إلى الشرق عندما يتحدان، وينحرفان بشكل طفيف نحو الشمال الشرقى ويعبران الوادى مكونين تعرجات شديدة.

الخميس والشكور يتحدان قبل ذلك، ويشكلان ذراعاً واحداً يتحد معه سيل النخلة على مسافة ٢.٢ كيلو متر من تساقط المياه. فقط حينئذ يبدأ يأخذ شكل نهر، مع أنه ذو خصائص طبيعية بحر أوسطية.

عدم الاستواء القليل الموجود منذ أن تتحد الروافد الثلاثة الجبلية حتى المصب يسبب المنحنيات العديدة والمغلقة التي يشكلها (النهر).

يعد حوض نهر مرتيل أكثر اتساعاً من حوض نهر اللاو، حيث تبلغ مساحته ١٠٨٨ كيلو متر مربع وبالرغم من أن ثروته المائية أصغر، ٣٥٠ مليون متر مكعب سنوياً، فإن الوادى الذى يشكله يبقى أكثر اتساعاً ومفتوحاً على البحر، ويشكل ريفاً صالحاً لكل أنواع المحاصيل.

بعد مرور النهر يستمر القوس الجبلى، إلى شمال تطوان، بجبل درسة الذى يبلغ ارتفاعه ٥١٢ متراً ويغير الآن اتجاهه من شمال غرب إلى شمال شرق فى سلسلة جبال الهاوس Haus، حتى ينتهى عند جبل موسى، تقريباً عند قمة مضيق جبل طارق، غربى سبته.

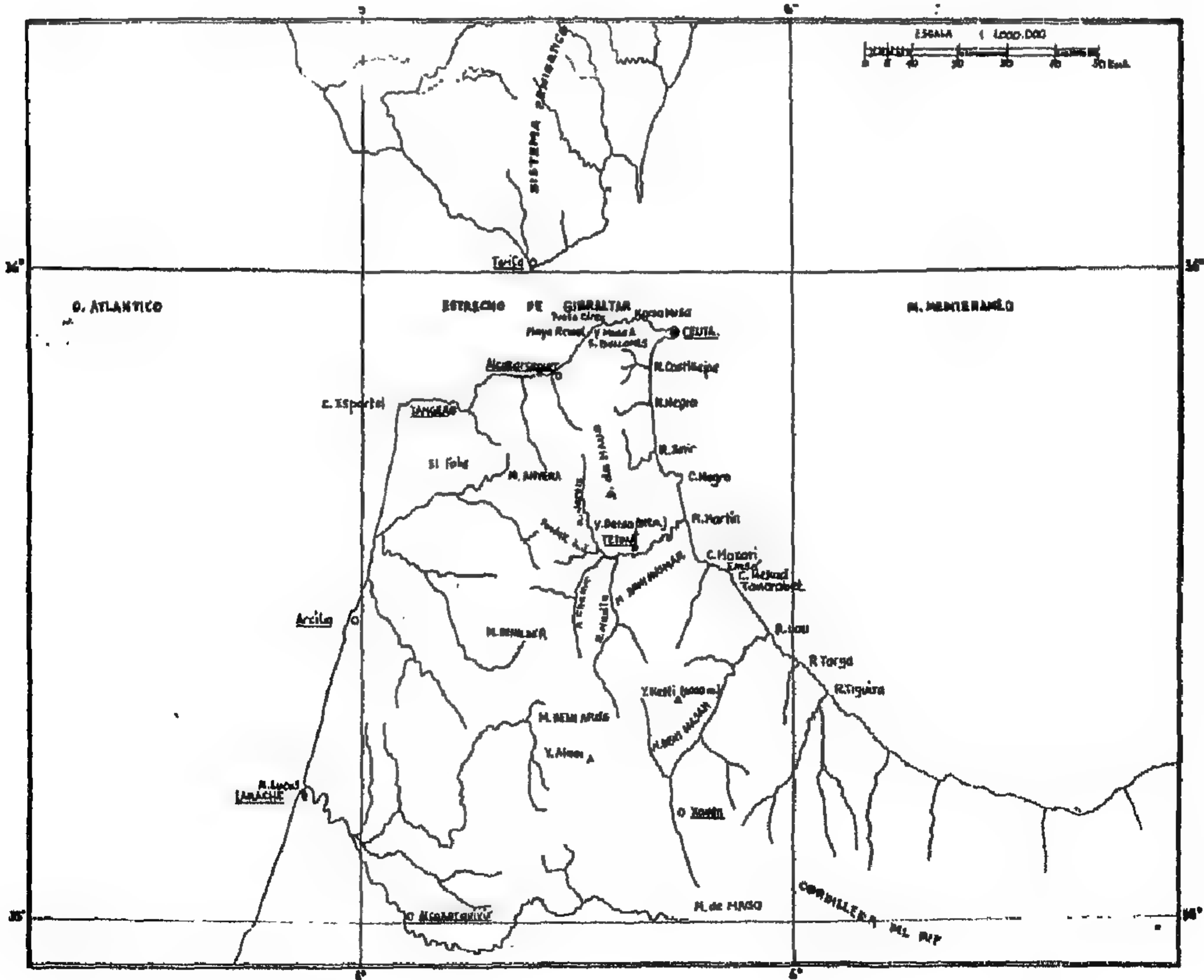
من غوطة نهر مرتيل حتى سبته توجد بعض الشقوق النهرية الجارية مثل شقوق إسمير Smir والنيكرو والفنيدق، التى تكون أودية صغيرة مفتوحة على شاطئ رملى شبه مستديم، من رأس مازارى حتى الفنيدق، مع الاقتحام الصخرى الوحيد لكابو نيكرو الذى يرتفع إلى ٣٠٠ متر فوق سطح البحر، مشكلاً جرفاً شديدة الانحدار.

هذا الإقليم الذى نقوم بوصفه مدرج تقريباً فى المربع الذى يشكله خطاً العرض ٣٥ و ٣٦ درجة عرض شمالاً وخطاً الطول ٥ و ٦ درجة طولية غرباً.

لو رسمنا فى هذا المربع خطى الطول ٣٦ و ٥، فسوف نقسم هذا الشمال المغربى إلى قسمين وسوف نستطيع أن نشير إلى نصفين مختلفين بوضوح، لأن الجزء الشرقى أو البحر متوسطى الموصوف، مختلف جوهرياً عن الجزء الغربى أو الأطلنطى، الذى يشكل الفرع الجنوبى للقوس الآخر الكبير للعلامة العملاقة x.

عند الانطلاق من ملتقى راس اسبارطيل مع دائرة خط الطول بمقدار ست درجات طولية غرباً، فإن الساحل الأطلنطي المغربي يهبط من الشمال إلى الجنوب، في شواطئ رملية فسيحة ومستنقعات كبيرة، متفصلاً شيئاً فشيئاً بزاوية مقدارها خمس وعشرين درجة عن خط الطول المذكور، حتى العرائش، في مصب نهر لوكوس LUCUS بمقدار عشر دقائق عن الدرجة السادسة لخط الطول.

هذا المعين المنحرف الصغير الذي يكون أقصى بعديه في القاعدة الكبرى والارتفاع، وبالكاد يتجاوز مقياس درجة أرضية، هو نموذج صغير للمغرب البحر متوسطي والمغرب الأطلنطي، من حيث طبيعة جباله وطبيعة مياهه السطحية وحتى مناخه، ونخص بالذكر هذا الأخير لوجود مضيق جبل طارق في القاعدة الصغرى للمعين المنحرف.



إنه مضيق يبدو، على العكس، رافداً عريضاً للنهر، خاصة في الأيام الساطعة والصفافية عند هبوب الرياح الغربية، التي يرى فيها أحد الساحلين من الساحل الآخر بوضوح وتفصيل يقرب الأشياء.

من جزيرة طريف في نفس خط العرض ٣٦ حتى ثيريس Cires غربى سبتة هناك مسافة قدرها أربعة عشر كيلو متراً .

الجزء الساحلى من المضيق كله صخرى تقريباً. ليست له أية علامات بارزة سوى خليج القصر الصغير، وهو مصب لنهر صغير. شرق القصر الصغير، يوجد شاطئ رميل Remel وثيريس، ويتبعهما ميناء صغير، ميناء مرسى موسى، عند سفح جبل موسى، العملاق الجبلى الذى يشكل العمود الإفريقى للمضيق.

قبل الوصول إلى سبتة توجد سلسلة جبال بويونيس Bullones .

إنه ساحل، مثل ساحل المضيق، ذو مأو قليلة وبدون تيارات نهريّة حقيقية.

المناخ والمحاصيل متشابهة في قوسى العلامة x وقد تم وصفهما، التياران الهوائيان الغالبان هما المسميان غربى وشرقى، الأول جنوبى غربى والثانى شمالى شرقى.

الرياح الغربية تهب في الخريف والشتاء، والرياح الشرقية تهب في الربيع والصيف. الرياح الغربية أكثر منفعة لكونها محملة ببخار الماء الذى يولد الأمطار التى تساعد على الإنبات. الرياح الشرقية أكثر ضرراً، فهي تحرق النباتات والبراعم في الربيع وتزيد درجة الحرارة في الصيف.

درجة الحرارة المتوسطة لا تنخفض عن عشر درجات في الشتاء ولا ترتفع عن سبع وعشرين درجة في الصيف. مع ذلك، توجد مناطق جبلية تصل درجة الحرارة فيها في فصل الشتاء إلى عشر درجات تحت الصفر، وأماكن من أودية الأطلنطى تصل درجات الحرارة فيها في بعض الأحيان إلى ثمان وأربعين درجة في فصل الصيف.

وذلك [لأن المعين القارى يشتمل على منطقتين تطلان على بحرين مختلفين لهما ارتفاعات متوسطة وطبيعة جبلية مختلفتان] .

إن قرب مضيق جبل طارق نحو القاعدة الصغرى للمعين المنحرف، وقرب المحيط الأطلنطى والبحر المتوسط - بضغوطهما المائية والجوية المختلفة - تنتج عنه تيارات جوية شديدة ومستمرة، أكثر شدة فى المضيق ذاته، وفى مضيق الفونداك Fundak وفى وادى نهر مرتيل.

إن العوامل المناخية والجبلية والمائية، والمتشابهة جداً فى كلا الفرعين الجنوبيين الغربيين للعلامة(*) مع مثيليهما الشماليين الأيبيريين، تجعل المجموعة النباتية والحيوانية متماثلتين تقريباً.

مع ذلك فقد بقيت آكلات اللحوم البرية فى المغرب أكثر منها فى جنوب إسبانيا. فعلى سبيل المثال، أمكن تسجيل وجود أسود فى منطقة طنجة والساحل الأطلنطى فى فترة متقدمة من القرن السابع عشر.

المنحدر الأطلنطى ذو مناخ معتدل وممطر وذو تضاريس سهلة، به أراض رملية وطينية، بدون جبر، وفقيرة زراعياً، فيما عدا قيعان الأودية، خاصة قاع وادى لوكوس. المنحدر البحر أوسطى أكثر ضحالة من سابقه، وذو أراضٍ جيرية فى الغالب وقلما يصلح للزراعة، وتؤثر فيه الجبال الوعرة.

المرور من منحدر إلى آخر فى الشمال يتم فى الميناء الجبلى للفونداك فى عين جديدة، الذى يتسلق القمم من قاع وادى المرتيل ليهبط إلى سهل فحص فى طنجة. الاتصالات الأطلنطية سهلة جداً، على عكس الاتصالات البحر متوسطة حيث تتبع الطرق الأودية الضيقة ومضائق مجارى المياه.

توجد سهولة أكيدة فى التنقل بين سبته وتطوان بطريق الساحل، لكن بمجرد أن نجتاز وادى نهر مرتيل تتوقف هذه السهولة أمام المستنقعات الصخرية والجبال العالية، ويصير التنقل أكثر صعوبة كلما توغلنا فى المتاهة المتشابكة للريف.

يتم الانتقال من وادى نهر مرتيل إلى وادى اللاو بالطواف حول الشوكة الجبلية لجبل بنى حزمار وبنى حسن، وياستغلال مضائق رافدين، أحدهما لمرتيل والآخر للاو. بدءاً من اللاو تزداد الطبيعة الجبلية تعقيداً حتى تتوج ذرى جبل حاسة بارتفاعات أعلى من ألقى متر.

توجد مدينة الشاون على خط عرض ٦٠ ٣٥ شمالاً وخط طول ١٥ ٥ غرباً، على وجه التقريب، وهى تنتمى إلى حوض اللاو، الذى يتبع أحد روافده أو مجاريه الواقعة فى المدينة ذاتها بالتحديد، على بعد ستة كيلو مترات من نهر اللاو، مع ذلك تبقى الشاون غير مرئية، حتى بالنسبة إلى من توغل فى وادى نهر اللاو. هكذا يكون تشابهاً مع الجبال التى تحيط بها.

تشكل الجبال فى الشاون عتصراً آخر لطبيعتها الحضرية، فهى تغلق أكثر من شارع، وترتفع البيوت، وتتصارع مع السماء من أجل تشكيل سقف المدينة.

تقريباً فى المواجهة، أكثر قليلاً نحو الشمال الغربى تقع سرّة هذا الإقليم الجبلى للمعين المنحرف الشمالى، جبل علم Yebel Alam، بين مجموعة جبال بنى عروس.

فى الوادى الآخر، وهو وادى المرتيل، تقع مدينة تطوان. قريبة جداً من البحر بما فيه الكفاية، ١١ كيلو متراً، ومفتوحة بالتالى على اختراقات ممكنة. مشيدة فى سفوح جبل درسة، مرفوعة فوق نهر مرتيل، تبلغ إحداثياتها التقريبية ٢٥ ٥ درجة طولية غرباً و ٣٤ ٣٥ درجة عرضية شمالاً.

تبعد ٤٠ كم عن سبته، أو عن المضيق.

فى موسم الأمطار ىمتلئ نهر مرتىل بكمية كافىة من المىاه بحدىت تبحر فىه قوارب صغىرة.

إنها مدة قليلة فى الواقع، حىث إن الجزء الأكبر من العام وكذلك فى سنوات القحط التالىة، ىمكن الخوض فىه بسهولة نسبىة. ىشكل تىاره الضعىف العىد من التعرجات فى الوادى، مما أذى إلى حدوث تغىر المصب فى مناسبات عدة على مدى القرون.

هكذا سىكون مسرح الأحداث.

ىبدو لنا أنه ىتعىن أخذ ذلك فى الاعتبار جىداً عند النظر فى كىف ولماذا ىتحرك الأشخاص والشعوب، خاصة أنها ستكون الأرض التى سوف تستقبل آلاف من المبعدىن الغرباطىىن فى الأعوام الآخىرة من القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر.

تدمىر خىالى وتدمىر واقعى لمدينة:

هناك فترة فى تاریخ شبه الجزيرة الأىبىرىة، مفعمة بأحداث حاسمة أكثر من كونها بارزة، بالنسبة إلى تطور أوربا الحدىثة، وبالتالى، العالم المعاصر الحالى. إنها فترة بداية التوسع البرتغالى، بتمهىداته فى شمال وغرب إفرىقىا، ونهاىة حرب الاسترداد القشتالىة واكتشاف عالم جدىد.

بجانب هذه الأحداث الكبىرة لىس غرىباً أن تبقى مظلمة أحداث أخرى، ظهرت على هامش الأحداث الرئىسىة وتولى بطولتها بالتحدىد أولئك الذىن أزاحتهم الظروف من مكانهم التارىخى.

المسلمون الغرباطىون فى أواخر القرن الخامس عشر، الذىن مزقتهم الحروب الأهلىة، وانعزلوا تدرىجياً فى عاصمتهم، أخذوا فى أحيان كثيرة طرىق المنفى وتدفقوا، بكمية لىست بالقلىلة، على سواحل شمال إفرىقىا.

إن حظ هؤلاء المبعدين كان مختلفاً جداً، كثيرون عانوا من رفض السكان لهم: المدنيون والقرويون على حد سواء.

آخرون أعادوا بناء حياتهم بطريقة ما، حيث وجدوا استقبلاً ممتازاً، وأخيراً، هناك آخرون استطاعوا أن يكونوا مراكز خاصة، وتوصلوا لإنشاء مدن في شمال المغرب، مثل تطوان والشاون.

ليون الإفريقي، الذي ربما يكون المؤرخ الأكثر قرباً من الأحداث، من المؤرخين البرتغاليين، الذين لا يتكلمون عن ذلك، يقدم حكاية موجزة، لكنها وصفية بشكل كافٍ للتأسيس الغرناطي لمدينة تطوان.

(منذ مدة هاجم البرتغاليون المدينة واستولوا عليها. ظلت غير مسكونة لما يقرب من ثمانين عاماً، وبعدها قام بإعادة بنائها ضابط غرناطي جاء إلى فاس مع ملك غرناطة، عندما غزا فيرناندو، ملك إسبانيا هذه المدينة. كان هذا الضابط جندياً بارزاً حقق أعمالاً بطولية أثناء حرب غرناطة. كان البرتغاليون يسمونه المنظري. حصل المنظري على ترخيص من أجل إعادة تأسيس حكومة المدينة والاستفادة منها. أعاد بناء كل أسوار تطوان، وبنى قلعة متينة جداً وأحاط بالخنادق هذه القلعة وكذلك سور المدينة. تبعاً حارب البرتغاليون دون هوادة. كثيراً ما سبب ضرراً كبيراً لسبته والقصر الصغير وطنجة. بالفعل، كان معه بشكل دائم ثلاثمائة فارس، كلهم غرناطيون وصفوة غرناطة. بتلك القوة كان يطوف البلد، ويعتقل مسيحيين عديدين كان يحتفظ بهم كأسرى وينهكهم في أعمال التحصين. لقد رأيت، ذات مرة ذهبت فيها إلى المدينة، ثلاثة آلاف عبد مسيحي، يرتدون جميعهم قمصاناً من الصوف، كانوا ينامون في الليل مكبلين بالسلاسل في قاع حفر تحت الأرض. كان هذا الرجل كريماً جداً لدرجة أنه كان يستقبل كل أجنبي كان يمر بالمدينة. توفي منذ زمن قليل بعد أن حرم من البصر، لأنه كان قد فقد إحدى عينيه، التي فقئت بسن خنجر وفقدت العين الأخرى الإبصار بسبب الشيخوخة. بقيت المدينة لواحد من أحفاده وهو اليوم رجل ذو شجاعة كبيرة)^(١).

سنقوم بتفتيت النص إلى أجزاء متعددة من دراستنا، لأنه حتى الآن، كان يتخذ كقاعدة لتأكيدات كثيرة يتوجب تقويمها.

لقد كان البرتغاليون، بالفعل، هم الذين دمروا المدينة في شهر يونيو من عام ١٤٣٧ .

لو اعتبرنا أن إعادة بنائها على يد المنظرى كان نحو عام ١٤٨٥، تقريباً، تكون المدة التي ظلت فيها المدينة غير مأهولة أو خالية أقل من نصف قرن وليست ثمانين عاماً، كما يقول ليون الإفريقي.

بعض المؤرخين ارتكزوا على هذه المدة التي ظلت فيها تطوان مدمرة ليؤكدوا أن أسطول قشتالة، في فترة حكم إنريكي الثالث، هو الذى دمر تطوان فى عام ١٤٠٠، وأنها لم يعد تأسيسها من جديد حتى وصل الغرناطيون. يبدو أن مارمول كاريخال، فى القرن السادس عشر، هو مصدر هذه النظرية التي تتكرر لاحقاً، من مؤرخ إلى مؤرخ، بداية، فيما يبدو، من عصر خيل غونثاليث دابيللا إلى أيامنا هذه.

(... فى عام الرب ألف وأربعمئة، نهىها أسطول من قشتالة وأسروا كل السكان تقريباً ومن ذلك الحين ظلت أكثر من تسعين سنة غير مأهولة، إلى أن فاز الملك دون إيرناندو بمدينة غرناطة، حينئذ كان هناك مسلم غرناطى يسمونه المنظرى عبر إلى إفريقيا مع الملك عبد الله الصغير، حيث توسل إلى ملك فاس بأن ينعم عليه بالسماح له بتحسين وإعمار تلك المدينة، لأنه سوف يشن منها الحرب على مسيحيى سبتة، ولبنى له الملك طلبه، وبعد أن أصلح الأسوار بأفضل ما استطاع، أنشأ قلعة بخندق حولها، حيث كان يأوى إليها وعادة كان يغير على حدود سبتة والقصر وطنجة بأربعمئة مسلم فارس أندلسى كان قد أحضرهم من إسبانيا ...)^(٢).

مارمول هو الكاتب الذى يرجع الدمار الطويل لتطوان إلى هجوم بحارة إنريكي الثالث.

نرى أنه فى أوجه كثيرة يحاكى ليون الإفريقى، على الرغم من أنه فى نواح أخرى يسير على نهج الأخبار الواردة فى " التواريخ "، كما فى هذه الحالة الخاصة بتدمير تطوان.

مع ذلك، فكلما الخبرين متحدين خلقا غموضاً كبيراً لأنه غير التاريخ الحقيقى.

لم يدمر بحارة إنريكى الثالث الإشباني قلعة تطوان، التى تبعد عن الساحل بمسافة تتراوح بين عشرة واثنى عشر كيلو متراً. إن ما أبادوه، على فرض صحة غزوة عام ١٤٠٠ تلك، كان تجمعاً حضرياً على ضفتى نهر مرتيل وبالقرب من مصبه، الذى كان يكون قاعدة التجمع والإمداد لقوارب القراصنة التى كانت تخرب مضيق جبل طارق. هذا التجمع ووادى نهر مرتيل كانا يأخذان اسم تطوان، مع مجموعة القرى التى كانت تتكاثر فيه. إن مدينة تطوان القلعة تظل حية منذ أن صممها السلطان المرينى أبو ثابت Abu Tabit فى عام ١٣٠٨ (٣).

براهين وفيرة على ذلك تقدمها لنا التواريخ البرتغالية التى، بعد غزو سبتة، سنة ١٤١٥، حددت فى تطوان البؤرة الرئيسية للمقاومة ضد غزوات الحامية البرتغالية بسبتة.

المؤرخ غوميس إيانيش دى ثورارا أو أثورارا، بكتابه "حكاية الكونت بدرو دى مينيسيس"، المكتوب فى يونيو من عام ١٤٦٣ ويكتابه "حكاية السيد دوارتى دى مينيسيس" المكتوب فى أغسطس من عام ١٤٦٧، هو الكاتب الأكثر قرباً من الأحداث التى يرويها وبالنسبة إليه لا توجد تطوان خالية ولا مدمرة فى الربع الأول من القرن الخامس عشر.

على العكس، كثير من الأعمال البطولية التى حققها البرتغاليون انطلاقاً من سبتة تصدى لها الفرسان التطوانيون كمقاومين شرفاء.

فصل بالكامل، الخامس والثلاثون من أولى الحكايات المذكورة يتحدث عن "كيف ذهب السيد سانشو إلى سبتة، وكيف ذهبوا إلى تطوان..." (٤).

السيد سانشو هذا، الذى كان إسبانيا، كان يبحث عن مغامرات أو غزوات مربحة، وهو ما كان أمراً عادياً فى ذلك الوقت وفى تلك الظروف. مع ذلك، كان يعتبر، أن "القيام بغارات على قرى كان بالنسبة إليه أمراً قليلاً لا يدعو إلى الفخر كثيراً... وبالتالى فقد قرر أن يغير على تطوان، لأنها كانت مكاناً محاطاً بأسوار وأبراج وكان بها كذلك قلعة مناجم وقواد ثغر ... "

لم تكن تطوان مدمرة ومهجورة.

حدثت الغزوة فى عام ١٤٣٥ وهو ما يعد تكذيباً قاطعاً لتدمير تطوان فى عام ١٤٠٠ بواسطة الأسطول القشتالى وامتداد دمارها لمدة تسعين سنة.

التدمير الحقيقى للمدينة، الذى أدى إلى هجرها لمدة ثمان وأربعين سنة على الأقل، حدث بعد سنتين من هذه الغارة التى قام بها السيد سانشو، أى فى سنة ١٤٣٧، ويحكى كذلك فى الفصل قبل الأخير "حكاية السيد بدرو" للمؤلف أثورارا -Azurara، والذي يحمل عنواناً معبراً: "كيف ذهب السيد دوارتى إلى تطوان، وكيف استولى عليها ...".

السيد دوارتى دى مينيسيس، ابن السيد بدرو، عاش مع أبيه فى سبتة، حيث الغارات المستمرة ومخاوف حرب الجبهة؛ هناك كبر ومن هناك خرج ليتوج حاكماً لقلعة القصر الصغير، فى مركز الساحل الإفريقى نفسه لمضيق جبل طارق، مات وهو ينقذ حياة ملكه، مما جعل هذا الملك يكلف المؤرخ أثورارا بكتابة مآثره، التى صاغها بالفعل فى الحكاية الأخرى "حكاية السيد دوارتى ...". أمر منطقي أن فصل الاستيلاء على تطوان يظهر كذلك فى هذه الحكاية الأخيرة.

إن هذا الاستيلاء على تطوان وتدميرها حدث فى ربيع عام ١٤٣٧، وهو العام الذى سوف تحدث فيه الغزوة البرتغالية ضد طنجة، لهذا الغرض بدأ وصول قوات إلى سبتة منذ أول العام.

يحمس الكونت السيد بدرو ابنه السيد دوارتى لكى يفعل شيئاً بارزاً قبل أن تنتهى الغزوة بغية أن يلفت الأنظار إليه أمام نبلاء البرتغال، الذين كان يتعين عليهم الوصول فى ذلك الصيف، يقول له: "ليس للمقاتل هنا شىء يفعله إلا فى مدينة تطوان، اهاجم عليها، وأعتقد أنك سوف تستولى عليها وتقاتل فيها بعض الناس الذين يدافعون عنها إلى أن يأتى النبلاء، أو سوف تدمرها؛ أى من الأمرين تفعل فإن الجميع سوف ينظرون إليك بتعظيم ..."

هكذا فهم السيد دوارتى الأمر؛ وكل الأمور الأخرى، ففى دائرة قطرها يُقدر بفراسخ كثيرة لم يكن هناك سوى قرى. تطوان فقط كان بها استحكامات، وبرج وخنادق ومحاربين جديرين بمواجهتهم.

بعد تجهيز الحملة تم تحقيقها بأفضل ما فى حامية سبتة.

هرب قواد ثغر تطوان أمام انتشار القوات والوسائل التى كان يحملها السيد دوارتى، تاركين تطوان خالية، مع أن أبوابها كانت مغلقة.

وضع البرتغاليون السلام على الأسوار، "... ولأنه لم يكن أمامهم عائق، دخلوا إلى المكان بهدوء وحطموا القليل الذى وجدوه وحرقوا البيوت والأبواب وعندما رأوا أنهم ليسوا فى مأمن لكون تلك القلعة موجودة هناك، اتفقوا على تكسير البوابات، وتدمير كل ما يستطيعونه، وأن يعودوا إلى المدينة، وهو ما فعلوه".

لقد فضّل السيد دوارتى ورجاله التدمير على الاحتلال الدائم، لافتقادهم الوسائل التى تمكنهم من الاحتفاظ بحامية. لا قواد الثغر ولا أى عنصر بشرى آخر حاول أن يسكن من جديد فى تطوان. الانقراض التى خلفها البرتغاليون فى عام ١٤٣٧ هى التى سوف يجدها الغرناطيون فى عام ١٤٨٥ والتى سيحاولون إعادة بنائها وإعمارها.

لقد كان ليون الإفريقى على حق عندما أكد أن البرتغاليين كانوا هم الذين دمروا المدينة. أخطأ فقط فى الفترة الزمنية التى ظلت فيها المدينة غير مسكونة.

وهكذا لأن تطوان كانت تشكل قبل عام ١٤٣٧ سياجاً أمام الغارات السبتية، فإنه بدءاً من ذلك التاريخ ستكون، على العكس، مكاناً للاتصال أو للراحة في طريق الذهاب أو العودة التي كان يطلبها البرتغاليون في غزواتهم العميقة نحو بني عروس وبني حسن. في عام ١٤٦٤، أمضى الملك ألفونسو الخامس نفسه، عند عودته من حملة، ليلة في أنقاض تطوان، ورحل في اليوم التالي إلى سبتة^(٥).

نأمل ألا يعود أى مؤرخ، من الآن فصاعداً، لتكرار ما ذكره مارمول عن التدمير الوهمي لتطوان في عام ١٤٠٠، والذي يبدو أنه كان له حظ كبير من الانتشار.

لقد دمرت تطوان في عام ١٤٣٧ وليس في عام ١٤٠٠، على أيدي البرتغاليين وليس على أيدي بحارة قشتالة.

فيما يتعلق بالمنظرى، لم يكن الإفريقى ولا مارمول على حق.

لم يعبر المنظرى إلى شمال إفريقيا مع ملكه أبى عبد الله. كان المنظرى قد أمضى سنوات في إفريقيا، لترأس حكومة تطوان، التي أعاد تأسيسها، عندما نزل الملك أبوعبد الله في كزازة Cazaza، غربى مليلة في عام ١٤٩٣.

تطوان منشأة غرناطية:

لم تكن هناك محاولة من جانب البرتغاليين لإعمار تطوان ولا حتى لتحصينها، فأنقاضها، كما رأينا، كانت تستخدم كمرجع في طريق ذهاب وعودة قوات حامية سبتة عندما كانت تتوغل في البلد، الأسيرة المرينية، الحاكمة في فاس كانت تجود بأخر أنفاسها، لا تكاد تكون لها قوة لتوطيد نفسها في العاصمة ولا حتى للتصدى بنجاح للغزوات البرتغالية التي تنطلق من مواقعها القوية. إنهم زعماء محليون وبلدات محاصرة تبدى بعض المقاومة للغازى المسيحى. في الشمال كان سيد الحرب هو سيدى على بن رشيد، وهو شريف علمى، أى من جبل علم، ومركز نفوذه في قلعة الشاون، التي بناها

فى أؤماس Ajmas فى عام ١٤٧١، وهو التاريخ الذى أشار إليه المؤرخون المغاربة. إنه بالتحديد نفس التاريخ الذى سقطت فيه أصيلة وطنجة فى حوزة البرتغاليين، الذين استغلوا الاضطرابات التى مهدت للأسرة الوطاسية، امتداد الأسرة المرينية.

الزوجة الأولى لسيدى على بن راشد كانت قاشية، ورزق منها بابنين، هما مولاي إبراهيم وست الحرة. بارتباطه بهذه الأخيرة، سوف يصاهر المنظرى الفرع الأكثر نبلا للإسلام فى شمال المغرب: الأشراف العلميين. كطبقة اجتماعية، كان لهؤلاء الأشراف مشاكل عميقة تفصلهم وتحول بينهم وبين الطبقة الريفية، التى كانت تشكل أغلبية سكان البلد.

الهجرة الغرناطية إلى سواحل المعين المنحرف الشمالى المغربى ستقع فى موقف سياسى واجتماعى وعسكرى متوتر بشكل كاف.

كان سيدى على بن راشد يعتمد فى فرقه العسكرية على محاربين كثيرين من مملكة بنى نصر.

هناك من يؤكد أنه كان هو الذى أعاد بناء أنقاض تطوان، ليوفر الحماية لرجالہ الأندلسيين. لا التاريخ ولا التقليد يدعم هذه النظرية، بالإضافة إلى أن المدينة أعيد بناؤها على أية حال بأيدي الغرناطيين ومن أجلهم، حتى لو افترضنا أن ذلك كان بدافع آخر.

ها نحن قد عرفنا نظرية كاتبى عصر النهضة، ليون ومارمول، اللذين ربما يكونان الأكثر قرباً من الأحداث، حيث إن المؤرخين البرتغاليين لا ينبسون بنصف كلمة عن كلتا المنشأتين، سواء منشأة الشاون أو منشأة تطوان.

ينبغى علينا أن نفحص ما تقوله المصادر المغربية ومن بينها، بشكل خاص جدا، مصدر مؤرخى تطوان نفسها. وليس هناك أفضل من العلامة البارز داود الذى جمعهم كلهم، وأبرز نتائجهم الخاصة بهم والتى تقتصر على مضمون هذه السطور، وهو أن تطوان التى لا تزال موجودة حتى أيامنا هذه، هى منشأة غرناطية بحتة.

يحاول داوود من خلال تسعة أسئلة أن يلقي الضوء على الروايات والمظاهر الخاصة بتأسيس تطوان.

السؤال الثانى هو ما الثمن الذى تعين على الأندلسيين دفعه من أجل بناء تطوان؟ ويدخل رأى إسكيرتش Esquirech، وهو مؤرخ تطوانى آخر يرى أنه عندما شرع الغرناطيون فى البناء قاطعهم سكان الإقليم، فرفعوا قضيتهم إلى أمير الإقليم، الذى اعتذر لقلة ماله، إلا أنه سمح لناظر القرويين بفاس بأن يقرضهم من أموال الأحياس أربعين ألف مثقال؛ بالإضافة إلى ذلك أرسل لهم الأمير المذكور أربعين شخصاً من فاس وأربعين آخرين من الريف ليقوموا بحمايتهم من هجمات سكان القرى المجاورة لتطوان. هؤلاء السكان كانوا يشكون من أن الأراضى كانت ملكاً لهم واشتروا ثمناً لها.

يتناول داوود بعد ذلك الرواية التى يسميها "المخطوطة القديمة"، لكاتب مجهول؛ عندما وصل الغرناطيون من الأندلس تناثروا فى قرى الجبال، وذهبوا بعد ذلك إلى مولاي على بن راشد فى شيفشاون - الشاون - وطلبوا منه إعادة بناء تطوان بهدف أن يعيشوا فيها.

وهناك نظرية أخرى وهى الخاصة بالعلامة سيدى العربى الفاسى: نزل الغرناطيون فى المكان الذى أنشأوا فيه مدينة تطوان، التى كانت تنتمى إلى المجاهد سيدى على بن راشد، شريف علمى، وأمير الجبل ومنشئ الشاون.



شارع جانبي ، فى المدينة القديمة ، يؤدى إلى القصبة

من جانبه يجمال داوود قوله هكذا: نزل المهاجرون الغرناطيون فى نهر مرتيل، أمام تطوان، وتوجهوا إلى الداخل إلى قرى جبلية مختلفة، وجاءوا بعد ذلك إلى سيدى على بن راشد، يسبقهم وفد من المهاجرين، من بينهم المنظرى، واتفقوا على أن يقوم المبعدون الغرناطيون الذين كانوا موجودين هناك ببناء مدينة تطوان المدمرة؛ إلا أن موضوعاً بهذه الأهمية كان يتطلب إذن صاحب السلطة الذى كان حينئذ محمد شيخ الوطاسى؛ فتوجهوا إليه فى فاس، حيث استقبلهم استقبالاً ودوداً وأمدهم برجال ومال؛ وساعدهم كذلك الشريف البارز مولاي على بن راشد^(٦).

من خلال السؤال السابع لداود نجد تصميمًا على اعتراض الأهالى على مستعمرة الغرناطيين، كيف كان موقف سكان القبائل المغربية تجاه المهاجرين الذين جددوا بنايات تطوان؟

يؤكد كل من إسكيرتش والمخطوطة القديمة على حد سواء أن سكان القبائل ثاروا عند الشروع فى بناء المدينة، وادعوا أن الأراضى كانت تنتمى لهم وأنها كانت تستخدم ككلأ لمواشيهم؛ وأن إعمار المدينة كان يضرهم فى مصالحهم. ويذكر إسكيرتش قوم بنى حزمارة على أنهم المعارضون لإعادة البناء الأندلسى، إلى درجة أنهم كانوا يدمرون لهم البيوت التى كانوا يرفعونها. وتذكر المخطوطة القديمة كذلك قبيلتى بنى صالح وبنى سالم، ويحكى سيدى العربى الفاسى أن بعض سكان هذه القبائل طلبوا مساعدة البرتغاليين فى سببته من أجل طرد الغرناطيين، وتذكر المخطوطة القديمة أن المنظرى اشتكى إلى سيدى على بن راشد من ظلم الجيران وأمدّه ابن راشد بأربعمائة فارس من إقليم الريف، ومكن وجودهم إعادة بناء تطوان على أيدي الغرناطيين^(٧).

ليس هناك أدنى شك عند داوود بالنسبة إلى المؤسس؛ يوجد توافق بين المؤرخين على أن زعيم الأندلسيين الذين أنشأوا تطوان الجديدة كان المنظرى.

حتى هنا ينتهى حديث داوود بكل ما يتمتع به هذا المؤرخ التطوانى الشهير من علم واسع وموجز لكل مصدر، خاصة المصادر الإسلامية. وإذا كان هو لا يستطيع أن يقنعنا بأن تطوان مدينة من أصل غرناطى، فإن لا أحد آخر سينجح فى فعل ذلك.

إن المنظرى وتطوان وغرناطة سيكونون إلى الأبد متحدين فى التاريخ.

أسباب التمرکز الغرناطى فى المضيق :

بالإضافة إلى أسئلة داوود، نحن نطرح على أنفسنا سؤالاً آخر يشير إلى تمرکز الغرناطيين فيما نسميه المعين شبه المنحرف الشمالى المغربى.

ليس معنى ذلك أنه لم يكن هناك مهاجرون فى أجزاء أخرى من البلد؛ لقد كان هناك مهاجرون كثيرون جداً فى الأرياف والمدن، وفى المدن بالتحديد، لكن أكبر كثافة، بلا أى شك، كانت فى إقليم المضيق المذكور.

من الواضح أنها كانت منطقة حربية ولكونها كذلك، جذبت بشكل أساسى الذين كانوا يرغبون فى استمرار القتال، لكن لكونها الساحل الأقرب لسواحل مملكة بنى نصر، كانت أرضاً لمرور إجبارى تقريباً للذين كانوا يرغبون فى التوغل فى البلد.

إن ما كان يخطر ببال هؤلاء الأخيرين كان يقدم اختلافات كبيرة مع البيئة التى كانت تحيط بالأوائل وإذا كان هؤلاء على العكس قد انخرطوا بسرعة فى الحياة المزعزعة التى يحملها معه كل ثغر، فقد كانوا ينعمون باستقلالية، وعلى وجه الخصوص، بطريقة معيشة مطابقة لمعيشتهم فى شبه الجزيرة. السلطة المركزية كانت أبعد بكثير، بقدر ما كانت تبدو أكثر ضعفاً. زعمائهم الطبيعيون كانوا غرناطيين، كانوا يعيشون على الأسلوب الغرناطى، وكان قضائهم وعدولهم يحاكمون على نمط شبه الجزيرة وعموماً فإن ما هو غرناطى كان صفة لكل حياتهم اليومية.

غالب ظننا أن ذلك كان يحدث ليس فقط فى تطوان لكن أيضاً فى الشاونة حيث ما هو غرناطى كان له الأولوية على ما هو مغربى فى كل شىء تقريباً.

وهذا الذى كان يحدث فى مدينتى المعين المنحرف الشمالى، يمكن تطبيقه بكل تأكيد على الأرض التى كان يشملها كلاهما، أى، المعين المنحرف الشمالى، حيث الزعيمان، المالكان عملياً لنفس المعين، كانا يرحبان ويسهلان الهجرة الغرناطية. كما لو أن بدونها ما كانت هناك إمكانية لنشأة المقاومة المسلمة ولا لنمو كلا نواتيها!

ليس من قبيل المجازفة تأكيد أنه حتى قبل تشكيل المدينتين حدث تشبع بالمبعدين من مملكة بنى نصر التى سهلتها.

يرجح مينيثيس Menezes، مؤرخ سبته، الهزيمة البرتغالية فى طنجة عام ١٤٣٧ إلى الأغلبية من الجنود الغرناطيين الذين كانوا يحمون المدينة ويتألم مينيثيس نفسه من التحسينات التى أدخلها المبعدون على التسليح المغربى(*)؛ "الأسلحة التى يستخدمونها هى سيوف ورماح، قديماً كانوا يحضرون أقواساً بمزاريق والتى بدلوها ببنادق، من صنع الغرناطيين المطرودين من إسبانيا، فأصبحوا بذلك أكثر قوة"(٨).

فى بيئة، إذن، تفتقد لمراكز حضرية، وذات تشبع كبير بالمهاجرين، كان الحافز تمثله الحفاوة الممتازة لعلى بن راشد، أمير الجبل والزعيم الكبير للشمال المغربى والذى سار على منهجه فيما بعد قائد قوات أبى عبدالله والقائد السابق لبينيار، على المنظرى، وأسهمت كل القوى فى التحول الكبير الذى شهده هذا الجزء من البلد بدفعة من المهاجرين. لا السلطة المركزية، ولا المجتمع المغربى، بشكل عام، تعين عليهما فعل شىء تجاه هذه الظاهرة. لقد سمحا بها على أية حال.

لننظر الآن إلى ما جرى لأولئك الذين لم يتوقفوا فى تلك الأرض المتوترة، القرية من المضيق وقريبة بنفس القدر من ميادين المعركة التى كانت تنطلق من المواقع البرتغالية القوية، الواقعة من الناحية الاستراتيجية حول ذلك الممر البحرى.

(*) لمزيد من المعلومات حول أثر الغرناطيين فى تطور سلاح مسلمى شمال إفريقيا انظر كتاب "العز والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله والمدافع" وهو كتاب وضعه موريسكى بالإسبانية وترجم إلى اللغة العربية. (المراجع)

هذا كاتب من عصرنا يدلى برأيه :

"اللاجئون الذين كانوا يتوزعون في المدن المغربية المختلفة، لم يكونوا يجدون في الدولة التي كانت في حالة تفكك كامل، فريق استقبال يستطيع الاستفادة من خصائصهم العديدة. كانوا يطورون صناعة هامشية ولا يمكن التحكم فيها من قبل السلطات المركزية؛ كان ضعف هذه السلطات يوجب فيهم شعوراً بالتمرد، إن لم يكن احتقاراً، وكان يوجب فيهم على وجه الخصوص روح الاستقلال. بالإضافة إلى ذلك، كانوا يحققون بفضل رؤوس أموالهم وثقافتهم ومعارفهم منافسة شرسة للتجار والصناع المحليين" (٩) .



مقابر غرناطية في المقدمة ، وخلفها جزء من مدينة تطوان

مع أننا لسنا متفقين جداً مع بعض النقاط، إلا أننا نعم متفقون مع الفكرة العامة المعبر عنها في الفقرة السابقة. لم يجد المبعدون الذين كانوا يذهبون إلى مناطق حضرية أو ريفية أخرى من المغرب الاستقبال الحار الذي كانوا ينتظرونه، كأخوة بؤساء، في دار الإسلام، ولا التسهيلات التي كانوا يظنون أنه كان من الواجب تقديمها لهم، لكي لا يعيشوا تحت حكم كافر، حسبما كان يوعظ به إليهم هنا وهناك.

إن حياة المدن المغربية مختلفة جداً عن حياة المدن الإسبانية الغرناطية، إنهم يشعرون بأنهم مشردون وفاشلون ويجعلهم الحنين - الحنين الرهيب في المنفى - يعبرون في أحيان كثيرة عن حالاتهم النفسية، راغبين في العودة إلى شبه الجزيرة، بعضهم فعل ذلك.

لأبد أنه كان تيار رأى متزايداً كمّاً ونوعاً بين المبعدين إذ إن البند الأخير من اتفاقية تسليم مملكة غرناطة ينص على: "إذا رغب الملك أو أى مسلم آخر، بعد عبوره إلى شمال إفريقيا في العودة إلى إسبانيا، في حال ما لم تسره الأرض ولا المعاملة في تلك النواحي، فإن أصحاب الجلالة سوف يعطونهم تصريحاً، لمدة ثلاث سنوات حتى يتمكنوا من القيام بذلك ولكي ينعموا بهذه الشروط مثل كل الآخرين" (١٠).

تعين أن يكون موقف المهاجرين إلى الأرياف مؤسفاً وكئيماً. فقد شعر السكان البرابرة المتصفون بالفضاظة بعدم ارتياح كبير إزاء وجود وإقامة عدد كبير جداً من اللاجئين و"ترجموا استياءهم إلى أعمال عنف" (*).

فإذا كان جمهور الريف هذا يعيش في حالة شديدة البؤس فمن المفترض أن ينزعجوا بسبب فقدان القليل الذي كانوا يمتلكونه.

(*) نكرر هنا ما ذكرناه في مناسبات عديدة. ليس هناك دليل على تعرض الموريسكيين لسوء معاملة سوى نص للمقرى في نفح الطيب، الجزء الثاني، ص. ٦١٧، (المراجع)

بالنسبة إلى المراكز الحضرية، لم يكن سهلاً أبداً تكيف الرجل الغرناطى عليها، وسط سوء النظام السياسى المغربى، وهو مجرد من أية حماية ومنبؤ من قبل كل الطبقات الاجتماعية التى كانت تحيط به، بما فيها ما نستطيع أن نصفها بالطبقة المتوسطة، التى كان يتعين عليها لثقافتها الكبيرة أن تعمل كحاجز حماية، لكونها تدرك أفضل من أى شخص آخر مشاكل الغرناطيين . هذه الطبقة عبرت عن قلقها، وأحياناً، هاجمت بلا رحمة هؤلاء المهاجرين.

على الأقل هناك عدم رحمة وفهم فى الوثيقة العلنية للفقير المغربى وسكرتير ملك فاس، الونشريسى، المؤرخة فى ٢٣ من سبتمبر من عام ١٤٩١ . وبالتالى قبل أشهر قليلة جداً من تسليم العاصمة، غرناطة، التى يفر منها القادة الأكثر كفاءة والأكثر صلابة، الذين كان يتعين عليهم الاتصال بقيادات المجتمع الذى يلجأون إليه.

إن ذلك لم يحدث هكذا، بل على العكس تماماً، كما نستطيع أن نستنتج من قراءة الفقرات الأولى من الوثيقة المذكورة للونشريسى.

"تخلى أهل أندلوثيا عن ديارهم ومزارع العنب الخاصة بهم وحقولهم وكل الممتلكات الأخرى، بما فيها دفعهم لمبالغ مالية كبيرة للهروب من سيطرة الكافرين واللجوء إلى أراضى الله، مع زوجاتهم وأبنائهم. الآن وقد أصبحوا فى أرض الإسلام يشكون من أنهم ليسوا مرتاحين ومن أنهم لا يجدون فى شمال إفريقيا نفس تسهيلات الحياة التى كانت لديهم فى بلد الكافرين. ويشكون من عدم استقرار البلد ولا يخفون طريقة تفكيرهم، ويبدون نوايا خبيثة تدل على ضعف إيمانهم وغياب الصدق فى معتقداتهم الدينية. لم يهاجروا فى سبيل الله ورسوله، كما كانوا يزعمون، بل من أجل خيرات هذه الدنيا التى يرغبون فى الحصول عليها بمجرد أن يصلوا إلى أرض الإسلام وبناء على رغباتهم. ولأنهم لم يرضوا رغباتهم يشرعون فى سب البلاد الإسلامية وسب الذين كانوا سبباً فى هجرتهم. يمتدحون بلد الكافرين وسكانه، يندمون لأنهم تركوه... لقد سمع أحدهم يقول، مشيراً إلى هذا البلد من شمال إفريقيا، حماه الله: ليس هذا بالبلد الذى ينبغى الهجرة إليه، بل على العكس، من الواجب الهروب منه.

وآخر كان يقول: لو جاء سيد قشتالة إلى هنا فسوف نطلب منه أن يأخذنا إلى بلده؛ علاوة على ذلك يستخدم بعضهم حيلة من أجل العودة إلى بلد الكفر واتخاذ مكان لهم في ظل حماية الكافرين. ما الذنوب التي يرتكبونها؟... هل الهجرة إلى بلد الإسلام خاضعة للتيقن من وجود كل شيء فيه بقدر رغباتهم أو على العكس، هل من اللازم رعايتهم في السراء والضراء، وليس لأى شيء سوى لكونهم في بلد الإسلام ولكي يهربوا من حكم الكافرين؟

هكذا تستمر أكثر من عشر صفحات يدرج فيها تهديدات وعقوبات ضد أولئك الذين يبدون رغبتهم في العودة إلى أرض كافرة^(١١).

كيف لا يحزن المهاجرون عند شعورهم بأنهم هدف لتلك الاتهامات التي كانت تتعلق بهم؛ وليس بأفعالهم، بل بنواياهم، ليس بسلوكهم، بل برغباتهم. ولم يكن بوسعهم مجرد الشكوى.

عند تقديم الطرفين في مقياس قبول المهاجر، لم نحاول أن نلقى الذنب على البعض أو نبرئ آخرين. لقد كانت المغرب غارقة في أزمة سلطة وتشكيل وطني شديدين كانا يجعلان من الصعب عليها مواجهة مشاكل خطيرة جداً مثل التي عرضتها الظروف مع المنفى الفرناطي الضخم. لقد فعلت ببساطة ما كان يمكن أن تفعله سياسياً ودينياً؛ بأن أوتهم وقبلتهم على المستوى الرسمي وحاولت أن تضعهم في المكان المناسب. ماعدا ذلك كان الأمر مستحيلاً بالنسبة إلى حالة التفكك التي كانت عليها المغرب.

إن ما قصدناه ببساطة هو أن نثبت في خطوط عريضة، لماذا تركز في شمال المغرب عدد مهاجرين أكبر مما كان يناسب وضعه السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى.



أحد أبواب المدينة المحصنة

الهوامش

(١) وصف إفريقيا

Jean LEÓN L'AFRICAIN: Description de L'Afrique. París 1456. Tomo 1-268.

(٢) وصف عام لإفريقيا

MÁRMOL CARVAJAL, L.: Descripción general de África. Granada 1573, Libro 4.º. 131.

(٣) روض القرطاس

IBN ABI ZARA.: Raued al Quirtas. Tr. Huici. Valencia 1964. II-715.

AZURARA: Chronica do Conde D. Pedro y chronica do Conde D. Duarte de Meneses. Collecão de livros inéditos de Historia portuguesa... de José Correa da Serra. Lisboa MDCCXII.

(٥) تاريخ مدينة سبتة

MASCARENHAS, Jerónimo: Historia de la ciudad de Ceuta. Lisboa 1915, pág. 245.

DAWD, Muhammad: Tarij Titwan. (en árabe) Tetu?n 1959. I, págs 89 y s. (٦)

DAWD. : Id.id. id. Págs. 97 y s. (٧)

(٨) تاريخ طنجة

MENEZES, Fernando de: Historia de Tangere. Lisboa 1732, págs. 31-2-5.

ABDALLAH LAROUÏ: L'histoire du Maghreb. París 1967. (٩)

MÁRMOL, L. : Historia de la rebelión..., págs. 149 y s. (١٠)

ARCHIVES MAROCAINES. XII. Par?s 1908, págs. 194 y s. (١١)

الفصل الثانى

شخصية النظرى

شء من الترتيب الزمنى:

كانت الحرب الغرناطية الأخيرة قد اندلعت منذ عام. كانت فى المملكة نفسها حرب أهلية أخرى تقوض أسس النفوذ الإسلامى والتى ستقضى عليه فى سنوات قليلة. كان أبو الحسن، عاھلها الأخير، يساعده أحياناً شقيقه الزغل، يواجه ابنه أباعبد الله،

فى شهر مارس من عام ١٤٨٣ يقاسى النبلاء الأندلوثيون من هزيمة رهيبة على يدى الزغل، فى أخارکيا (الشرقية) فى مالقة. هذه النكبة المسيحية تنهض بمعنويات الغرناطيين وترفع مكانة الزغل.

من أجل منافسته، يخرج أبو عبد الله فى غزوة فى الشهر التالى، يلزمه سوء حظ شديد بحيث إنه لم يهزم فقط بل وقع أسيراً فى لوثينا فى ٢١ من أبريل من ذلك العام، ١٤٨٣ .

سيجد الملكان الكاثوليكيان فى أبى عبد الله صيداً ثميناً يعجل بسقوط المملكة. فى شهر أغسطس يوقع اتفاق، لا أكثر ولا أقل من اتفاق خضوع، بيد أن الأسير لا يفرج عنه إلا عندما تشير الظروف على الملك فيرناندو بذلك. يحدث هذا فى شهر أكتوبر التالى.

مع ذلك، لم يكن يبدو أن قوة المدعى كبيرة جداً. فبعد أن استقر فى الميرية، احتلت قوات الزغل هذه العاصمة، وقتلت پوسف - ابن آخر لأبى الحسن - وفر أبو عبد الله إلى أرض مسيحية، وعبر إلى مرسية فى الثانى عشر من مارس من عام ١٤٨٤ .

بأقى سنة ١٤٨٤ يظل أبو عبد الله لاجئاً فى أرض مسيحية. هكذا يستمر عام ١٤٨٥، ويثبت وجوده فى قرطبة فى الأول من سبتمبر.

فى اليوم الثالث من سبتمبر تلحق قوات الزغل هزيمة دموية بكونت كابرأ، بالقرب من موكلين Moclin . مع ذلك يتفق الملك الكاثوليكيان على توجيه قواتهما ضد كامبيل Cambil وألأبار Alhabar، "قلعتان حدوديتان، بعيدتان عن أى بلدة أخرى، واللذان كانتا كابوساً لخايين لمدة سنوات كثيرة. تحقق المشروع بنجاح بين ١٦ و ٢٣ من سبتمبر، وتغلبوا فقط على الصعوبات الطبيعية التى كانت تجدها المدفعية من أجل التقدم فى أراض شديدة الوعورة؛ بالنسبة إلى الأمور الأخرى فإن المحاصرين لم يتلقوا أية مساعدة خارجية واستسلموا مجبرين بعمليات القصف بالقنابل التى كانت تدمر الدفاعات"^(١).

إن سقوط كامبيل وألأبار يحسم سقوط قلاع أخرى كثيرة مثل مونتي خيكار Montejicar وإثنايوث Iznalloz وبينيار Pinar من بين قلاع أخرى.

نحن نتساءل عما إذا كانت تلك الحاميات متعاطفة مع حزب واحد بعينه إزاء هذا التسليم الواضح السهولة. فى شهر نوفمبر يقوم الملك الكاثوليكي من جديد بإطلاق سراح أبى عبد الله، الذى تحصن بعد خروجه من مرسية فى أويسكار ومن هنا يخاطر بالدخول إلى العاصمة حيث رحب به فى البيازين.

فى الربيع الأول من عام ١٤٨٦ نجح الفقهاء الغرناطيون المذعنون مما حدث فى كامبيل، فى التوفيق بين العم وابن الأخ وقام هذا الأخير بدخول لوشة Loja، حيث سيعود أسيراً فى ٢٩ مايو عند سقوط المدينة، سوف يطلق سراحه فى الحال، باتفاق جديد وشروط أكثر إرهاباً.

كل البيانات التاريخية المذكورة حتى الآن تشير إلى سيرة أبى عبد الله، وهو أمر معروف ومدرس ومكرر فى مرات كثيرة فى مصادر مختلفة سواء مسيحية أو إسلامية. إن مقصدنا هو الاستفادة من هذا التاريخ لدراسة حدث آخر وظروف أخرى ذات أهمية بالغة، تم تجاهلها بسبب الأحداث الكبيرة التى وقعت فى تلك الفترة.

إنها تتعلق بتأسيس مدينة تطوان على أيدي الغرناطيين، الذين كان على رأسهم على المنظرى.

من كان هذا المنظرى ؟ وأى دور كان يلعبه فى المملكة الغرناطية ؟ إنه كم مجهول كنا نعرف منه فقط ما قاله ليون الإفريقى وكرره مارمول كارباخال؛ كان المنظرى قائداً لقوات أبى عبد الله. بعد ذلك نجد سيرته متناثرة فى التواريخ البرتغالية عن شمال المغرب، حيث يظهر بشكل متكرر كزعيم بارز على أنه القائد التطوانى.

هكذا، إذن، كانت لدينا معلومات كافية عن الحياة الإفريقية للمنظرى أكثر مما كنا نعرف عن جذوره الغرناطية ومازلنا حتى الآن لا نستطيع أن نضيف سوى القليل، مع أن هذا القليل جوهري ومهم، إلا أنه حتى هنا تغطيه قشرة رقيقة من الشك.

عندما تخضع قوات الملكين الكاثوليكيين قلعتى كامبيل وألبار الحصينتين تستسلم بلا قتال مجموعة من القلاع كانت من بينها قلعة بينيار. حسن إذن، كان قائد هذه القلعة، الواقعة فوق ربوة، من الصعب جداً قهرها، هو المنظرى. وكان المنظرى ينتمى إلى حزب أبى عبد الله، الذى كان فى تلك الأيام لا يزال أسيراً لدى المسيحيين. سوف نرى بعد ذلك علام يستند هذا التأكيد.

على هذه الأسس نبدأ فى تصور افتراضات.

على سبيل المثال، افتراض إذا ما كانت كامبيل وألبار تشكلان رأس سلسلة من القلاع، بما فيها بينيار، والتى كانت حامياتها تابعة لأبى عبد الله.

لا يمكن التفكير فى شىء آخر، إذا كانت ستتكلف أية قلعة أخرى من هذه القلاع، قلعة بينيار نفسها، أياما لاحتلالها، بالإضافة إلى حملة، مع ما كان يفترضه ذلك.

لا يُعرف كذلك ما إذا كان المنظرى ترك ببساطة القلعة التى كانت تحت مسؤوليته أو فعل ذلك عن طريق اتفاقية. لو أن هذا الفعل الأخير قد حدث كان سيؤدى إلى إمكانية الرحيل بعيداً على متن سفن ينفق عليها العدو أو، على الأقل، دون عقبات كبيرة.

هناك افتراض أخير يبدو لنا الأكثر احتمالاً والأكثر تطابقاً مع الأحداث اللاحقة وهو أن القائد الغرناطى سيعترك قيادته وعلاوة على ذلك أرضه، قبل سقوط بينيار بشهور.

نضيف بياناً يرد عند أقدم مؤرخى عصر النهضة وهو أن المنظرى يرحل ويؤسس تطوان ترافقه مجموعة من المحاربين الغرناطيين، وهو أمر طبيعى حيث إن السخط بسبب سير الحرب والنزاعات المدنية والهزائم الحربية لم يكن أبداً حالة منفصلة.

حسبما يؤكد ليون الإفريقى فإن مئات المحاربين الذين أخذهم المنظرى إلى شمال إفريقيا، كانوا يشكلون زهرة غرناطة، أو بعبارة أخرى، كانوا ينتمون إلى أعرق أرستقراطية غرناطية. وهو ما يثبت، من ناحية أخرى، المكانة والتقدير العالين للقائد الغرناطى، بالإضافة إلى المكانة التى كان يتمتع بها بين أهله، الذين نظن أن كثيرين منهم رافقوه إلى المنفى.

من المحتمل جداً أن رحيل المنظرى ومرافقيه كان قبل شهر سبتمبر من عام ١٤٨٥، عندما تستسلم القلعة التى تحت مسؤوليته أمام فرانثيسكو دى بوباديا، الذى كان يقود طلائع الجيش الذى حاصر كامبيل، القائد المسيحى لا يجد أية مقاومة أمام سلسلة القلاع الحقيقية التى تستسلم له، وهو ما يقتضى خلواً مطلقاً من المدافعين وانتهاءً حقيقياً لكل هذه الجبهة الحربية. تلقى بوباديا، كجائزة، قيادة بينيار والأملاك التى كانت لدى المنظرى هناك، من بين نعم حقيقية أخرى، وهو ما يثبت، جزئياً، الأهمية الكبيرة لبينيار، بالمقارنة بالقلاع الأخرى التى استسلمت فى نفس الوقت.

لننتقل الآن إلى النقطة الثانية، وهى المتعلقة بالترتيب الزمنى لتأسيس تطوان. فى هذا الصدد أعتقد أنه لا يمكن، فى الوقت الحالى، إضافة شىء إلى الدراسة التى قام بها المؤرخ التطوانى المذكور سابقاً محمد داوود.

يبحث هذا المؤرخ روايتين:

(أ) رواية إسكيريتش والمخطوطة القديمة .

(ب) رواية ليون الإفريقي وسيدى العربى الفاسى.

يقول إسكيريتش: "بالنسبة لإنشائها، فإن المشهور والتقليدى، دون تقديم أو تأخير، أنه حدث فى عام ٨٨٨ / ١٤٨٣، وأنه يشار إلى ذلك برمز تأسيسها: تفاحة، حيث التاء ٨٠٠، والفاء ٨٠، والحاء ٨".

فى السابق تذكر المخطوطة القديمة عام ٨٨٩ على أنه عام إنشائها، مفسرة تفاحة، كل تاء ٤٠٠، والفاء ٨٠، والحاء ٨، والألف ١، المجموع الكلى ٨٨٩ / ١٤٨٤.

يضيف داوود: " لا يوجد تناقض بين كلمة إسكيريتش وكلمة سابقه، لأن إنشاء المدينة لم ينته فى عام. من الممكن أن عام ٨٨٨ كان عام بداية الإنشاء وأن عام ٨٨٩ كان عام الانتهاء من الإنشاءات".

من جانبنا نضيف ملاحظتين:

(١) كلمة tufaha تعنى تفاحة. تطوان أنشئت، حسب مؤرخيها الأكثر قدماً وثقة فى عام التفاحة.

(٢) إن سنوات التقويم الهجرى، كما هو معروف لا تتفق تماماً مع سنوات التقويم الميلادى.

الأول من محرم عام ٨٨٨ هو الأحد الموافق ٩ من فبراير من عام ١٤٨٣، وينتهى ذلك العام الهجرى فى ٢٩ من يناير من عام ١٤٨٤، عام ٨٨٩، يبدأ فى ٣٠ من يناير من عام ١٤٨٤ وينتهى فى ١٧ من يناير من عام ١٤٨٥.

قلعتا كامبيل وألبار استسلمتا بين ١١ و ١٣ من شهر رمضان من عام ٨٩٠، الموافق ٢١ - ٢٣ من سبتمبر من عام ١٤٨٥.

ب (يؤكد ليون الإفريقي أن أطلال تطوان، التي دمرها البرتغاليون في عام ١٤٣٧، ظلت مهجورة لمدة خمس وتسعين سنة وأعيد إنشاؤها وتعميرها بواسطة القائد الغرناطي المفترى، الذي ذهب إلى سلطان فاس، بعد أن طرده الملك فيرناندو من إسبانيا. أى أنه أنشأها بعد احتلال الإسبان لمدينة غرناطة، أى في عام ٧٩٨ / ١٤٩٢ .

إن الاختلاف - يستطرد داوود - بين التاريخين يقرب من تسع سنوات، وهو اختلاف ليس كبيراً في الحقيقة.

يميل المؤرخ التطواني للرواية (أ)، الخاصة بإسكيريتش والمخطوطة القديمة، لأن كليهما من تطوان ولأن العلماء المحليين يعرفون بشكل أفضل تاريخها الخاص، في رأيه.

لكن داوود يبحث أيضاً رأى سيدي العربي الفاسي، مؤلف كتاب "مرآة المحاسن"، الذي عاش أيضاً في تطوان عام ١٠٥٢ / ١٦٤٢ ويحدد تاريخ إنشاء المدينة في ٧ من شعبان من عام ٨٩٨، الموافق الجمعة ٢٤ من مايو من عام ١٤٩٣، بعد سنة وخمسة شهور من سقوط غرناطة. يحاول داوود من جديد التوفيق بين الآراء ويصدر حكمه المجمع للتواريخ والبيانات.

"... المهاجرون الذين وصلوا إلى تطوان عند انتهاء احتلال غرناطة كانوا كثيرين وكانوا الأكثر أهمية، بحيث إنهم غطوا على عدد الذين سبقوهم. ربما كان أولئك الوافدون الجدد يعدون بالمئات وبالألاف، بينما كان السابقون يعدون بالعشرات فقط. لذلك يحسب الإنشاء من تاريخ وصول الوافدين الجدد وليس الوافدين القدماء. لقد خطط الأسلاف الأوائل للمدينة، وأنشأوا أسوارها واستحكاماتها، بعدد قليل من المنازل والسكان، ويعزى إليهم تأسيس المدينة، وتاريخ ذلك كان عام ٨٨٩ . بعد ذلك، عندما انضم إليهم إخوانهم، بعد انتهاء احتلال غرناطة، أنشئت منازل كثيرة في المدينة، وملأوها بالصناعات والحرف وأشغال أخرى. إلى هؤلاء يرجع زيادة سكانها وثرواتها وبناء منازل ومؤسسات وأسواق أكثر، تاريخ ذلك كان عام ٨٩٨" (٢).

من جانبنا يتعين علينا كذلك أن نبدي الملاحظة على الرواية (ب). إن تطوان أساساً كانت موجودة كإعادة بناء غرناطى نحو عام ١٤٩٠، حينما كانت ابنة لشقيق ابن كماشة، كما سوف نرى، بصدد الزواج من القائد التطوانى؛ بالإضافة إلى أن المنظرى لم يتف مع أبى عبد الله عام ١٤٩٣، ولا حتى عام ١٤٩٢ عند سقوط غرناطة، حيث إن التواريخ البرتغالية ترصد وجوده فى ميادين المعركة بشمال المغرب قبل هذين التاريخين، بالتحديد فى عام ١٤٨٧ .

من كل ما عرض حتى هنا نستطيع أن نستنتج عدة نقاط لها فى رأينا، أهمية خاصة.

كان سيدى على المنظرى، أثناء الحرب الغرناطية الأخيرة، قائداً لقلعة بينيار. لم تكن هذه القيادة شيئاً جديداً فى عائلة المنظرى فقد سجل فيها أسلاف بتلك المرتبة فى أواسط القرن الخامس عشر. كان المنظرى ينتمى إلى حزب أبى عبد الله؛ يستنتج من ذلك أنه تولى عن قلعة بينيار الحصينة عندما شعر بأنه معزول ومحاط بقوات الزغل، قبل أو بعد سقوط كامبيل وألابار، اللتين من المحتمل أنهما كانتا تنتميان كذلك لنفس الحزب.

الشعور بالهزيمة، الذى تفاقم بأسر عاهله، حمل المنظرى وفريقاً من المحاربين الموالين له على قرار الهجرة إلى هناك، أى عبور المضيق والسير إلى أرض إسلامية إفريقية. شكل المنظرى ورفاقه المخلصون فريقاً متلاحماً لم ينحل فى المنفى، وضموا، على العكس، مهاجرين آخرين حولهم. من المحتمل أنهم شرعوا فى خدمة سيد الشمال المغربى، سيدى على بن رشيد، فى كفاحه ضد الحاميات البرتغالية بالحصون الإفريقية. من الممكن أنه كان هناك تفكير مبكر جداً فى مستعمرة ثابتة لهذه النواة الغرناطية وقرار بإعادة بناء أطلال تطوان، الواقعة استراتيجياً من أجل التصدى لغزوات أقوى حامية برتغالية، حامية سبتة.

نحن نرى أن المظهر التاريخي المتسلسل، والذي يعد المظهر الذي يستطيع أكثر تحطيم إيجاز الأحداث التاريخية التي تم بحثها، نراه على العكس، يؤيد نظريتنا وأن نقص الوثائق المناسبة فقط يمنعنا من إصدار تأكيدات قاطعة، منها على سبيل المثال، تأكيد القول بأن المنظرى، قائد بينيار، قد أسس تطوان قبل عام ١٤٨٥، وهكذا تباعاً.

كقاعدة عامة ينسى تاريخنا الإسبان عندما يعبرون حدودهم. هكذا حدث مع المبعدين في عصور شتى وهكذا حدث مع مئات الآلاف من المسلمين الإسبان الذين ساروا إلى هناك إثر تقدم حرب الاسترداد ومع آلاف الغرناطيين الذين يتكاثرون في عواصم شمال إفريقيا بعد سقوط الإسلام الإسباني. لم يعد هؤلاء المسلمون يشكلون جزءاً من تاريخ إسبانيا وأصبحوا بالكاد جزءاً من تاريخ المغرب(*) .

شئ من النسب : عائلة المنظرى :

من الواضح على أية حال أن لقب المنظرى قد أصبح مشهوراً في التاريخ المشترك لإسبانيا والمغرب، لكونه زعيم المهاجرين الغرناطيين الذي رحل طواعية، [خلال الحرب الأخيرة لغزو مدينته على أيدي المسيحيين] إلى منفاه في المغرب وأسس مدينة تطوان بأن أعاد بناءها. على هذا النحو يحدثنا عنه ليون الإفريقي ومارمول كاريخال والمؤرخون البرتغاليون، أمثال برتاردو رودريغيس ودامياو دي غويس وروى دي بينا وآخرون. يُعد المنظرى، بالتالي، شخصية تاريخية يبدأ وجودها - المعتمد والمؤكد على ما يبدو - حينما يظهر كزعيم عسكري في شمال المغرب. بيد أن زعامته التي امتدت في تطوان حتى موته في سن متقدم، لم يخرها هو ولم يحصل عليها بسبب آخر نشأ في البيئة الإفريقية عندما بدأ منفاه. إنها ظروف سابقة وضعته على رأس المحاربين الغرناطيين وحملته على الاستمرار في زعامته، دون اعتراض واضح، لما يقرب من

(*) هذه المعلومة مهمة، وتعزز ما يقوم به صديقنا خابيير رويث مدير معهد ثيربانتيس بالقاهرة حالياً من دراسة التراث الأندلسي في مصر . (المراجع)

نصف قرن. نحن مقتنعون بأن المنظرى، فى لحظة الهجرة، كان يحمل معه مكانة محارب وصفة نبيل منحهما له مركز وعائلة ليس فيها شىء من الابتذال. كلاهما، المركز والعائلة، يتفقان مع توليه قيادة بينيار ومع الشيخ الرفيع والقائد الذى ربما كان جده أو أباه، على عبد الله محمد المنظرى الذى يظهر فى وثيقة عربية غرناطية بتاريخ ٢٣ من أغسطس من عام ١٤٧٦، كذلك أيضاً يفترض النبل فيمن تقتصر عليه الآمال ليكون الزوج المقبل لابنة أخت أو أم ابن كماشة وقريبة للملك أبى عبد الله نفسه.

لكن لنبدأ بحثاً أكثر دقة ونورد بيانات ودلائل يمكنها أن تصيغ سيرة للمنظرى وتثبت فى نفس الوقت سلسلة نسب ممكنة لمؤسس مدينة تطوان.

إن اسم المنظرى فى التواريخ الإسبانية - البرتغالية، فى الوثائق القشتالية المعاصرة له، على سبيل المثال فى خطابات كونت تينديا، يكتب بالعربية المنظرى، من "المنظر"، وهى كلمة تعنى منظر حسن أو نظرة جميلة. ولكى لا يحدث خلط فسوف نظل نستخدم الصوت المشتق من الكتابة القشتالية - البرتغالية، المنذر والمندارى، على الرغم من أننا سوف نجد فى الوثائق العربية - الغرناطية تعبيرها الصحيح، المنظرى.

لا نعرف بالضبط "التبوير" الذى أعطاه المؤرخون البرتغاليون للفظ، نفترض أن تبوير المقطع قبل الأخير كان الأكثر شيوعاً، مع أننا سمعنا مؤرخين وعلماء ومغاربة ينطقونه كما لو كان المقطع الذى يعلوه النبرة هو الثالث بدءاً من الأخير، ودائماً مع أداة التعريف، المنظرى.

كتب ف. خ. سيمونيت، فى القرن الماضى، عن "المنظر"، يعنى مكاناً ذا مناظر باسمه أو مرقب، انتسب لبعض الوقت إلى مملكة غرناطة وتعين أن يعد فى دائرة إلبيرة Elvira، مع أن مكانه لم يستمر بثبات.

يأخذ من ابن الخطيب بيان فتح مدينة المنظر على يد محمد الثالث ويضيف بعد ذلك، "كان من أبناء تلك المدينة وأخذ كنية زعيم مسلم يدعى المنظرى (يكتب سيمون الاسم بتشديد المقطع الأخير)، عبر إلى شمال إفريقيا مع أبى عبد الله، بعد أن

فتح الملك الكاثوليكيان هذه المدينة، واستقر في تطوان، وجعل نفسه سيداً لهذا الموقع".

يذكر مارمول كمصدر للخبر.

وبالفعل يقول مارمول إنه: "بعد أن كسب الملك فيرناندو مدينة غرناطة..." فإن المنظرى الذى عبر مع الملك الصغير توسل إلى ملك فاس أن يسمح له ببناء وتعمير تطوان.

الذى لا يوجد عند مارمول هو تأكيد انتساب المنظرى، بأنه يأتي من المنظر، يبدو أن هذا من اختراع سيمونيت^(٣).

وربما يكون سيمونيت على حق في افتراضه أن بلدة المنظر مهد لعائلة المنظرى، لكن عندما بدأت هذه العائلة تتألق وتأخذ مكانها في الصفوف الأولى للبرجوازية الغرناطية، كانت بلدة أو مدينة المنظر تلك قد مر عليها أكثر من قرن وهى لا تنتمى إلى مملكة غرناطة ولا حتى كانت تحتفظ بذكرى اسمها الذى كان المسيحيون قد غيروه إلى اسم آخر مختلف جداً.

انطلاقاً من ابن الخطيب، يكمل لنا المؤرخ المقرئ أقدم بيان لدينا عن المنظر. يحكى أنه عند موت محمد، العاهل الثانى لأسرة بنى نصر، فى التاسع من أبريل من عام ١٣٠٢، خلفه ابنه الذى، بشكل سريع، يقال إنه بعد خمسة عشر يوماً من تنصيبه، قام بغزوة فى أرض العدو. كانت النتيجة هى الاستيلاء على مدينة المنظر التى احتلها بقوة السلاح، وأسر كل أفراد الحامية. كان من بين الأسرى سيدة القلعة، امرأة ذات جمال منقطع النظير، الجوهرة الأكثر بريقاً بين المسيحيين. أرسلت إلى العاصمة مع باقى الأسرى مرصعة ومزينة بشكل رائع، تسطع بجمالها. صارت بعد ذلك زوجة لسلطان الغرب الإفريقى^(٤).

نفس النص، تقريباً كلمة كلمة، موجود عند ابن الخطيب، فى كتابه "الإحاطة فى أخبار غرناطة"، حيث يرد ذكر المنظر مرة أخرى فى فقرة أخرى، مع قرى أخرى من إقليم خابيين.

بما أن التاريخ محدد جيداً لذا يتعين البحث في التواريخ القشتالية المتوافقة معه، فينتج أن بدمار، حالياً، هي المنظر القديم^(٥).

نرى التوافق بمقارنة الأحداث الموصوفة في "مذكرات الملك فيرناندو الرابع ملك قشتالة" بفقدان قلعة بدمار وأسر كل من السيدة ماريا خيمينيث، زوجة سيد القلعة واثنين من أبنائه، مع الأحداث التي رواها ابن الخطيب والمقرئ.

في عام ١٣٠٩ استرد القشتاليون بدمار نهائياً^(٦) وبالتالي، بعد قرن ونصف لم يكن لدى المسلمين الإسبان ذكرى أخرى عن المنظر سوى ذكرى اسمها، دون أن يكون بمقدورهم حتى تحديد موقعها جغرافياً.

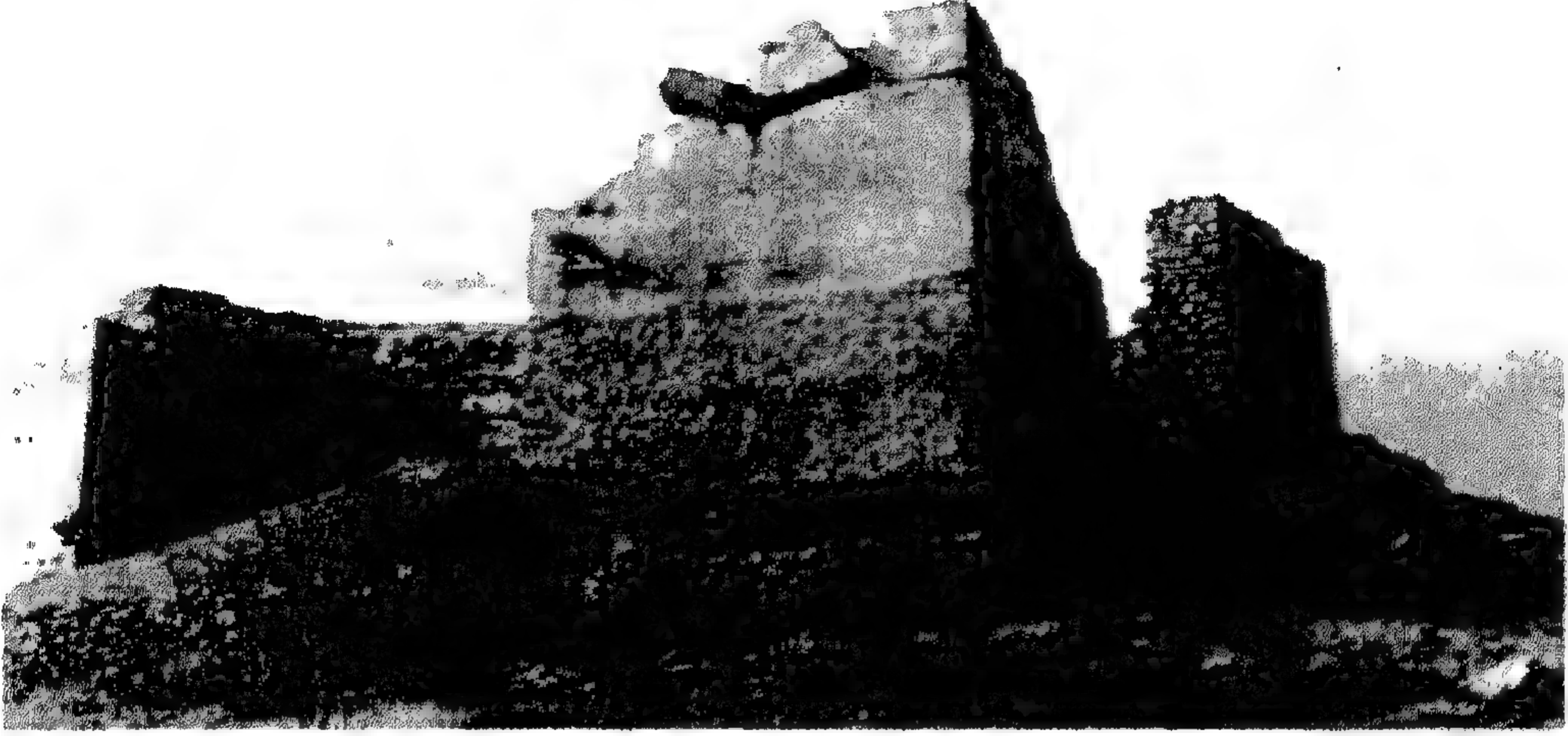
من ناحية أخرى، فإن المنظر، بدمار Bedmar حالياً، لم يتعين عليها أن تكون بلدة لسكان كثيرين سوف يلجأون إليها، بعد الغزو المسيحي في الأرض المسلمة. ربما لم يحمل اسم النسب "المنظري" سوى العائلة المسيطرة على المكان وكان أن انتشر في مملكة غرناطة لاحقاً، كما هو واضح فإن ذلك لا يتعدى كونه افتراضاً، دون أن يكون بمقدورنا أن نؤكد، كما يفعل سيمونيت، أن ذلك المكان هو منشأ مؤسس تطوان.

يبدو أن قلعة بدمار، التي حطمت في عهد ماثوث، كانت قطعة مهمة نسبياً في النظام الدفاعي للحدود القشتالية – الغرناطية.

بعد أن وضع كيف كانت مدينة المنظر هذه وثبت حيازة المسيحيين لها لأكثر من قرن قبل ظهور هذا اللقب في غرناطة، فإن أفراد عائلة المنظري الغرناطيين، وبالتحديد، سيدى على المنظري، المحارب المبعد إلى شمال المغرب، ليس فقط أنه لم يولد ولم يعيش في المنظر، بل إن أجيالاً كثيرة من عائلته على الأقل، كانوا قد ولدوا وعاشوا في غرناطة نفسها، العاصمة. هناك وثائق تضمن هذا التأكيد الذي قدمناه للتو، كذلك فإن هناك أحداثاً تطورت ظروفها حول قائد تطوان وتشير بوضوح إلى عائلة غرناطية غنية وبارزة.

لنرى أولا الوثائق، تاركين الأحداث للحظتها التاريخية المناسبة.

يحدد محضر خبر تقييم، مؤرخ في ٢١ من أكتوبر من عام ١٤٦٠ ضيعة واقعة في منحل الليطاخ Manhal Al Litaj بريف غرناطة ومن بين سكانها يرد ذكر المنظري، وشخص ينتمي إلى عائلة بني سراج.



برج قلعة بينيار وسورها



آبار قلعة بينيار

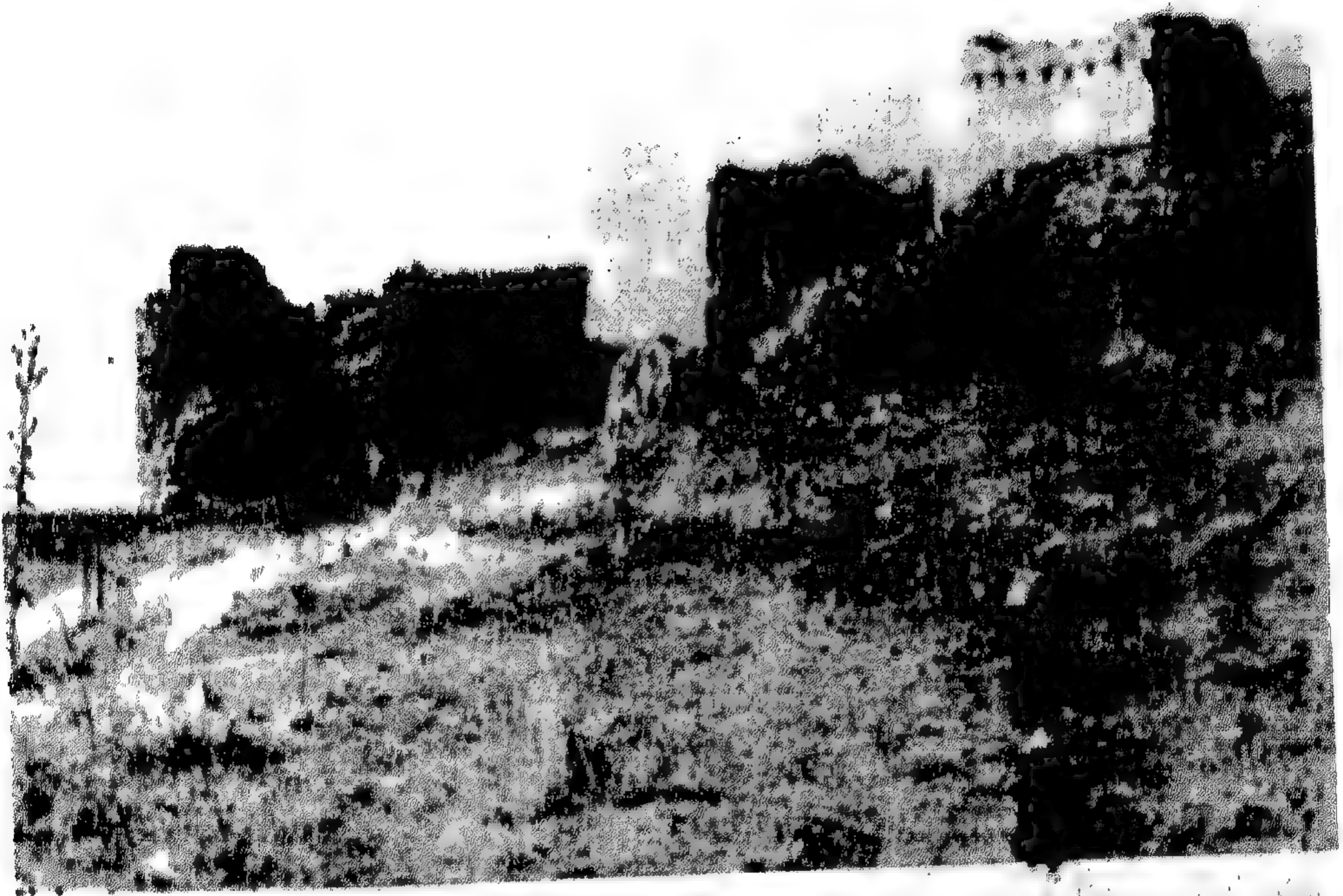
هناك عقد بيع ينتمى لفترة لاحقة نوعاً ما، ومؤرخ فى ٢٣ من أغسطس من عام ١٤٧٦ ويشير مباشرة إلى عائلة المنظرى.

" الشريف أبو عبد الله محمد بن فتوح الدافى Daafi، يشتري من الشيخ والقائد السامى أبى عبد الله محمد المنظرى، أرضاً زراعية واقعة فى الليطاخ، بغوطة غرناطة، عاصمة المملكة، والتي تحدها من الجنوب أرض السلطان، ومن الشمال أرض البائع، ومن الشرق أرض السلطان ومن الغرب الطريق وأرض البائع".

فى عام ١٤٧٦ كان قد توفى أحد أفراد عائلة المنظرى، وكان قائداً، أى كان يتمتع بامتياز عسكرى أكيد.

بالإضافة إلى ذلك، فقد عين الابن كذلك شيخاً وقائداً رفيعاً، وهو ما يعنى، إذا وصلنا إلى ذهن الكاتب القضائى، أنه كان فعالاً وفى مرتبة عليا من التدرج العسكرى. ربما نجد أنفسنا هنا مع أبى المنظرى التطوانى، لو أخذنا فى الاعتبار قرب التاريخ من بداية الحرب القشتالية - الغرناطية الأخيرة، وهى الحرب التى قدم فيها المنظرى أولى صولاته كشاب مقاتل، لو عولنا على تاريخ موته، المعتمد وثائقيا فى عام ١٥٤١ .

من المحتمل أن يكون هذا الشيخ والقائد الرفيع أبو عبد الله محمد، هو قائد قلعة بينيار التى ورثها ابنه، إما بسبب شيخوخة متقدمة أو بسبب وفاة سلفه.



ساحة أسلحة قلعة بينيار . إلى اليمين ، فى المقدمة ، تُرى الآبار

هناك بعض الأمور الأخرى التى توحى لنا بها الوثيقة المعروضة، على سبيل المثال ثروة العقار المباع وجيرانه، بالإضافة إلى استنتاج أنه لا يزال يتبقى أراض أخرى فى حوزة البائع.

ظل الليطاخ يسمى هكذا، ويعرف اليوم بمكان أو قرية الليطاخى. وهو يقع فى طريق يمتد من فوينتى باكيروس حتى بينوس بوينتى. إلا أنه يبدو أن الاسم امتد إلى جزء كبير من الأرض الزراعية، التى تعبرها قناة، تسمى أيضاً، الليطاخى. إنها أراض شديدة الخصوبة لا تزال حتى اليوم تزرع وتروى جيداً. عندما يقوم القائد أبو عبد الله محمد فى عام ١٤٧٦ ببيع عقار فى هذا الليطاخ، فهو لا يزال يحتفظ فى الشمال والغرب بأراض أخرى مجاورة لنفس العقار؛ الأراضى الأخرى المجاورة لأراضيه، فى الجنوب والشرق هى زراعات تنتمى للسلطان الغرناطى نفسه.

إنها علامة خارجية أخرى إضافية عن مرتبة القيم التى كانت تسيطر فى مجتمع دولة بنى نصر^(٧).

بالإضافة إلى هذه الوثائق التى - فى رأينا - تحدد بكل وضوح منشأ عائلة المنظرى فى العاصمة ذاتها، دون أن تنسى أن أجداداً بعيدين استطاعوا الوجود فى المنظر أو بدمار، لدينا وثيقتان أخريان، تظهر فيها نفس عائلة المنظرى هذه فى موضوعات خاصة بالمواريث. على الأقل نحن نظن أنه من الممكن أن تكون نفس العائلة، لأن اللقب لا يرد بإسهاب ولأنها تكون ثروة زراعية، ليست بعيدة عن العاصمة نفسها، كما فى حالة الليطاخى. إحدى هاتين الوثيقتين عبارة عن توزيع للأموال، فيما بينهم، "مواريث لأراض ذات زراعات بالرى وبدون رى ومنزل وأرض فضاء"، واقعة فى قرية "غليما دى كنبى كيث" يحدها، من الناحية الغربية أراضى المنظرى. يرجع تاريخ هذه الوثيقة إلى ٣١ من يناير من عام ١٤٠١.

فى تاريخ لاحق، ٣٠ من ابريل من عام ١٤١٦، يوجد عقد بيع آخر يقوم بمقتضاه يوسف وحامد، ابنا محمد المنظرى، ببيع ما ورثاه فى ضيعة الكمبى، بمبلغ خمسين دوبلاس من الذهب^(٨).

غليما هي اليوم بنتاس دى أوليما، بين مالا والحامة.

لنتذكر أن أراضى الكمبى هذه، وقت الاستسلام، كانت تنتمى بالتساوى لوزيرين لأبى عبد الله، هما بن كماشة والمالح، اللذين قاما ببيعها إلى الملكين الكاثوليكين فى ١٧ من سبتمبر من عام ١٤٩٣ . لقد كانت، إذن عبارة عن أراض ذات جودة زراعية عالية.

مرة أخرى عثرنا على أفراد من عائلة المنظرى قريبين بشكل كاف، من حيث الزمن، من الذين ذكروا فى وثائق سابقة، قريبون إلى درجة أننا نجح إلى تحديد هوية القائد المتوفى أبى عبد الله محمد المنظرى على أنه محمد المنظرى هذا، الذى يقوم أبناؤه ببيع ميراث ضخم بشكل جزئى.

لقد حاولنا حتى الآن تتبع آثار عائلة المنظرى، السابقين على حرب غرناطة. لا شك أنه كان هناك أفراد من عائلة المنظرى أغنياء، البعض منهم لهم موارد ومناصب متعلقة بالأسلحة. إن الندرة الشديدة التى يظهر بها الاسم يدفعنا إلى التفكير فى عائلة واحدة.

كل شىء يدعو إلى الظن أننا عثرنا على عائلة الزعيم الذى قام - على رأس حفنة من المبعدين الفرناطيين برفع مدينة تطوان من طللها، وكبرها وحولها إلى مكان مأمول للمنفى بالنسبة إلى آلاف عديدة من المسلمين الإسبان أولا وللموريسكيين بعد ذلك.

لا يزال يتبقى لنا إطلالة سريعة على ما يمكننا أن نعتبره واحدة من العقد الرئيسية فى هذه المجموعة من التساؤلات التى نتباحث بشأنها لمحاولة عمل سيرة للمنظرى: قلعة بينيار.

قلعة بينيار وقلاع أخرى:

أكدنا فيما سبق أن المنظرى كان هو قائد بينيار فى اللحظة التى استسلمت فيها هذه القلعة لقوات الملكين الكاثوليكين. قدمنا أيضاً بعض الاعتبارات التى نحاول الآن

توسيعها ما أمكن، عارضين، كما فعلنا حتى الآن، وجهة نظرنا المستمدة من الأحداث والوثائق الموجودة.

نبدأ بموضوع الاستيلاء على كامبيل وألبار الواقعتين على مسافة ٢٢ كم في خط مستقيم من خايين، واللذان تكونان، بالتالي، شوكة في النظام الدفاعي الحدودي المسيحي.

بعد أن فشلت حملة موكلين، بهزيمة كونت كابرا في الثالث من سبتمبر من عام ١٤٨٥، قرر الملك الكاثوليكيان أن يستغلا رجالا وأسلحة ومعدات جاهزة، لمهاجمة القلعتين " لأن الملكة كان لديها دائماً حرص شديد على الاستيلاء على القلعتين، أخذة في اعتبارها الأضرار الكبيرة التي تلقتها منهما والتي تلتقها في كل يوم مدينة خايين والمدن الأخرى بالناحية ".

في الرابع من سبتمبر أعلن الملك الكاثوليكيان أنهما في خلال ثمانية أيام سيكونان في خايين من أجل الذهاب لمحاصرة قلعتي كامبيل وألبار. في نفس هذا اليوم اجتمع الملك في بيوت الأسقف لويس أوسوريو، وغونثالو ميكسيا، وفرنثيسكو دي بوباديا، مراجع خايين، مع الفرسان الأربعة والعشرين والمحكمين من أجل معالجة الحملة. يوما ٦ و ٧ دخل خايين كل أناس الحرب بإقليم أندلوثيا بخطابات من دوق إسكالونا إلى المراجع بوباديا من أجل أن يتقدموا لمحاصرة قلعة كامبيل. يوم الخميس ٨ ، خرج بوباديا من خايين مع رجال المدينة ومع الرجال الذين أتوا من الخارج. يوم السبت ١٠ حين طلع النهار كانت كامبيل قد حوصرت^(٩).

يقدم إيرناندو دل بولفار وصفاً لقلعتي كامبيل وألبار التوأمتين، " اللتين تعدان من القوى الكبيرة والأمنة، الموجودة في كل الممالك الإسبانية". وبعد أن رأى إيرناندو "هذه الجبال الضخمة"، تفقد الطريق " الذي أنشئ " لنقل المدفعية إلى هناك، حيث اندهش من العمل الذي تم إنجازه، "فقد أزيلت جبال مرتفعة، وسويت بالوديان المنخفضة". لقد كانت المدفعية هي التي سببت استسلام القلعتين. قائدتها "محمد

لينتين"، الذى كان لديه رجال كثيرون " سلّم القلعة وأعطاهم الملك الأمان وانصرف القائد مع كل رجاله المسلمين إلى غرناطة" (١٠).

هذا فى الثالث والعشرين من سبتمبر من عام ١٤٨٥ .

كان الحصار قد استغرق اثنى عشر يوماً. كانت المدفعية ترمى قذائفها فى الأيام الثلاثة الأخيرة فقط .

محمد لينتين "واحد من الفرسان الأكثر بسالة من مملكة غرناطة" طبقاً لرأى بولغار- لم يعرف أو لم يستطع أن يوقف زحف العدو لوقت أكثر.

نفس الرواية عن الخوف من المدفعية تعطيها لنا المصادر العربية.

" فى هذا التاريخ، رمضان عام ١٤٨٥، توجه العدو بجيشه إلى قلعة كامبيل، التى عسكر أمامها . وضع مدافعه فى مجموعة موجودة وبدأ هجوماً قوياً، ونجح فى هدم جزء من السور.

عندما رأى المسلمون عدم قدرتهم، وعندما خشوا من دخول المهاجمين إلى القلعة بالقوة، طلبوا الأمان، ولأن هذا الأمان منح لهم، خرجوا فى أمان مع كل ثروتهم بمجرد تسليم القلعة" (١١).

لا يبدو أن قلعة كامبيل قد دافعت باستماتة، على الرغم من شهرة محمد لينتين ومقاتليه، إن موقف قلعة كامبيل يتفق مع موقف القلاع الأخرى التى أذعنّت تباعاً أو سلّمت أو أخليت؛ ومن بينها قلعة بينيار.

لا نعرف بالضبط كيف جرت الأحداث فى هذه القلاع الأخرى، التى كانت ستكلف كل واحدة منها حملة قاسية. ربما حدث أن محمد لينتين، أمر أثناء انسحابه نحو العاصمة بإخلاء هذه القلاع التى، بشكل ما، كانت تخضع له كقائد جبهة. وهناك افتراض آخر وهو أنه بعد سقوط كامبيل والأبار، زحفت قوات مسيحية دون مقاومة، متتبعه آثار المهزومين وبوجودها الوحيد استسلمت وأخليت القلاع مثل إثنايوث وبينيار،

البعيدتين بما فيه الكفاية عن المسرح الرئيسى للأحداث. ويمثل ما حدث فى كامبيل، نعتقد أن المراجع بوباديا تقدم بعساكره وكان المسئول الأساسى عن انهيار كل تلك الجبهة الحربية لمملكة بنى نصر.

ليست هناك أخبار عن أن المنظرى، المحارب المفعم بالشباب حينئذ، قام بأقل بادرة مقاومة فى قلعة بينيار، الواقعة تحت قيادته. هذا بافتراض أنه كان حاضراً فى لحظة وقوع الأحداث. لو أنه كان ينتمى - مثل لينتين وباقى المستسلمين - لحزب أبى عبد الله، فإن خيبة الأمل والفشل كانا سيؤثران بشكل رهيب فى روحه المقاتلة. الملك الصغير بالتحديد ظل أسيراً فى يدي السيد فيرناندو وسيطلق سراحه بعد ذلك بقليل.

لقد كان المنفى هو المخرج الأكثر أناقة بالنسبة إلى جندى مجبر على تسليم قلعته لكون كل الظروف ضده ولم يمت فى الدفاع عن دينه ووطنه، كان هذا هو الطريق الذى اختاره المنظرى مع حفنة من المحاربين الذين يفترض أنهم كانوا تحت قيادته.

الشخصية الأخرى، وهى التى كانت تنتمى للطائفة المسيحية، والتى كانت تقريباً بكل تأكيد المخططة لكل قلعة تم فتحها، كان يمثلها المراجع بوباديا الذى كافأه الملكان الكاثوليكيان بمنحه قيادة بينيار، وهباه، بالإضافة إلى ممتلكات أخرى، كل العقارات التى كانت لدى قائدها المنظرى فى ذلك المكان.^(١٢) هنا تنتهى القصة الغرناطية لمؤسس تطوان وتبدأ ملحمة الإفریقیة، مع أننا سوف نضطر حتماً إلى اللجوء إلى جذوره حينما نعرض أحدها فى فصل آخر متعلق به. على سبيل المثال، زواجه من قريبة للملك أبى عبد الله الذى يثبت بعضاً من العلاقة التى سبق أن أكدناها فى مجرى هذا البحث، سواء بالنسبة إلى انخراطه السياسى فى الحرب الأهلية التى كان الغرناطيون يجابهونها فيما بينهم، أو بالنسبة إلى درجته الاجتماعية ومكانته بين البرجوازية الغرناطية العالية.

نتهى حديثنا ببعض الأخبار الأخرى عن قلعة بينيار بمدلول حنينى لصاحبها الأخير الإسبانى - المسلم.

تقع قلعة بينيار فوق ربوة تسيطر على واد فسيح، وكما يقول مادوث فإن أسوار القلعة في زمنه كانت لا تزال في حالة جيدة.

تبعد قلعة بينيار مسافة ٥٠ كم عن غرناطة بالطريق البري. مادوث نفسه، عندما يتحدث عن الطرق، يضع بينيار في مفترق الطرق القديمة من غرناطة إلى الشرق، ومن غرناطة إلى خايين ومن غرناطة إلى أوبيدا وبايثا ومع سلسلة جبال سيغورا، وهو ما كان يحدد أهميتها الاستراتيجية^(١٣).

الربوة - في جانبها الأسهل دخولا - ذات وعورة شديدة وشاقة وتتحكم في القرية الواقعة على أحد جوانبها.

إن تسلق هذه الربوة بمدفعية متوسطة كان سيصبح مكلفاً جداً، يخبرنا غامير أن محيط دائرة هذه الربوة، بيضاوي بشكل خفيف، يبلغ قطرها الكبير ٧٢ متراً وقطرها الصغير ٤٢ متراً؛ وتشكل أحد عشر حصناً تسعة منها مستطيلة الشكل واثنان دائريان؛ وهناك صهريج في ميدان القلعة. يتناول نفس الكاتب التقليد المحلي بأن "ملوك غرناطة المسلمين كانوا يزورون القلعة بشكل مستمر حتى أنهم استطاعوا أن يتخذوا هناك مكاناً للإقامة أو الاستراحة"^(١٤).

نظراً لوعورة المكان ونقص المياه في القلعة ذاتها، الذي ينبع فقط من الصهاريج، فإن هذا المكان، إذا أردنا أن نثبت بشكل ما هذا التقليد المحلي، سيكون مثل مركز للصيد والقنص حيث لا شيء آخر تقدمه قلعة بينيار لسكانها.

نشر غامير مع دراسته صوراً جوية رائعة للقلعة، من جانبنا لا نكاد نجد سوى لوحات وأبراج مهدمة، في خليط غامض المعالم.

إن الاحترام الواجب فقط يدفعنا لنشر بعض من الصور التي أخذناها من غامير لبقايا هذا الأثر الذي كان ذات يوم الملجأ الحربي الأول لغرناطى شهير محرك لديار أخرى، في أراض غريبة وأجواء معادية.

بالنسبة إلى قيادة بينيار فقد انتقلت من المنظرى إلى فرانثيسكو دى بوباديا، مع حيازة مائة وخمسين ألف ريال مرابطى سنويا وحامية مكونة من عشرين جندياً تم تخفيضهم إلى عشرة فى أكتوبر من عام ١٤٩٣ . بل علاوة على ذلك، كما قلنا، تلقى بوباديا على سبيل العطية الأملاك العقارية التى كان يمتلكها المنظرى فى المكان، والتى زادت بعقارات أخرى كثيرة أنعم بها عليه الملكان الكاثوليكيان.

فى السياق ذاته الخاص بقلعة بينيار، كوفى القائد المسيحى بسخاء عند توزيع الأراضى كما يستدل على ذلك من النص الآتى:

"فى الأول من مارس من عام أربعمائة وسبعة وتسعين السيد المذكور خوان دى أوردات، الموزع المتقدم ذكره، أعطى فرانثيسكو دى بوباديا والسيدة ماريا، زوجته، مائتين وأربعين فانيغاس من الأرض، متاخمة للجيران ولرويليس أيضاً الأراضى الواقعة بجوار ماندایل (المنظرى) بالإضافة إلى مائة فانيغاس فى حوض بئر تاليرا تقع بجوار أراضى السيد أوردات ..."(١٥).

هنا تحول المنظرى إلى مندایل Mandael، وهو ليس بالأمر الغريب إذا ما وضعنا فى الاعتبار أنه منقول عن شخصى آخر أو عن نسخة نسخة من وثيقة. مع ذلك، فى وثيقة أخرى بتاريخ لاحق، لكنها أصلية، يكتب بوضوح المنظرى، مذكوراً بشهود عرفوه كقائد لبينيار وشخصية مهمة فى العاصمة الغرناطية، قبل رحيله إلى تطوان.

سوف يجنى بوباديا ثماراً قليلة، سواء من ممتلكات المنظرى أو من باقى الأراضى التى أعطيت له على سبيل العطية فى بينيار حيث إن المكان ظل لسنين طويلة غير مأهول.

" فى ديسمبر من عام ١٤٩٢ لم يكن فى بينيار منازل ولا سكان." (١٦) ربما لهذا السبب سيكافأ بممتلكات أخرى أكثر فائدة على المدى القريب، مثل قطع أراضٍ للزراعة وأراضٍ للجوامع فى بينوس، وفرن بجوار باب البيرا ومنزليين فى غرناطة.

فى قىادة بينىار ىخلفه ابنة أنطونىو دى بوبادىا الذى تعىن علىه، بمائه ألف رىال مرابطى فى حوزته،^(١٧) أن ىصرف ٢٣٠٤٠٠ رىال مرابطى فى أعمال ترمىم وبنىاء الحوائط حتى جعلها فى حالة جىدة"^(١٨).

استمر أفراد عائلة بوبادىا ىتباهون بقىادة بينىار، إلا أن القلعة أصبحت مهجورة بعد ثورة المورىسكىين وىدأت تقع أجزاء كثيرة من الأسوار. إن حالة القلعة الآن مؤسفة بما فىه الكفاية.

مع ذلك فمن الممكن السعى لإعادة بناء بعض الأبراج والأسوار، بما ىكفى لإىفاف الفعل الهدمى للزمن وتذكر أن تلك القلعة كانت المسرح الحربى الأخير فى أراض إسبانية لغرناطىيين مؤسسين لمدن فى قارة أخرى.

أقام المنظرى أسواراً وأبراجاً أخرى فى أرض غرىبة ونستطىع نحن أن نعىدها إلى حالتها الأصلية من أجل تكرىم ذكره.

الهوامش

LADERO QUESADA, M. Ángel: Castilla y la conquista del reino de Granada. Val- (١)
ladolid, 196, pág. 40

DAWD: Op. Cit, pág. 96. (٢)

(٣) وصف مملكة غرناطة

SIMONET, F.J.: Descripción del reino de Granada. Granada 1872, pág. 108.

(٤) تاريخ الأسرة الحموية في إسبانيا

MAQQARI, AL-: The history of the Mohammedan Dynasties in Spain. Tr. Gayan-
gos. II. London, MCCCXLIII, págs. 346 y s.

(٥) ثلاثة أسماء للثغر الغرناطي

RUBIERA MATA, M.a J.: "Tres topónimos de la frontera granadina". Al Andalus
XXXII-1967-1-, págs. 217 y s.

ARIE, Rachel: L'Espagne musulmane au temps de nasrides. Paris 1971, pág. 93. (٦)

(٧) وثائق عربية غرناطية

SECÓ DE LUCENA, L. : Documentos árabes granadinos. Madrid 1961, pág. 31 del
texto árabe y 32 del texto castellano.

OSORIO PÉREZ, M.a José y SANTIAGO SIMÓN, Emilio de: Documentos (٨)
arábigo-granadinos romanceados. () Granada, 1986, págs. 67-75 y 76.

Tomo XVII de la Historia de España de M: Pidal: "La España de los Reyes (٩)
Católicos, de JUAN DE MATA CARRIAZO.

PULGAR, H. del: "Crónica de D. Fernando y D.a Isabel" en B.A.E. Tomo 3.º, (١٠)
Madrid 1953, págs. 428 y s.

ANÓNIMO: "Fragmento de la época sobre los Reyes Nazaritos presentado por (١١)
A. Bustani y C. Quirós, . () Larache 1440, pág. 19

LADERO QUESADA, M. Ángel: "Mercedes reales en Granada anteriores a (١٢) 1500", pág.59.

MADOZ: Diccionario..., Madrid 1849. (١٣)

GAMIR, A.: "Relequias de las defensas fronterizas de Granada y Castilla en los (١٤) siglos XIV y XV". M.E.A.H. 1956, págs. 43 y s.

(١٥) هذا البيان زودنا به الأستاذ رفائيل غ بينادو، من قسم تاريخ العصر الوسيط بكلية الفلسفة والآداب بجامعة غرناطة، انظر كذلك دراسته " الأرض الغرناطية في أواخر العصر الوسيط: الجبال الشرقية" (١٤٨٥-١٥٢٧) ١

LADERO QUESADA, M. Angel: "La repoblaci?n del rieno de Granada anterior (١٦) a 1500", pág. 46

AICOCER, Mariano: Castillas y fortalezas del reino de Granada, T?nger 1940, (١٧) pág. 215.

PAZ, Julián: Castillos y fortalezas del reino... Madrid 1978. (١٨)

الفصل الثالث

زيجات المنظرى

عروس القائد التطواني الغرناطية

إن سيرة ماركيز مونديخار وكونت تينديا، أول حاكم مسيحي لقصر الحمراء وقائد عام لمملكة غرناطة، تقدم لنا رواية لحدث أصيل في حد ذاته، بل تفيدنا، بالإضافة إلى ذلك، في ضبط بعض التواريخ والبيانات المتعلقة بتأسيس تطوان وبمؤسسها. بالإضافة إلى ذلك تعد هذه الرواية المصدر الوحيد الذي يحدثنا عن ذلك.

إنها الرواية المتعلقة بإلقاء القبض على عروس المنظرى، عندما كانوا يأخذونها من مدينة مولدها، غرناطة، لتتزوج من قائد تطوان، في بلاد البربر، كما كانت تسمى كل المنطقة الشمال إفريقية. تعتقلها قوات تابعة لكونت تينديا ويأخذونها إلى ألكالا لا ريال، حيث كان السيد إنييغو يتولى الحكم في هذه اللحظة كجنرال متقدم في الجبهة. إنها الدرجة الأدنى مباشرة على تنصيبه قائداً عاماً للمملكة التي كان على وشك إخضاعها.

كانت ألكالا لا ريال، الواقعة على بُعد ٥٠ كم من غرناطة، تشكل رأس الحربة للهجوم المسيحي؛ هناك، في أعلى القلعة، أمر الكونت بوضع ضوء ليلي دائم، يكون بمقدوره إرشاد الأسرى الذين يهربون من العاصمة.

من هناك، من تلك القلعة، كان يخرج بشكل دائم فرسان يسحبون الفرع والإحباط لآخر المدافعين المسلمين عن الغوطة الغرناطية.

إن قلعة لاموتا القوية تلك كانت مركزاً لشبكة تجسس واسعة تعمل في خدمة تينديا، وكذلك كانت بؤرة للاجتماعات، في رحلات الذهاب والعودة، مع رسل من القادة الغرناطيين الأساسيين، الذين استطاع ميندوثا أن يستغلهم جيداً لخدمة الملكين الكاثوليكين.

إن الفصل الذى يهمنى الآن تلخيصه هو الآتى: جندى مسيحي، هارب من غرناطة، يخطر الكونت بأن فاطمة، وهى مسلمة نبيلة، ابنة شقيق أو شقيقة ابن كماشة Abencomixa وقريبة للملك أبى عبد الله الصغير سيأخذونها إلى بلاد البربر، لعقد قرانها على قائد تطوان.

كما نرى، أن أشياء قليلة كانت تحدث داخل المدينة ولا تصل سريعاً بطريقة أو بأخرى إلى مسامع تينديا. إن الأمر الوحيد الذى لم يكن يعرفه الكونت هو الطريق الذى كان سيسلكه الموكب، لذا كان يرسل فصائل من الفرسان، للاستطلاع، فى كل طرق غرناطة. نحن فى عام ١٤٩٠ والفرسان المسيحيون يتحركون فى ضواحي المدينة مثل السمكة فى الماء.

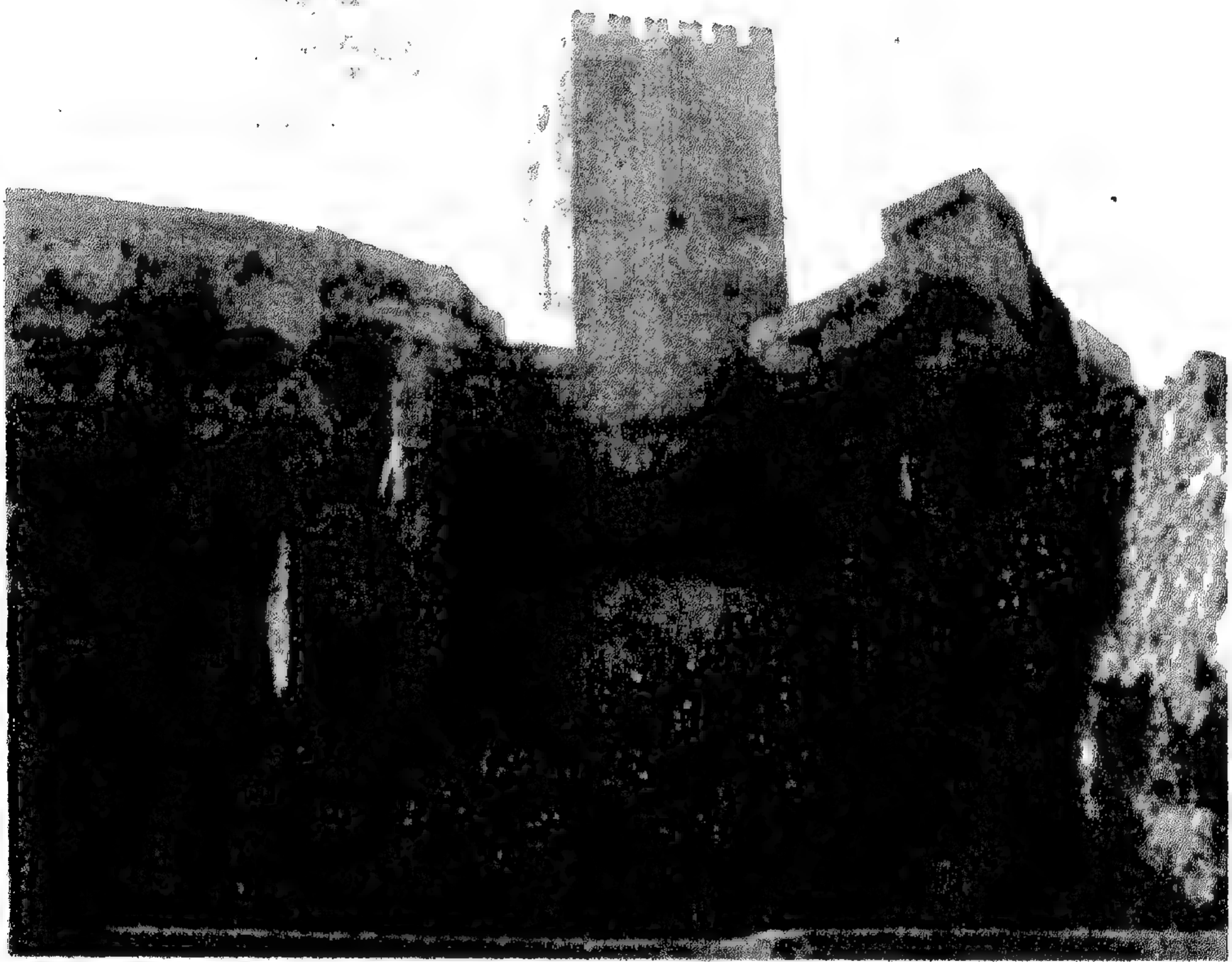
إحدى الفصائل، التى يقودها ألونسو دى كارديناس بيلوا، وتضم خمسين فارساً، عثرت على الغنيمه ذات صباح، وهى تعبر نهر شنيل el Genil، من فوق غرناطة. كانت غنيمه سهله حيث إنها كانت تسير ولا يكاد يحميها سوى عدد قليل من الخدم.

يأخذ ألونسو كاريناس الأسيرة، فاطمة، بجانب رفقاءها، إلى بينوس بوينتى Pinos Puente، حيث كان ينتظرهم تينديا، وهذا يرسلهم إلى قلعته ألكالا لاريال.

وبينما هم فى ألكالا، يصل السيد فرانثيسكو دى ثونييغا Francisce de zuñiga، فارس من أراغون، قام ابن كماشة بإطلاق سراحه فى غرناطة بهدف أن يطلب اقتداء العروس. يحمل ثونييغا، إضافة إلى ذلك، رسالة من أبى عبد الله يعرض فيها كميات كبيرة من الثروة فى مقابل قرييته.

أمام الاهتمام الذى أبدته شخصيات شهيرة جداً أطلق الكونت سراح فاطمة دون أية فدية، وكذلك أطلق سراح خدمها. لكى يتم لطفه يهدى العروس جواهر ممتازة وهدايا أخرى(*) (١).

(*) هذه المعلومة مهمة، وتعزز ما يقوم به صديقنا خايير رويث مدير معهد ثيريانتيس بالقاهرة حالياً من دراسة التراث الأندلسى فى مصر. (المراجع)



حصن الكالا لا ريال الذي سُجنت فيه عروس المنطري

لا شك أن هدية الزواج التي قدمها السيد إنيفو كانت أروع هدية تلقاها العروسان، لأنه من الواضح بالنسبة إلينا أن السفر الذي تم اعتراضه قد حدث وأن الزواج تحقق في النهاية. عكس ذلك ربما ما كان ليؤرخ الحدث، الذي يحكى كعلامة على شهامة تينديا العظيم. نضيف كذلك، بادرة على سياسة التقارب الأخلاقي إلى العدو وهو ما سوف يشكل كل مساره كحاكم عندما يتولى المنصب الصعب الذي وضعه فيه الملكان عندما سلماه مملكة غرناطة.

من الجائز أن هذا كان واحداً من الفصول الأولى التي سمحت باتصال هاتين الشخصيتين العظيمتين في ذلك العصر، تينديا والمنظري .

الأول، عظمه أهله حتى أعلى قمم الشهرة؛ والثاني، منسى تقريباً في التاريخ الإسباني، يسطع فقط في الميادين الحربية بشمال إفريقيا، مع أنه بين أهله يصل إلى أعلى قمم الحماسة، كـ"مجاهد" ومقاتل رفيع وصاحب واحدة من أكبر المدن المغربية.

الاثنان هما نتاج الحرب الغرناطية، الحرب الأخيرة التي خاضها الإسلام الإسباني المستقل. من المدهش أن السيد إنيفو لم يكن غرناطياً، ولا حتى أندلسياً؛ بينما كان المنظري كذلك .

إن أسر عروس المنظري الغرناطية وإطلاق سراحها فيما بعد يوضحان عدة عوامل مهمة ينبغي تناولها من جوانب متعددة . من ناحية التسلسل التاريخي ينبغي إبراز التاريخ الذي وقعت فيه الحادثة والذي يقدم تكديماً قاطعاً لـ ليون الإفريقي ومارمول وآخرين ينقلون عنهما ويتبعونهما في رأيهما بأن المنظري عبر إلى إفريقيا مع أبي عبد الله. لقد كان سيدي على المنظري في تطوان، كقائد، في عام ١٤٩٠ . وأكثر من ذلك، فنحن نجرؤ على تأكيد أن المدينة كانت قد أعيد بناؤها بالكامل وحصنت جيداً عندما قرر قائدها أن يطرح على عروسه وقائع هجرة إلى أرض غريبة، وهو ما سوف يؤثر كذلك في نفوس أهلها الذين تركوها ترحل.

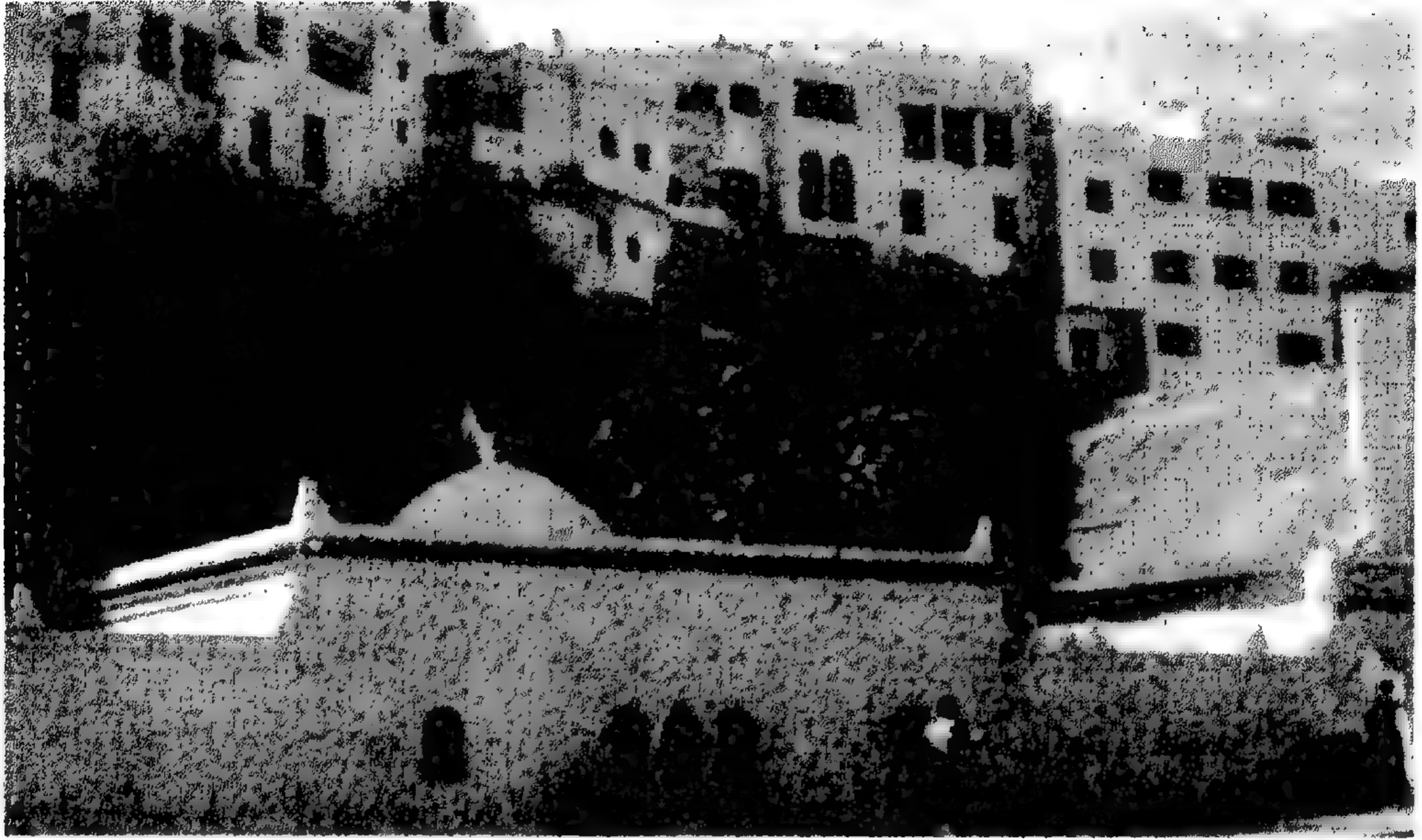
فيما يتعلق بالأهل ينبغي تقديم ملاحظتين مهمتين: إحداهما(*) تتعلق بالدرجة الاجتماعية التي يتعين افتراضها في العريس، عندما يقدم والدا فاطمة على إرسالها إلى تطوان؛ يعزز نظريتنا بأن عائلة المنظرى غنية وذات نفوذ . إن تدخل رئيس وزراء مملكة بني نصر، الذي كانت فاطمة ابنة أخيه، وتدخل العاهل نفسه يجعلنا نؤكد كل ما قيل.

كنتيجة للمصاهرة فإننا نجد مؤسس تطوان منتسباً بشكل غير مباشر إلى أسرة بني نصر الملكية.

إن الحدث في ذاته ينطوي على رمزية هائلة لاستمرار الأندلس الإسباني في أراض إفريقية، كما كان قد حدث على مدى كل الحقبة الأخيرة من العصر الوسيط: تطوان امتداد مادي وروحي لغرناطة.

لا ينبغي الجدل كذلك حول الطابع الداخلي المنشأ الذي سيكون عليه، على الأقل في مرحلة أولية، الاستقرار الغرناطي في أراض مغربية. أمام عداء الوسط البيئي الإنساني، فإن فريق المبعدين ينغلق على نفسه. يوجد فقط استثناء نبيل في الشمال المغربي، وهو سيدي علي بن راشد وشرفاؤه الذين يبدون استقبلاً ليس حاراً فقط بل أخوياً في الحقيقة نحو المهاجر القادم من مملكة في حالة احتضار.

(*) واضح أن المؤلف قد نسي إدراج الملاحظة الثانية . (المراجع)



مسجد - خيرع سيدى عبد القادر تبين الذى عاش فى تطوان فى القرن الثانى عشر



مسجد - خيرع سيدى عبد الله الفخار تبين الذى عاش فى تطوان فى القرن الثانى عشر

لن نبحث الآن، أسباب هذا التقارب وهي عديدة ومعقدة، وإنما يهمنا أن نشير إلى أنه سوف يكون الفجوة التي ينساب منها بغزارة تيار الدم الغرناطى المستمر الذى يصب فى شمال المغرب مخصباً إياه.

داخل هذا المظهر الخاص للمنفى ينبغى أن نتابع سيرتنا الخاصة بالمنظرى بخبر عن زواجه الثانى. هذه المرة من ابنة سيدى على بن راشد، مؤسس الشاون Xauen وسيد إقطاعى حقيقى لـصاحبة شاسعة من منطقة الحَبْتُ Habi المغربى، المعين المنحرف الشمالى للمضيق فى ضفته الإفريقية.

زوجة المنظرى المغربية

إذا كان هناك شخص استحق امتنان آلاف المهاجرين الغرناطيين، الذين نزلوا على شواطئ الساحل الشمالى المغربى، فإن هذا الشخص كان بلا شك، الشريف العلمى على بن راشد، صاحب إقليم شاسع، كان يشمل تقريباً كل المنطقة الغربية من شمال المغرب.

جمع فى شخصه صفات سياسية وعسكرية فوق العادة وكانت حياته كذلك غير عادية، ينبغى أن تكون معروفة، بعد حياة المنظرى، لأنها ليست مهمة فقط بالنسبة إلى تاريخ بلده، الذى كانت له فيه طموحات غير محدودة، بل لتاريخ إسبانيا، حيث لعب دوراً مستتراً وخفياً لكن ليس خالياً من التأثير فى شئون زمنه.

يكفى القول بأنه كانت له معاملات ومراسلات مع فرناندو الكاثولىكى نفسه ورحلات ذهاب وعودة مستمرة ومتدفقة تقريباً بموضوعات ورسائل مع الكونت تينديا، الذى يدعوهُ عادةً "أخ وصديق".

تزوج بن راشد، وهو فى أوج شبابه، من امرأة متحولة من المسيحية إلى الإسلام وسُميت لالا زهرة lal-la Zuhra، وهى من مواليد بيخير دى لا فرونتيرا Vejer de la Frontera، وأنجب منها ابنين: أحدهما ذكر هو مولاي إبراهيم، وأنثى هى ست الحرة،

لم ينافس مولاي إبراهيم والده البطولات فقط بل تحول، دون أن يكون ملكاً، إلى سيد مملكة فاس، إن سيرة حياته تُشابه حياة أبطال عصر النهضة الأوروبية^(٢).

لم تكن أخته، ست الحرة تساويه من حيث الذكاء والشجاعة، بل تفوقت عليه في ثبات العزيمة والطاقة. كانت هذه هي الزوجة المغربية للمنظري والتي حكمت، في الواقع، تطوان لسنوات عديدة، خاصة خلال فترة العمى الطويل وشيخوخة القائد الغرناطي القديم.

ليست لدينا بيانات كثيرة عن هذا الزواج والبيانات التي تشير إلى وجود ذرية محتملة منه هي كذلك ملتبسة. إن المصادر البرتغالية التي تعد المصادر التي تكشف لنا الروابط العائلية بين بن راشد والمنظري، تتحدث عن هذه الروابط في حكايات عن أحداث حربية وقعت في القرن السادس عشر. نستنتج، إذن، أن السنوات الأولى لنمو تطوان تتعلق - في الحياة العائلية لمؤسسها - بزوجته الغرناطية فقط، وربما كانت ست الحرة صغيرة جداً حينئذ للتفكير في روابط سياسية.

بافتراض أن مولاي إبراهيم كان أكبر بعض الشيء من ست الحرة، فإننا نستطيع أن نحسب من خلال سنه عمر أخته. هناك مؤرخ برتغالي يساعدنا في المحاولة؛ برناردو رودريغيس Bernardo Rodrigues .

تكشف لنا فقرة من حولياته (Anais) عن أعمار وروابط عائلية. بهدف القيام بعمل حربي يستدعي قائد القصر الكبير قواد الشمال ليقاتلوا متحدين: "لكن كمنسوب عن الشاون لم يأت سيدي على بن راشد، قائدها وسيدها، لكونه مريضاً، ولأن قائد القصر أرسل له يطلب أن تتحد القوات وتهب إلى أصيلة، وكان قد أمضى ثلاثة أيام وهو منتظر صوب القصر، ولكي لا يخذل أو يغضب القائد، عهد سيدي على بن راشد بابنه إبراهيم إلى المنظري، صهره وقائد تطوان وترغه؛ وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتولى فيها مولاي إبراهيم مسئولية القوات، وهو في سن صغير جداً حيث إنه لم يكن قد بلغ العشرين من عمره"^(٢).

ولأن ذلك حدث فى عام ١٥١١، فمن الممكن افتراض أن ست الحرة كان عمرها ١٨ أو ١٩ سنة وأنها كانت متزوجة من المنظرى، صهر ابن راشد، كما قرأنا للتو. بالتالى نستطيع أن نحدد تاريخ مولدها بين عامى ١٤٩٢ و ١٤٩٣. زواجها من المنظرى نحسبه بعد عام ١٥٠٥ بقليل.

لقد كان فى الحقيقة زواجاً سياسياً، ويمثل كذلك اندماج الغرناطى مع بيئته.

كانت الحرة- السيدة النبيلة، كما يسميها بعض الكتاب المغاربة - مخصصة لزواجها حتى توفى عن عمر متقدم، فى عام ١٥٤٠، فتزوجت فى الحال من سلطان فاس.

لا نعلم ما إذا كان طموحها السياسى الهائل ساعدها على تحمل زوج عجوز وأعمى، أو ظرف آخر. الشئ المؤكد هو أنه خلال السنوات الأخيرة من حياة المنظرى كانت هى التى تحكم المدينة حقيقة وعلاوة على ذلك كانت تدير شئون القراصنة المتمركزة عند منبع نهر مرتيل.

كانت بالتاكيد متعودة على إدارة زمام السلطة فى فترات غياب زوجها المتفرقة، عندما كان يخرج فى غزواته الحربية.

يصفها بارغاس Vargas، السفير البرتغالى لدى ملك فاس، بأنها امرأة تميل للحرب وعنيفة جداً ومعتادة دائماً على القيادة، ولكونها زوجة شابة لرجل مسن، كانت تريد أن تفرض إرادتها على كل من حولها.

لا نعرف ثمرة زواجها، لو كان هناك ثمرة، مع أن التواريخ البرتغالية تتحدث عن صهرها حسن، المتزوج، من ابنة للمنظرى.

بعد أن عُيِّن حسن هذا - شكلياً - حاكماً لتطوان بعد موت المؤسس، أرادت الحرة أن تمتد، مع صهرها، أمد القيادة التى كانت قد تولتها مع زوجها. لا شك أن ذلك كان أحد الأسباب التى جعلتها تميل للزواج من ملك فاس فى تطوان، لكن عندما

أبعدت كل المؤيدين لها، لم تكسب غير تأمرهم ضدها بدءاً من أخيها غير الشقيق، محمد، في الشاون، حتى صهرها ذاته في تطوان، وتم حرمانها في عام ١٥٤٢، من حكم المدينة ومن كل أملاكها.

لا نعلم شيئاً عن مصيرها بعد ذلك، ولا متى أو أين ماتت. يظهر مدفنها في الزاوية الريسونية في الشاون خلف القلعة التي بناها أبوها والتي كانت أصل هذه المدينة المغربية.

الهوامش

(١) Historia de la Casa de Mondéjar, escrita para el Marqués de Valhermoso por el de Mondéjar, su abuelo.

ثلاث مجلدات، كمصدر للعمل يأتي ذكر الحقوقي غابرييل رودريغيث دي أريديلا ، راهب إثنايوث ، من مواليد غرناطة، مؤلف كتاب " منشأ وتسب ويطولات بيت ميندوتا الكبير"

Gabriel Rodríguez de Ardila, Iznalloz "origen, descendencia y hazañas de la gran casa de Mendoza"

الحدث مسجل في المجلد الثاني، الفصل الثالث والعشرون، صفحات ٢٧٤-٢٧٥ و ٢٧٦ ظهر، من المخطوطة الموجودة في أكاديمية التاريخ الملكية.

RODRIGES, Bernardo: Anais de Arzila... Lisboa 1915. (٢)

RODRIGUES: Anais, 1-57. (٣)

الفصل الرابع

المنظري محارباً

النشاط الحربي للمنظري

كان أبو الحسن على المنظري شخصية استثنائية. كان شخصية غير عادية حتى في تلك الأزمنة التي تبرز فيها قيم إنسانية عديدة في مجالات مختلفة. ولا نحاول بهذا التأكيد خلق هالة رومانسية لتعظيم الشخصية. إن هذه الشخصية تسمو بنفسها ولا تحتاج إلى غيرها، وإذا كان شبابها المفرط أثناء حرب غرناطة يمنعها من دخول التاريخ، فهي في ميادين القتال المستمر في الشمال المغربي تملأ صفحات المؤرخين البرتغاليين.

نعلم أنه منذ عام ١٤١٥، وهو تاريخ احتلال سبتة، كان أول قائد عام لها، السيد بدرو دي مينيسيس، يخلق، بمهاجمته للضواحي، منطقة حربية تفيدة، بالإضافة إلى ذلك، لكونها منطقة تموين ذاتي لحاميته، عندما كان يشن غارات تسلب المحاصيل والقطعان من فلاحي المنطقة المحيطة. هؤلاء الفلاحون بالكاد يستطيعون الدفاع عن أنفسهم بالعصى والحجارة.

تصل الغارات، كما رأينا، حتى تطوان وما بعدها.

إن عام ١٤٣٧، تاريخ احتلال تطوان، هو كذلك تاريخ النكبة البرتغالية في طنجة. تتوقف المحاولة التوسعية لبعض الوقت، لكن في عام ١٤٥٨ يحتلون القصر الصغير وفي عام ١٤٧١ يحتلون أصيلة وطنجة. كل المعين المنحرف الشمالي المغربي يتحول إلى ساحة معركة، مع غزوات برتغالية عميقة تصل تقريباً إلى احتلال العرائش وحتى القصر الكبير.

إزاء عدم فعالية السلطة المركزية تحالفت المدن مع قادة المواقع القوية وتشكلت منطقة حماية برتغالية في الشمال المغربي، إلا أنه عندما كان يبدو أن العمل العسكري للبرتغال كان يصعد الحصول على أقصى ثماره، يظهر في الشمال شريف، نصف متمرّد، ونصف خاضع للسلطان، يعارض بكل قواه التوسع البرتغالي، ويحشر أفضل محاربيه من بين الفرناطيين المهاجرين.

كان هذا القائد هو على بن راشد الذي ركز جيشه بين المناطق الجبلية لجبل أخماس Ajmas، الامتداد الجبلي الغربي لسلسلة جبال ريف، وأنشأ قلعة، مستخدماً الأسرى الذين كان يأخذهم في غزواته.

عندما بدأت الهجرة الفرناطية تتزايد في عددها، ظهر على المنظرى مع محاربيه وتفاهم كلا الزعيمين في الحال.

لم تبدأ البرتغال في مواجهة مشكلات في قلاعها الإفريقية فقط، بل ازدادت المشكلات التي كانت لديها وتلاشت آمالها في تشكيل منطقة حماية أو إقطاعية في مملكة فاس، وبدأت سيطرتها من الشمال.

إن بن راشد والمنظرى، بارشاً والمنداريم(*) قد تسببا في هذا التحول في الوجود البرتغالي في السواحل المغربية. فيما بعد لن تكاد الحاميات البرتغالية تستطيع الخروج من أسوار قلاعها، وقد بدأ القصر البرتغالي ذاته يفكر في التكلفة الباهظة للمحافظة على هذه القلاع إلى أن قرر إخلاؤها، كما تحقق في أواسط القرن السادس عشر. على مدى ليس بطويل جداً كانت هذه ثمرة مقاومة المنظرى وبن راشد.

يحكى المؤرخون بالتفصيل المعارك الحربية لكلا القائدين، من النادر جداً أن نجد معارك أو اشتباكات أو غارات، لا يكون فيها قائدا الشاون وتطوان متحدتين.

(*) هكذا ترد الأسماء في الوثائق البرتغالية . (المراجع)

إن روى دى بينا Ruy de Pina - وهو أقدم المؤرخين - يرجع تاريخ ظهور بن راشد والمنظرى ضد حاميات طنجة إلى عام ١٤٨٧ . من الطبيعى أن ظهور بن راشد سيكون سابقاً على هذا التاريخ ، إلا أنه لا يظهر مسجلاً فى التواريخ حتى عام ١٤٨٧ الذى يقع فيه أسيراً.

المنظرى أيضاً حارب البرتغاليين قبل هذا التاريخ، ربما منذ أن استطاع أن يعتمد على تطوان وكملاذ لقواته، بدءاً من سقوط قلعة بينيار فى الجبهة الغربانية، فى سبتمبر من عام ١٤٨٥، أو ربما قبل هذه الواقعة بشهور.

يحكى روى دى بينا الذى يعد مصدراً موثقاً به، حيث إنه كان يعيش فى القصر البرتغالى لخوان الثانى، أن بن راشد، سيد عظيم بين المسلمين، والمنظرى، قائد تطوان، كلاهما لم يكونا يطيعان ملك فاس وكانا بالتالى يهاجمان أراضى أصيلة أو طنجة حينما كانا يظنان ذلك مناسباً.

لنتذكر أنه بدءاً من احتلال كلا الموقعين، يوقع مولاي الشيخ وألفونسو الخامس هدنة بهدف ألا يضايق أى منهما الآخر. كان مولاي الشيخ يهدف إلى الحصول على عرش فاس الذى حصل عليه فى النهاية وألفونسو الخامس من أجل توطيد فتوحاته الإفريقية. كانت اتفاقات الهدنة بينهما متكررة، لكنها كانت تفيد على نحو خاص الحاميات البرتغالية.

كان ذلك بمثابة استراحة فى نشاطهم الحربى

يشرح دامياو دى غويس، وهو مؤرخ آخر من المؤرخين الأوائل، هذا الموقف فى كتابه المطبوع نحو عام ١٥٦٦: " بعد أن أبرم الملك جواو el Rey Don loao اتفاقات هدنة مع ملك فاس، قام مولاي بن راشد، الذى كان سيداً عظيماً بين المسلمين، والمنظرى قائد تطوان، اللذان لم يطيعا ملك فاس، ولم يكونا ضمن هذا الاتفاق، بالزحف على موقع أصيلة.... السيد رودريغو Rodrigo (حاكم الموقع) لمقاتلة هذه

المجموعة من المسلمين التي كانت قوية، وبها رجال حرب أكفاء، حيث هزم ومات مع سبعة عشر نبيلًا. (١) .

كان ذلك نكبة حقيقية بالنسبة إلى البرتغاليين الذين كانت قلة عددهم هي الثغرة الحقيقية في عملياتهم العسكرية التي كان أكثرها يستخدم أبناء البلد أنفسهم كجيش مرابط. سوف يقوم المنظرى وابن راشد بمنع هذه السياسة بدرجة كبيرة في شمال البلد، تلك السياسة التي طبقت بعد ذلك بالفعل في الجنوب المغربي.

يحكى غويس نفسه عن تأثر البرتغاليين لهزيمتهم، بعد ذلك بقليل عندما "دخل مولاي بن راشد والمنظرى ومعهما سيدى موسى وسيدى يعقوب، ابنا شقيق بن راشد، برأ ومعهم ألفا حربة وثمانمائة رجل من المشاة، وضربوا القرى التي كانت لها معاهدات سلام معنا..."

إنها قرى مسكنة وفلاحون بائسون ينتمون لإقليم كثيراً ما كان يقع بين نارين، دون أن يعرفوا في كثير من الأحيان علام يعتمدون، ينهبهم البعض والبعض الآخر، إن لم يدمروهم في الفترات التي كانت تصل فيها القوات الملكية لمحاصرة قلعة ما في الشمال.

في هذه المرة، بعد هزيمة بن راشد والمنظرى، حصل القائد البرتغالي "من السكان على الضرائب التي كانوا مدينين بها له". هذا الحدث وقع في عام ١٤٩٥ .

في عمليات حصار أصيلة من قبل ملك فاس لا تنقص عند غويس الإشارات إلى كلا القائدين اللذين يذكرهما دائماً متحدين. هكذا، في الهجمات على المدينة في عام ١٥٠٨، يضع المؤرخ على لسان "القائدين بن راشد والمنظرى، شخصان رئيسيان جداً بين المسلمين"، نصائح إلى ملك فاس. وفي عام ١٥١٢، وصل بن راشد والمنظرى وقواد آخرون حتى أبواب الموقع حيث قتلوا وأسروا بعض المسيحيين.

لكن المراسل الحربى الحقيقى لأصيلة كان برناردو رودريغيس Rodrigues، وهو ابن جراح الموقع، وُلد وتربى فيه وهو الذى نقل إلينا أكثر التفاصيل، ليس فقط عن

الأحداث الحربية، بل عن مظاهر أخرى كثيرة من الحياة فى المدينة - القلعة، بأخبار عن الأصدقاء والأعداء على حدٍ سواء. بفضلله يمكن فك شفرة الكثير من العلاقات العائلية للشخصيات الأكثر بروزاً فى المعسكر المقابل، إنه يضئ لنا فى بضعة سطور فقط لوحة الأحداث بحيث نعرف من خلاله أكثر مما نعرف من صفحات كثيرة لكُتَّاب آخرين، بما فيهم مؤرخون.

عندما حوصرت أصيلة فى عام ١٥٠٨، كان " بن راشد والمنظرى " موجودين ناحية الشاطئ، بين القوات المحاصرة للمدينة، يخوضان هناك معارك قاسية بغية الاستيلاء على سفينة شراعية، وهو ما حاول أن يفعله " أندلسيو تطوان على وجه الخصوص"، وكان هناك كذلك "سيدى على بن راشد" عند أسفل حصن الشاطئ، كان يحاول أن يعطى رسالةً إلى الكونت الحاكم.

بعد قليل من رفع هذا الحصار كان قواد الشمال فقط هم الذين هاجموا أصيلة، لكن بدون عتاد. حصار حقيقى فعّال وبلا مدفعية، كان القليل فقط هو ما كان يمكنهم عمله ضد الأسوار القوية والخنادق الواسعة التى كانت تحمى المدينة.

هكذا كان يحدث مرات عديدة يتوصلون فيها فقط، فى هجماتهم، إلى قتل أو أسر بعض قوات الثغر^(٢).

فى عام ١٥١٢، يحاول بن راشد والمنظرى، بأمر من ملك فاس، تدمير الحقول "بعدد كبير من الفرسان وعدد كبير من المشاة الذين جلبوهما من أراضيهن ومن المناطق الجبلية".

توضح لنا فقرة أخرى لاحقة أنهم كانوا ثمانمائة فارس وأكثر من أربعة آلاف جندى مشاة. وهى قوة واضحة إذا كانت بالفعل مسلحة جيداً ومنظمة. يقدم المؤرخ صورة حية لبدء القتال مع حاميتى أصيلة وطنجة:

"Dizem que neste encontro primeiro Joao Conde, atalaia encontrou a Al-mandarim e pondo-lhe a lança em uas tachas de un treçado lhas fendeo,e sem lhe fazer outro mal pasou adiante...".

عندما هُزِمَ الفرسان المسلمون تخلوا عن حماية جنود المشاة الذين تلقوا طعنات الرماح بلا رحمة.

تتناوب الحَن والانتصارات في كتاب رودريغيس الذي لا يخفى هذه ولا تلك، كما اعتاد أن يفعل المؤرخون الرسميون للقصر البرتغالي إذ كانوا يخفون الهزائم، ويبالغون في وصف الانتصارات.

لا يتوقف سيدي على بن راشد وسيدي على المنظري عن عدوانهما ولا يأسان بسبب إخفاقات كبيرة أو صغيرة. كذلك الخصوم فهم يعانون من محن كبيرة في كل الحاميات، بما فيها حامية سبتة، ذات التحصينات التي تكاد تكون منيعة. في عام ١٤٨٧، "هُزِمَ السيد أنطونيو، الابن الثاني لماركيز بيلا ريال، عندما كان قائداً لسبتة، على يدى بن راشد والمنظري، قائدى الشاون وتطوان"^(٣).

ولم تنج كذلك حامية القصر الصغيرة من مضايقة المنظري وبن راشد. وصل الأمر في إحدى المعارك أن هلك في الهجوم القائد ذاته حاكم الموقع، روى دياث دى سوسا^(٤).

في عام ١٥١١، وهو العام الذى يقاتل فيه مولاي إبراهيم لأول مرة، تصطدم كتيبة فرسان برتغالية، عند انسحابها عبر ميناء كابانيس Capanes، بقوات بن راشد والمنظري التي كانت قادمة من بنى عروس Beni Arós . هنا يأتي الحديث عن راية بن راشد القرمزية، ومما يدعو للعجب أن تلك الراية كانت شعاراً لمملكة بنى نصر^(٥). في تاريخ لاحق جداً، مثل عام ١٥١٦، لا يزال يظهر قائدا الشمال في حصار لأصيلة Arcila، من ناحية البحر كما يفعلان دائماً، حيث يصب ما يسميه المؤلف "النهر العذب"، في مواجهة معقل الشاطئ الحصين. في هذا الفصل يجرى الحديث من جديد عن الأندلسيين وعن " الراية القرمزية لابن راشد والمنظري".

بعد ذلك بقليل يتكرر ذكر الراية الخاصة بالقائدين والتي كان يحملها " أندلسيون كثيرون، مهندمون ومسلحون بالبنادق بشكل جيد جداً"^(٦).

لم يكن أولئك الغرناطيون بالطبع هم الفلاحون الفقراء الذين كانت الحجارة هي أفضل أسلحتهم، وكان الهجوم بصدر مفتوح وإطلاق صرخات عالية هو أفضل أسلوب لديهم. لقد وجد البرتغاليون في هؤلاء أنداداً حقيقيين، وتحولت التنزهات العسكرية في الزمان القديم، كل مرة بشكل أكثر شيوعاً، إلى لقاءات دموية وهزائم أليمة.

لقد كان المنظرى ورجاله الغرناطيون هم العامل الرئيسى فى هذا التغير العسكرى الذى أدى بالتدريج كذلك إلى تغير اجتماعى، وأشرك، بشكل أكثر تواتراً، السكان الأصليين فى الكفاح ضد الغازى.

الجبهة البحرية:

لو تأملنا خريطة أو رسماً بسيطاً أو شكلاً للمعين المنحرف الجغرافى للشمال المغربى، مع الطرف الذى يشكله جنوب شبه الجزيرة الأيبيرية، فسوف نتعرف على قرب كلا الساحلين، إلى درجة تشكيل قُمع، يوصل البحر المتوسط بالمحيط الأطلنطى. يأخذ القمع فى الضيق بدءاً من سبتة، ليصل عند مسافة قدرها ١٤ كم كحد أدنى، تقريباً، بين طريفة من جانب والقصر الصغير من الجانب الآخر، منتهياً فى الطرف الآخر بطنجة، التى يستحم الجزء الأكبر من شواطئها فى مياه المحيط الأطلنطى.

كان مضيق جبل طارق من الناحية التاريخية منطقة مرور، إلا أنه كان كذلك معبراً. لقد نفذ الإسلام واستمر يعيش فى شبه الجزيرة الأيبيرية من خلال المضيق كمعبر، وعندما تتوطد القوة المسيحية فى الوادى الكبير، فى عهد فيرناندو الثالث، تظهر فى الحال مشكلة المضيق.

إن هذه المشكلة بعد حسمها، على ما يبدو، فى معركة سالادو Salado، على مقربة من طريفة، سوف تظل انعكاساتها كامنةً لقرون كثيرة أخرى.

على الرغم من احتلال سبتة فى عام ١٤١٥ والقصر الصغير فى عام ١٤٥٨ وطنجة فى عام ١٤٧١، فلم يكن ممكناً منع انتقال جماعات بين سواحل المملكة

الغرناطية وسواحل مملكة فاس، ولا منع تعزيز المحاربين البربر في مختلف الحاميات.
الغرناطية ولا منع تعزيز المبعدين طواعيةً إلى سواحل الريف.

يتعين على فيرناندو الكاثوليكي تأجير أساطيل لمنع مرور التعزيزات، تمنع هذه الأساطيل وهذه الرقابة- مؤقتًا، خلال حرب غرناطة - تطور القرصنة، إلا أنه بعد انتهاء حرب غرناطة وكون الأساطيل ضرورية من أجل حركة السفر إلى العالم الجديد، تتفاقم القرصنة تفاقمًا شديدًا حتى أنها تحول بحر البوران Alborán، على وجه الخصوص، إلى منطقة ذات خطر داهم على الملاحة البحرية، وليس فقط البحر، بل إن السواحل الإسبانية ذاتها سوف تُهاجم وتتهب من قبل هؤلاء القراصنة من شمال إفريقيا، هكذا يُطلق عليهم في تاريخنا، إلا أنهم في الحقيقة لا هم قراصنة، ولا هم بربر من شمال إفريقيا. إنهم موريسكيون إسبان حولوا البحر إلى امتداد لمعركة برية خسروها في شبه الجزيرة. بالنسبة إلى المؤرخين المغاربة والمؤرخين المسلمين، عامةً، فإن أولئك القراصنة هم، في الحقيقة، " مجاهدون " مقاتلون من أجل الدين.

إن هؤلاء " المجاهدين " بجهادهم الذي غالباً ما يكون جهاداً بالنفس وغير معروف مدبره، شكوا بالتأكيد مشكلةً خطيرة جداً للدولة الإسبانية على مدى قرون. وهي مشكلة حاول فيرناندو الكاثوليكي أن يحلها بشكل قاطع، إلا أنه بعد موته وبعد أن جُرِّبَ حلول أخرى، زحفت المشكلة حتى دخول العصر الحديث.

هل يمكن أن يدهشنا أن المنظرى، المحارب المتميز في البر، كان كذلك أيضاً في الجبهة البحرية ؟

لم يكن من الممكن أن ننسى عاملاً استراتيجياً شديد الأهمية وخاصة أن تطوان تقع على مسافة ١٠ كم من البحر وفيها نهر مرتيل el Martín الذي كان يشكل في مصبه مصباً صغيراً كان يُعد مأوى لسفن صغيرة وذى غاطس قصير. لقد كان المأوى البحرى الوحيد الذى بقى بعد الاحتلال البرتغالى لموانئ المضيق.

لقد أفاد مصب نهر مرتيل، في أزمنة سابقة، الهجرة الغرناطية، كمأوى وإمداد لسفن قرصانية، وهي سفن صغيرة عليها طواقم مسلمة كانت تهاجم التجارة والنقل الملاحى بين موانئ مسيحية. في المصب نفسه كان هناك، مثلما هو حادث الآن، بعض التجمعات السكنية ومساكن مخصصة لطواقم هذه السفن ومخازن لتموين وإصلاح تلك السفن. اليوم هي مدينة صيفية، بينما كانت حينئذٍ مدينة صيفية ذات سوق تجارى نشط حيث كانت تدخل إليه وتخرج منه إلى داخل مملكة فاس، كل أنواع البضائع، بدءاً من السلعة الأكبر ثمنًا في ذلك العصر: العبيد.

أشرنا في السابق إلى الاشتباه في أن هذه المنشآت وهذه المدينة كانت هي التي دمرها بحارة إنريكي الثالث في غزوتهم عام ١٤٠٠ .

من المؤكد أن البرتغاليين، عندما دمروا تطوان في عام ١٤٣٧ أو عندما نهبوا بنى معدان Beni Madan، الواقعة بجانب مصب نهر مرتيل، لا يشيرون إلى أنشطة قرصانية. على العكس، فإن السفن الصغيرة التي يشيدها السيد بدرو دى مينيسيس في قلعته بسبته كانت تتجول بساحل سبته - تطوان وبساحل المضيق دون معارضة ظاهرة.

إن « تاريخ الكونت بدرو... » ممتلئ، ليس فقط بالبطولات البرية للجنود البرتغاليين في ضواحي سبته، بل بانتصارات في البحر، حيث إن السيد بدرو كان لا يكاد يحتل الموقع حتى يشيّد لنفسه أسطولاً صغيراً، لكنه كافٍ لحماية اتصالاته والسيطرة على البيئة البحرية. في نفس عام ١٤١٥، ينفذ الكونت الحاكم عملية مشتركة في البر والبحر ضد وادى الفنيدق^(٧) .. Valle de Castillejos

"logo o Conde confirou que non foamente lhe convinha ter bons caval-
losimas a inda navios para fojugar aquella parte do maar, que lhe era vifinha; o
porem mandou fazer aquella fufta que era de dez bancos, e quiz a boa dita do
conde que fahio muito ligeira affi de remos como de vellas..."^(٨)

بعد ذلك بقليل استولوا على سفينة كانت في طريقها من مالقة إلى طنجة ومحملة بملابس غالية الثمن، ويبدأ الكونت في القيام بالقرصنة لحسابه. يتوصل إلى جمع ثلاث

مراكب وسفينة شراعية وبأسطوله الصغير يمنع حركة المرور من مالقة إلى طنجة، ويهاجمون طنجة، وينهبون ترغة Targa، ويدخلون ميناء جبل طارق المسلم نفسه ويهاجمون سفناً معادية وأخيراً، بثلاث سفن صغيرة وبعض المراكب يقومون بحرق العرائش Larache .

إزاء هذا المنظر العام يتعين افتراض أن نمو القرصنة المسلمة كان أمراً مستحيلاً، خاصة مع وجود هذه السيطرة من جانب سبتة على البحار المجاورة: إن ثورارا وغيره يذكرون خمسة قوارب مسلمة فقط تقوم بأعمال القرصنة في المضيق، لم يكن من بينها على ما يبدو أى سفينة يقودها أو يديرها برابرة، أى مغاربة.

كان على بن أحمد بن سعيد، وهو قائد كل هذه السفن، شقيقاً لقائد جبل طارق، وكان يقود سفينة ذات خمس عشرة مجموعة. سفينة أخرى ذات خمس عشرة مجموعة كان يقودها مرتد اسمه مانويل. مرتد آخر كان يذهب إلى الجبهة على متن سفينة ثالثة ذات أربع عشرة مجموعة. سفينة ذات ثلاث عشرة مجموعة كان قائدها شخص من الميرية Almería وأخيراً السفينة الخامسة كانت من المونييكار Almuñécar، وكان يقودها واحد من المقيمين بها.

في صيف عام ١٤٢٥ التقت تلك السفن بأربع سفن وسفينة صغيرة تابعة لمينيسيس، ودمرتها تماماً^(٩).

إن القرصنة المغربية غير موجودة في الثلاث أرباع الأولى من القرن الخامس عشر، وبالكاد يمكن الحديث كذلك عن جبهة بحرية حيث إن مملكة بنى نصر كانت تفتقد لأسطول، توجد فقط معارك منعزلة وفردية، يمكن بصدها الحديث عن قرصنة، تسمح، بين الحين والحين، بحدوث معارك بحرية. وهذه المعارك يقوم بها مسلمون، لا على الجانب الآخر بل من على هذا الجانب.

نحن نشك في أنه تحت صفة قرصنة مغربية كان هناك دائماً امتداد للقتال في البحر على يد مهاجري الأندلس في فترات متعددة من التاريخ.

ربما كان الذى دمر الأسطول القشتالى لإنريكي الثالث فى عام ١٤٠٠ هو المركز الشمال إفريقى للمقاتلين البحريين الإسبان المسلمين، الذين استمروا فى العمل حتى إعادة بناء تطوان .

لأنه بوصول المنظرى ومحاربيه الغرناطيين لم يتغير فقط المنظر العام للحرب البرية - حيث تمكنوا من حبس الحاميات داخل أسوارها - بل تغير أيضاً المنظر العام للحرب البحرية.

لقد شرع التطوانيون الجدد فى صناعة سفن صغيرة، على وجه الخصوص، وبعثوا بدرجة كبيرة نشاط القرصنة، إلى الدرجة التى تحولت تطوان معها - دون أن تكون فى حد ذاتها ميناءً بحرياً - إلى كابوس رهيب للذين كان يتعين عليهم اجتياز بحر البوران Alboran الذى كان يبدو إسبانياً.

لقد غذى الكره والانتقام جهود الكثيرين من أولئك الذين لم يكونوا أبداً بحارة. إن السعى لأجل الربح وتحقيق ثروات سريعة قد أنعش النفوس، حتى نفوس أولئك الذين كانوا يبقون على الأرض لكنهم كانوا يدعمون تلك الحملات اقتصادياً.

واكتسبت تطوان الشهرة الحربية التى سوف تتمتع بها خلال العصر الحديث كله، لكونها أهم سوق للعبيد فى غرب البحر المتوسط ولكونها الوكر المخيف لقرصنة، من أهل البلد وغرباء، الذى سبب أكثر من احتجاج ومشروع للتدخل. بالإضافة إلى كونها بؤرة لنشاط قوى معادية لإسبانيا والتى سوف تجد دائماً فى تطوان الباب مفتوحاً نحو مدينة فاس. عندما نزل المنظرى، على شواطئ نهر مرتيل، لم تكن تطوان موجودة ولم يكن هناك محاربون ولا سفن ولا شيء البتة فى هذا الوادى الفسيح والرائع الذى تشكل جداول أنهار نخلة وخميس وشكور عند اتحاد مياهها وسيرها نحو البحر. كانت هناك بالكاد قرية فى جبال درسة وقرى أخرى فى السلسلة المقابلة لجبل بوزيتون وجبل غرغيز Gorgues وجبال أخرى. لقد كان السهل الذى تجتازه حامية سبتة فى مواكب أو محاربو بن راشد فى هجماتهم المضادة، خالياً بينما أسفل جبل درسة كانت توجد أطلال تطوان القديمة.

أعاد المنظرى بناء تطوان وأنشأ سريعاً جبهة حربية برية منعت سهولة الحملات البرتغالية فى وادى نهر مرتيل.

بالإضافة إلى ذلك جهز القائد الغرناطى أيضاً أسطولاً يبدأ به كذلك حرباً بحرية أخذت تضعف لافتقادها لمركز قريب من مضيق جبل طارق. لا يمكن الحديث عن نشاط قرصانى بدرجة كبيرة إلا عندما تبعث تطوان من رمادها.

ربما حاول سيد الشمال، بن راشد، فى وقت سابق إنشاء أسطول يكمل به فى البحر قتاله البرى. إلا أن مركز هذا النشاط البحرى ليس تطوان بل ترغة التى كانت المخرج إلى البحر لإقليم الشاون. اكتسبت ترغة الأهمية التى وهبها إياها زعيمها المحلى، عندما وسع أنشطته الحربية بالقرصنة ومن ضمنها أيضاً التجارة البحرية كما سوف نرى لاحقاً.

عندما عرف البرتغاليون القيمة الاستراتيجية والتجارية لترغة، هاجموها باستمرار. واحدة من تلك الهجمات، هجمة عام ١٤٩٠، تؤكد أن بن راشد كان لديه هناك بالفعل ترسانة حقيقية:

"acarones no porto Della pinte e chi quo navíos entre grandes e pequenos; e na casa de Taracena,bombardas,polvora,salitre,ancoras,muitas lanças,coiraças,capacetes,e outras muitas ferramentas,e almazem,que recolheram"^(١٠).

كان البرتغاليون قد تبقى لهم وقت قليل للسيطرة المطلقة على السواحل الشمالية لمملكة فاس.

فى عام ١٥٠٢ حاول أسطول برتغالى آخر مهاجمة ترغة إلا أنه منى بهزيمة مدوئية^(١١).

إن ذكر سفن من تطوان متكرر فى التواريخ البرتغالية بدءاً من إعادة تأسيس المدينة.

فى الرابع والعشرين من يوليو من عام ١٥٠٤ شاهد حاكم أصيلة، وهو فى حال من بين الدهشة والغضب " المنظرى، قائد تطوان، وخمس سفن صغيرة" تمر أمام أسوار قلعتة. ولأن هذه المجموعة من السفن لا ينبغى أن تكون مرتجلة، فإننا نظن أنه قبل هذا التاريخ، ١٥٠٤، بكثير بدأ القائد الغرناطى كذلك عمله فى إعادة بناء قوة بحرية معينة^(١٢).

لقد حقق ما أراد لدرجة أن سفنه بدأت تزرع سريعاً الرعب فى البحر وفى السواحل المتاخمة لمضيق جبل طارق.

يذكر المؤرخ رودريغيس أنه فى عام ١٥١٢ كانت هناك " أضرار بالغة أحدثتها بعض سفن تطوان فى ساحل قشتالة خاصة من مالقة إلى قادش ومن قادش إلى المغرب Algarve ..."^(١٣).

إذن فقد كان معظم الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة، فى ذلك الحين، هدفاً لأعمال السلب من قبل الغرناطيين التطوانيين.

بمناسبة الهجوم على سفينة برتغالية من قبل سفينتين فى عام ١٥١٦، أمام أسوار أصيلة أيضاً، يذكر رودريغيس أن إحدى الفرقاطتين كانت من "تطوان، حيث كان لدى المنظرى، قائدها وسيدها، الكثير منها، وكان يحضر عليها جنود مشاة وجنوداً كثيرين مسلحين بالبنادق، كلهم غرناطيون، من البلد التى كان هو منها"^(١٤).

كان هناك رجل يدعى كوارتانو Quartano من غرناطة ، كان رئيساً لواحدة من أكبر سفن تطوان التى يصفها المؤرخون، بها طاقم يزيد على المائة رجل وسبع عشرة مصطبة، بفضل شراعها الملائم، الذى كان يكسبها سرعة من الصعب التغلب عليها، ولا حتى مساواتها بنوع آخر من سفن العصر. من هنا تأتى استحالة الهروب منها، عند ظهورها على مرمى البصر^(١٥).

احتاج البرتغاليون لأسطول دائم لحراسة المضيق وحماية الاتصالات بين مواقعهم القوية. كان البحارة الغرناطيون يقومون بأعمال المباغثة بسفنهم السريعة من حيث لم

يكن يُتَوَقَّع وجودهم. كانوا فى كل مكان، كانوا ينزلون على سواحل وطنهم القديم ويأخذون معهم أحياناً قرى بكاملها، كانوا يعبرون المضيق، ساخرين من رقابنا الأسطول البرتغالى، كانوا يختبئون فى أى مرفأ أو ملجأ بين الصخور وعندما تعتقد سفينة ساذجة أنها بمأمن، بلا أعداء مرئيين، تقوم السفينة التطوانية بالهجوم، وتلحق بغنيمتها. كانوا يختبئون على مسافة أقل من ١٥ كم من أصيلة، فى نهر تهدارت Taga-darte وهناك يترصدون حتى الذين كانوا يخرجون للصيد^(١٦).

لم ينج شىء ولا أحد من أذى أولئك " المجاهدين " من قراصنة البحر الذين أسهموا بدرجة كبيرة فى إثراء المدينة التى كانوا قد أسسوها. لأنه لا يجب إغفال المظهر الاقتصادى للحرب التى وقعت فى هذه الجبهة البحرية. يجب علينا أن نُقدِّر الثروات التى ولّدتها القرصنة، كأحد العوامل الرئيسية التى أدت إلى ظهور نخبة قديرة من المواطنين والتى سوف تشكل نواة العائلات الأساسية للمدينة.

لم يتخلَّ الأشخاص الأكثر قرباً مباشرة من المنظرى عن الاستفادة من الأنشطة الخاصة بسفنهم، أثناء حياة القائد الغرناطى، خاصة زوجته ست الحرة وشقيق زوجته مولاي إبراهيم. هذا الأخير كاتبت له مصالحة الشخصية والخاصة على قدر ترقيته فى سلطة مملكة فاس.

أحياناً كانت تُطرح اتفاقات هدنة إلا أنها كانت تستغرق وقتاً قصيراً، مثل الهدنة التى عرضها ملك بيليث Vélez، بوَحَسُون Bu Hassun، على الملك البرتغالى خوان الثالث Juan III فى الثانى والعشرين من أبريل من عام ١٥٣٢ بتأمين الإبحار واتفاقية تجارية كانت تتضمن سفن تطوان وقرعة والعرائش " بمقتضى الاتفاق المبرم بينهم وبينى فى أمر التأمينات ". هذا الضمير "هم" يشير إلى عائلة المنظرى التى كانت تسيطر على الثلاثة شواطئ المذكورة^(١٧).

يحدث عكس ذلك فى الاجتماعات التمهيدية لمعاهدة سلام واتفاقات هدنة أبرمت بين مملكة البرتغال ومملكة فاس فى يونيو من عام ١٥٣٨، حيث يُعرب حُكَّام المواقع الإفريقية القوية للملك عن تشككهم بالنسبة إلى النقطة المحددة الخاصة بالحرب فى البحر.

فى التاسع من أغسطس من عام ١٥٣٧ يكتب قائد أصيلة إلى خوان الثالث يخبره أن مولاي إبراهيم سوف يغضب لتوقيع معاهدة سلام مع البرتغال لأنه " سوف يفقد تجارة سفته".

بعد ذلك بقليل وبالتحديد فى الثالث عشر من سبتمبر نجد أن قائد أصيلة هو نفسه الذى يقول إن مولاي إبراهيم كان يريد إخراج تطوان والعرائش من اتفاقات هدنة السلام^(١٨).

لقد كان قدر المنظرى فيما يبدو هو أن يبقى على قيد الحياة من أجل الأصدقاء والأعداء؛ إن شقيق زوجته الشاب الذى كان قد نضج تحول إلى رجل حرب ورجل دولة، وتوفى فى عام ١٥٣٩ تاركاً إرثاً من الصعب حصره، وأخاً غير شقيق ثورى هو محمد بن راشد، بن راشد آخر، على رأس الشاون والجبل، بجانب ترغة؛ وأخت هى ست الحرة، على رأس تطوان وسفنها، زوجة لرجل عاجز وعلى وشك أن يموت، وأخيراً والأسوأ، مملكة مترنحة هى فاس، على وشك أن تغير أسرتها الحاكمة.

سوق العبيد بتطوان:

كانت إحدى التوجيهات السياسية لفيرناندو الكاثوليكي، عند استسلام مملكة غرناطة، هو قطع رأس المدينة المهزومة، أى العمل على أن يسلك القادة طريق المنفى. هذا التأكيد الذى يبدو مثيراً للجدل نراه بوضوح فى مراسلات سكرتيه ثافرا Zafra، خاصة السنتين الأوليين بعد الاستسلام النهائى وبعد أن رحل أبو عبد الله، عندما كان باستطاعة فيرناندو دى ثافرا أن يؤدى المطلوب لسيدته بأن يكون باستطاعة أصغر شخص فى المملكة أن يطردهم بهراوة.

لكن هذه الرغبة من جانب العاهل الكاثوليكي كان يُرد عليها من جانب الإسباني المسلم، برغبة لا تزال أكبر فى الذهاب إلى أراضى الإسلام، فراراً من الإهانات والاحتكاك بالمنتصر.

بعد أن انقضت المدة الخاصة بالصعود المجاني على السفن، صدر الأمر بأن "جميعهم وأى مسلمين يريدون العبور للجانب الآخر... يتعين عليهم العبور من ميناء المونييكار Almuñecar... الذين كانوا من أهل المدينة المذكورة ومقيمين بها، غرناطة، أو أرضها والبشرات... يتوجب عليهم دفع -وبلا (مسكوكة من الذهب) عن كل شخص بالإضافة إلى عُشر كل الأشياء التي يحملونها ويعبرون بها...".

كان يتعين على الذين لم يكونوا من المملكة دفع ثلاث دويلات عن كل شخص، إضافة إلى العُشر، باستثناء « الملابس التي يرتدونها والسرير الذي ينامون عليه... » (١٧).

سوف توضّح لنا المصادر الإسلامية مظاهر عديدة للمشكلة الاقتصادية التي ندرسها. يقول أحد هذه المصادر:

"بدأ الذين قرروا السفر في بيع ممتلكاتهم وعقاراتهم وديارهم. كان الأمر كذلك حتى أن أحدهم كان يبيع بستانه وأرضاً للفلاحة ومنزلاً بحديقة أو أرضاً زراعية بسعر أقل من قيمة الثمار، وكان المشترون إما المسلمين الذين كانوا قد اختاروا البقاء أو المسيحيين أنفسهم. بطريقة مشابهة كانوا يتخلون عن الحلى والأمتعة".

"في ذلك الحين (رحيل أبى عبد الله) لم يكن المسيحيون يسمحون بعبور أى مسلم إلى الضفة الأخرى إلا بعد الدفع المسبق لقيمة السفر. ذلك كان يحدث في الحالات التي كانت تُضاف فيها ضرائب باهظة إلى تحصيل العُشر".

وفيما بعد: « وجد الأندلوثيون أنفسهم غير قادرين على العبور إلى إفريقيا، حيث أنه بأمر من الملك، كان يتعين على المسلمين الذين كانوا يرغبون في عبور البحر أن يدفعوا للمسيحيين الذين يقومون بنقلهم قيمة السفر كاملة، وهو ما كان يُعد أمراً مستحيلاً بالنسبة للمسلمين نظراً لفقرهم الشديد والضرائب الباهظة التي كانوا مجبرين على دفعها » (١٨).

إن الاعتقاد بأن الغرناطيين نزلوا على الشواطئ المغربية وهم يحملون معهم ثرواتهم لهو جهل بالخصائص التي تطورت فيها الأحداث الأخيرة في مملكة بني نصر. صحيح أن الأفواج الأولى من المهاجرين كانت تشكلها الطبقات القيادية وما يمكن أن نصفها بالطبقة الغنية وأنه في مناسبات كثيرة كان المحاربون يحصلون على اتفاق مفيد عند استسلامهم يسمح لهم بالعبور إلى هناك حتى بأسلحتهم وخيولهم ماداموا لا يحملون طلقات من البارود، إلا أن ذلك كان أمراً قليل الحدوث داخل تيار المهاجرين الذين سيكون لديهم فقط ما هو ضروري، كما يُقال عادة.

إجابة جيدة عن التساؤل الذي طرحناه للتو يقدمها الحدث الذي قصصناه آنفاً من اضطرار صاحب الأوقاف المغربي إلى إقراض مبلغ الأربعين ألف مثقال التي كان يحتاجها المنظرى ورجاله لشراء الأراضي التي كان يُراد إعادة بناء المدينة فيها.

إن الغرناطيين الذين أسسوا المدينة والذين وصلوا فيما بعد وعمروها لم يكونوا أثرياء حينما وطأت أقدامهم الأرض الإفريقية. لقد اضطروا إلى أن يكونوا ثروة ببساطة من أجل البقاء على قيد الحياة.

لم يكونوا مزارعين، ربما كان هناك من بينهم أصحاب كل المهن لكن لم يكن بينهم فلاحون(*) بالتالي كانوا يعتمدون في معاشهم الحالي على منتجات الحقل التي كانت تمدهم بها المناطق الجبلية المحيطة بهم، والتي لم تكن تعطيهم بالطبع إلا عن طريق منتجات أخرى بديلة تجذب انتباههم أو تكون ضرورية لهم؛ مثل الأقمشة والأسلحة والأدوات المنزلية والملابس وأخيراً يتعلمون، إن لم يكونوا يعرفون، كيف يستخدمون الأداة الأساسية للتبادل وهي النقود.

بعد أن نفدت الاحتياطات الأولية، على فرض أنها وُجدت، تعين على المبعدين أن يكرسوا أنفسهم لاستغلال كل منابع الثروة التي كانت في متناولهم. الذين كانوا

(*) لا يتفق ميكيل دي إيبالثا مع هذا الرأي، ويرصد أن الموريسكيين أسهموا في تطور الزراعة المغربية. انظر كتابه (الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى). (المراجع)

يعرفون إحدى المهن شرعوا في مزاولتها والذين لم يجدوا بدائل أخرى كرسوا أنفسهم للحرب، في البر أو في البحر. المحاربون بالغنيمة المنتزعة من العدو أو الذين يقومون بحماية القرى ضد الغزوات المعادية كان لديهم ما يكفي ليستطيعوا العيش، لكن على وجه خاص، هو والبحار على حد سواء لم يكونا يعتمدان على الصيد أو الغنيمة المحبوسة، بقدر اعتمادهما على الأسرى المقبوض عليهم أثناء المعركة والذين كانوا هدفًا لفدية، كانت تتزايد قيمتها بقدر ما كانت أهمية الشخصية المأسورة أكبر. إنها كانت تجارة العبيد.

كانت تجارة مهمة لدرجة أن هذا السعى للمكاسب والثراء كان في الحقيقة هو السبب الأساسي لازدهار القرصنة التطوانية وربما للنمو غير المألوف لمدينة المرتيل التي لم تكن في حد ذاتها تولد ثروة من أجل إعالة عدد كبير من الناس مثل الذي كان يصل إليها.

إن ذلك لم يكن يعني أنه في كثير من الحالات لم يكن السعى من أجل الثأر هو دافع الكثيرين ممن انكبوا على مهاجمة السواحل التي كانوا قد عاشوا فيها، أو باعوا أحيانًا جيرانهم في الزمن القديم كعبيد. كان هناك من كل شيء في ذلك العالم المعقد المتنازع الذي وجد مع سقوط آخر مملكة مسلمة إسبانية.

ينبغي علينا أن نضع أيضًا في الحسبان عند طرح الأسباب أن حركة المرور التجارية البحرية والقرصنة أو الإمساك بأشخاص وأشياء في البحر أو في السواحل، لم يكن من اختراع الغرناطيين ولا حتى نَعِموا بشكل مسبق من ظهور الظاهرة في السواحل المغربية الشمالية، لقد رأينا في السابق قائد الشاؤون يملك أسطولاً وقاعدة بحرية لقلعته. كي لا نرجع سنوات قليلة جداً للوراء، عندما كان المسيحيون الأندلوثيون يهاجمون السواحل المغربية بحثًا عن غنيمة وعبيد كما يحكى لنا فيرناندو دي ثافرا نفسه عن شقيقه.

نستطيع أن نستنتج من تطور الأحداث، أن القرصنة التطوانية نهضت من جديد مع وصول رجال المنظرى الغرناطيين، وأن أسطول بن راشد الصغير زاد بسرعة جداً،

عندما انكب محاربون وأشخاص آخرون على إعداد سفن صغيرة كانوا يخصصونها للنشاط القرصاني. كان عليها طاقم غرناطي بالطبع. لم تنعم القرصنة التطوانية بمساندة ابن البلد الذي لم تكن لديه نفس الدوافع للتجروء على ركوب السفن، بل كان لديه ميل مسبق خاص معارض للإبحار^(٢١).

كان لدى على المنظرى وعلى بن راشد سفن مخصصة للحرب فى البحر، دون أن يقودوا تلك السفن.

كان لـديهما ما فيه الكفاية بإدارة تطور المعارك البرية، حيث كان يتم الحصول فيها على سجناء كانوا يظلون أسرى حتى افتدائهم.

قال ذلك ليون الإفريقى الذى كان قد مرّ بتطوان ورأى ثلاثة آلاف أسير مسيحى، وعلى الرغم من أن الرقم بدا لنا دائماً مبالغاً فيه نوعاً ما، فإنه لا توجد حجج، فى الوقت الحالى، يمكن أن تناقضه. ولا حتى الحجة بأنه فى الحالة الراهنة لسجون تطوان لا يوجد متسع لهذا الرقم، حيث توجد دهاليز كثيرة لم تكتشف بعد.

لقد تحولت تطوان إلى واحدٍ من أسواق العبيد الأكثر شهرة فى عالم البحر المتوسط. لأن العبيد، قبل افتدائهم الممكن كانوا يعانون مصير أية بضاعة. كان أسروهم يأخذونهم إلى السوق وهناك كان يشتريهم الذين كانوا يأملون فى الحصول على بعض المكسب من افتدائهم المستقبلى. فى غضون ذلك، كانوا يكرسونهم لأعمال خدمية أو بدنية كانوا يقومون بها نهاراً بينما يُحبسون فى الليل فى صوامع تحت الأرض. كقاعدة عامة، لم يكن لدى الأغنياء أو أصحاب النفوذ فى المدينة حصّة فى أى غنيمة مجبوسة فحسب، بل كان لهم حصّة من أجل سفنهم الخاصة، لأنهم علاوة على ذلك كانوا يشترون فى السوق أغلبية العبيد من أسيادهم، الذين كانوا يفضلون فى أحيان كثيرة التخلص من مجموعات كاملة بدلاً من بيعهم بشكل منفصل فرداً فرداً. ومن هنا فإنه فى لحظة دفع القدية فإن الجزء الأكبر من المال ينتهى به المطاف فى أيدي الأقلية فى السلطة المحلية.

بالمال أو بالبضائع، كانوا يقبلون كلتا الوسيلتين في مقابل الإفراج عن الشخص المأسور.

على الجانب المسيحي كان يتم جمع الصدقات أو الهبات نقداً أو بضائع، وكان يذهب بها رجل دين ليتفاوض على الفدية مع السلطات المسلمة.

أحياناً كان أصحاب المقامات الرفيعة يتفاهمون فيما بينهم، كما في الحالة التي أعرضها تباعاً، لأنها تتعلق بأشخاص معروفين لنا جيداً، مثل الملكة الكاثوليكية وسيدي على بن راشد.

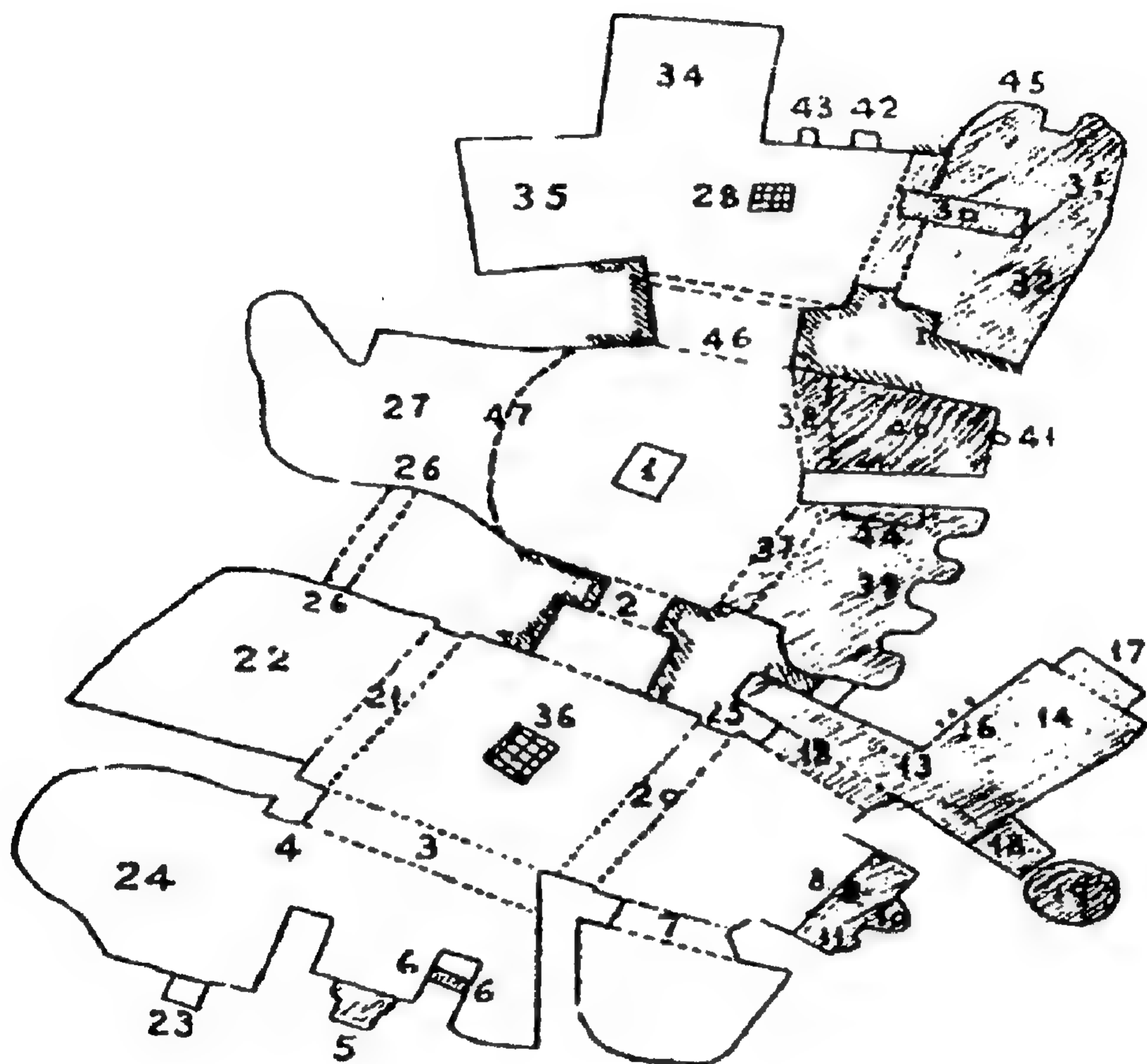
تكلف السيدة إيسابيل ثافرا بتحرير مائة أسير عند بن راشد ويرد عليها السكرتير:

« عقدت اتفاقاً مع خادم بن راشد حول موضوع المائة أسير الذي طلبتم سموكم منى التباحث بشأنه، والذي أرسله موقعاً ومختوماً من قبل كتاب الدولة والمُدرج هنا، وكما تشائين فإنه بذلك المبلغ يردون الأسير بخمسة عشر ألف عملة مرابطية بدون أية تكلفة، وفي البضاعة التي يتعين على أن أعطيها له سوف يربحون ألفي عملة مرابطية عن الأسير الواحد، لأنه يتوجب على أن أعطيها له بسعر جبل طارق، وبالسعر الذي يُضاف هناك وإذا استطعنا إقناع من يتسلمه فمن الممكن تعديل هذا المبلغ.

سيدتي صاحبة المقام الرفيع، أرجو أن تصدروا أوامركم في هذا الشأن حتى يمكنني خدمتكم» (٢٢).

إن رسالة ثافرا هذه والتي يرجع تاريخها تقريباً إلى عام ١٤٩٣، ليست فقط ذات دلالة بالنسبة إلى سعر العبيد ومهارة السكرتير الملكي، بل للمعرفة التي كانت موجودة في القصر القشتالي بقائد الشاون وعلاقات القصر به مما يعنى في نفس الوقت، علاقة ومعرفة بالقائد التطواني وثيق الصلة بآبن راشد.

PLANTA de las MAZMORRAS de TETUAN



Escala de 1:100

زنائین سجن تطوان

إن السفن القرصانية الغرناطية تصير فى كل مرة أكثر جرأة ولا تكتفى بشق مياه البحر المتوسط، بل إنها، حسيما رأينا سابقاً، تعبر المضيق وتكتسح كذلك الساحل الأطلنطى، حيث لها مأوى فى مصب نهر لوكوس Lucus، فى العرائش.

إن السفينة التى تقع فى أيديهم والأسرى الذين يأسرونهم، يأخذونهم إلى تطوان، من يقع أسيراً خلال المعارك مع البرتغاليين، يقودوه إلى تطوان. سكان القرى الساحلية المباغتون أحياناً أثناء نومهم بهجمات موريسكية ينتهى بهم المطاف إلى سوق العبيد فى تطوان. يوجد أيضاً أسرى فى الشاون يكرسهم بن راشد على وجه الخصوص لأعمال البناء، مثلما كانت القلعة ذاتها، عملا برتغاليا لاشك، إلا أن سوق البيع والشراء، حيث يجرى المال والبضائع التى يحملها رجال الدين من أجل الفدية، هو تطوان .

فى حياة المنظرى لا يزال يلاحظ نشاط بحرى متزايد للأتراك فى هذا الطرف الغربى من البحر المتوسط. إن أساطيلهم الصغيرة تتحد مع سفن الموريسكيين فى بعض الأحيان مسببة خسائر أليمة للمسيحيين.

فى ١٣ من سبتمبر من عام ١٥٤٠ يكتب حاكم سبتة إلى الملك البرتغالى خوان الثالث يخبره بأنه لمح أسطولا للأتراك فى المضيق، الذين هاجموا جبل طارق وأخذوا ثمانين أسيراً. كان ضمن الأسطول أربع أو خمس سفن من تطوان وقد أنزلوا الغنائم فى هذه المدينة لبيعها.

فى ١٢ من أغسطس من عام ١٥٤١ أخبرت نفس هذه السلطة خوان الثالث بأن سفينتين تابعتين للأتراك هاجمتا سفينة وأسرتا ١٦ شخصاً وحملتا هم إلى تطوان، " muita homrrae guasalhado homde lhes Cittifora fez " وقد ظن القائد السبتي أنهم ليسوا أتراكاً بل مسلمين من ترعة أو تطوان.

إنَّ ذلك لا يأتى بشيء جديد، لأن ست الحرية بعد أن مات المنظرى وأصبح زمام السلطة التطوانية عملياً فى يدها ، كانت تفعل ما تريد، خاصة بعد أن صارت زوجة ملك فاس الذى لم يكن يرفض لها شيئاً، حسبما يكتب مصدر برتغالى، بارغاس، لقائد سبقة المذكور، ألونسو دى نورونا، فى ٣٠ من أغسطس من عام ١٥٤١ .

فى الأول من ديسمبر من عام ١٥٤١ يشكو بارغاس نفسه إلى الملك خوان الثالث لأنه عندما يرسل له خطاباته من تطوان، تقوم ست الحرية بفتحها للاطلاع على محتواها (٢٣).

إن زوجة سيدى على المنظرى شخصية غريبة.

نعرف وثائق مهمة جداً بالنسبة إلينا ومتعلقة بافتداء أسرى فى تطوان. تطلعنا من ناحية على الآليات الروتينية للافتداء، ومن ناحية أخرى تمدنا بأخبار عن المنظرى الذى كان لا يزال حياً غير أنه مُسن بما فيه الكفاية ليحل محله فى سلطة المدينة صهره مولاي إبراهيم فى عام ١٥٢٣ .

فى هذه التواريخ كانت قد اختفت شخصيات رئيسية، سواء المنتمية إلى حرب الاسترداد المسيحية، (الملك الكاثوليكيان أو تينديا)، أو المنتمية إلى المعسكر الإسلامى (سيدى على بن راشد). لاشك أن القائد التطوانى - الذى كان يمثل غرناطة الإسلامية - أصبح مسناً جداً كما سوف نرى لاحقاً. ربما كان هناك شخص آخر منهم على قيد الحياة يُدعى أبو على، وهو نفس الشخص الذى يظهر فى وثيقة مؤرخة فى عام ١٥٠٨ لإبراهيم سرجيل Abrahén Zerchel، كوكيل عن مصالح المنظرى وابن راشد وأبى على نفسه.

كان لا يزال أيضاً على قيد الحياة كل من على فيرناندو والمرتد مرتيل فرنانديث، صهر بن راشد وبالتالى خال مولاي إبراهيم وست الحرية، الأسياد الحقيقيون للمدينة.

الوثيقتان المؤرخة إحداهما فى سبتمبر والأخرى فى أكتوبر من العام المذكور ١٥٢٣، هما عبارة عن شهادات وحكايات متعلقة بافتداء ٢٥ أسيراً مسيحياً من ناحية و ٤٠ أسيراً من ناحية أخرى، وتُبرزان الصدقة التى وهبها السيد ألونسو دى بيمنتيل كونت بينابينتى من أجل هذا الغرض. إنَّ قيمتها، بحسب العملة المرابطية، يوضع تقريباً فى يدى خوان أورتيث دى كُوَيَّار Juan Ortiz de Cuéllar .

يقدم خوان أورتيث وثائق من أجل تبرير النفقات أمام سيده كونت بينابينتى. تبين شهادة أعضاء رهبانية الثالوث الحاضرين فى تطوان أن أورتيث دى كويار حرر من الأسر فى تلك المدينة الأشخاص الذين يذكرونهم واحداً واحداً. شهادة قائد وحاكم موقع سبته، بأنه رأى العبيد حاضرين ومساافرين بحراً إلى إشبيلية.

شهادة المفتدين أنفسهم واحداً واحداً بأسمائهم والأماكن التى قدموا منها، إضافة إلى المكان الذى اختطفوهم فيه والمبلغ المدفوع لتحريرهم . شهادة قائد السفينة التى تنقلهم.

الشهادات معتمدة من قبل الكتاب العموميين فى سبته وإشبيلية.

إن الأماكن التى جاء منها الأسرى متنوعة جداً. علاوة على ذلك هناك أسير من جنوة وثلاثة برتغاليين.

الجزء الأكبر يشكله اثنا عشر أسيراً من طنجة وستة من سبته، تم أسرهم عن طريق القبض عليهم خلال حرب المباغطات والكمائن المستمرة التى كانت تُنفذ ضد القلاع البرتغالية فى المغرب.

هؤلاء الأسرى الثمانية عشر من سكان الحدود، مع اثنين من القصر الصغير وعشرين آخرين من السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة، يشكلون أكثر من نسبة ٦٠٪ من المجموع الكلى.

رجل يدعى خوان راميريس ظل فى حوزة سيده، أبو على فى تطوان، ليس أقل من ٢٣ عاماً، وهو ما يجعل أبا على، كما كنا نعتقد، واحداً من أوائل المهاجرين الغرناطيين.

يتم تحرير زوجين وابنهما وحماته.

هناك طفل يبلغ من العمر عشر سنوات ولا يطلب منه أداء اليمين، إلا أن شاهدين يقران أنهما رأيا الصبى فى تطوان بحلقة فى قدمه. لا نعلم إذا كانت هذه الأداة أمراً شائعاً مع كل العبيد أو كانت تعلق فقط لمن كانوا يسيرون طلقاء، لنعمهم من الهروب. يؤكد ليون الإفريقى أن العبيد المسيحيين كانوا ينامون فى الليل مكبلين بالسلاسل فى قاع حفر تحت الأرض^(٢٤).

إن غالبية المحررين كانوا فى تطوان؛ كان هناك أربعة قادمون من الشاون؛ وأربعة آخرين من قرغة، فى حوزة شيخ تلك المدينة التى كما نعرف، كانت تحت سيطرة سيدي على بن راشد، إلا أن فى هذا الوقت كانت تحت سيطرة خليفته مولاي إبراهيم؛ كان هناك اثنان آخران قادمان من بيليث دى لا غوميرا، تابعان لملك بيليث.

إن سادة العبيد متنوعون، على الرغم من أن الجزء الأكبر من العبيد يتركز فى أيد قليلة. كان حائز الأغلبية هو مولاي إبراهيم يليه المنظرى وأبو على. هؤلاء الأشخاص الثلاثة يحتكرون فيما بينهم أكثر من ٥٨٪ من العدد الكلى.

يدرك بوضوح شخصية من كانت له السلطة الاقتصادية التى كانت فى نهاية الأمر انعكاساً للسلطة السياسية.

سوف يكون للمنظرى سلطة محدودة جداً فى الواقع بسبب سنه وعدم قدرته الجسمانية ونفوذ زوجته الأصغر سناً، ست الحرة، المستندة إلى التأثير الهائل لأخيها مولاي إبراهيم. هو ليس فقط سيد الشاون وإقليمها، بل مفضلاً عند السلطان وحائزاً لسلطات واسعة فى كل المملكة.

من الخمسة والستين عبداً الذين حررهم أورتيث دي كويار، يعترف عشرون بأنهم كانوا فى حوزة مولاي إبراهيم وكان اثنا عشر فى حوزة المنظرى أو أبو على وأربعة فى حوزة شيخ ترغة وأربعة فى حوزة الحاجب زيد وأربعة آخرون فى حوزة رجل يدعى مفضل وهو تاجر ثرى آخر محتمل.

على فيرناندو لديه كذلك ثلاثة عبيد، عبد من طنجة قام بافتدائه سيد من أهل الجبل، عبد من أليكانتى يقر بأنه كان فى حوزة سيدي عيسى بالومار، الذى يوحى لنا اسمه بالبرجوازىة الجديدة التى نمت بجانب البرجوازىة القديمة، والتى تتميز من بين أشياء أخرى بهذه الأسماء المناسبة والتى اتخذوها عندما كانوا مجبرين على التعميد فى شبه الجزيرة الأيبيرية. إن ذلك يعنى أيضاً الوصول المستمر للمهاجرين إلى مدينة تطوان.

ظل سوق العبيد التطوانى يعمل بشكل دائم طيلة قرون. كان يعانى مثل كل الأسواق من ارتفاعات وانخفاضات، وكذلك من نقص وزيادة البضائع به. بعد العصر الذى تبحته بقليل، أى بعد المنظرى، كان لهذا السوق علاقات كثيفة جدا مع سوق الجزائر ولو أن تلك العلاقة مع سوق الجزائر كانت موجودة دائماً لكن بدرجة أقل.

أسرع أهالى الأسرى الذين أخذوا إلى تطوان بجمع مال الفدية قبل أن يأخذوهم إلى الجزائر، حيث كان تحريرهم من هناك أصعب. لأنه من المحتمل كذلك أنه من هناك كان الأسرى يؤخذون إلى الأسواق الشرقية.

بينت لنا هذه الوثائق التى شرحناها المظهر الاقتصادى، الذى يأتى على رأس المظاهر الأخرى، الذى كان لسوق عبيد تطوان^(٢٥).

إنه اقتصاد نبع من الحاجة وزاد بمرور أناس أكثر وأكثر من ضفة إلى أخرى.

إن القادة الغرناطيين الذين تعودوا على العيش من أرباح عمليات الأسر لم يجدوا بديلاً آخر عنها سوى إحياء نظام عبودية فى متناول إمكانياتهم، وهذه الأرباح كانت تقريباً تقتصر على الحرب البرية والمعارك فى البحر.

لقد تعود المسيحيون الأندالوثيون بشكل كاف على هذا المكسب السهل، ولكن به
مخاطرة، من الغارة والقرصنة، الآن يأتي دورهم في أن يتحملوا ذلك وأن يزاو له
غرناطيو الشمال المغربي، كمورد للحياة.

الهوامش

- DAMIAO DE GOIS: Chronica d, El Rei D. Manuel. Coimbra MDCCLXXXX. 1-39. (١)
- RODRIGUES: Anais... 1-14-32-39-80-81. (٢)
- RODRIGUES: Anais... 1-205. (٣)
- RODRIGUES: Anais... 1-203 (٤)
- RODRIGUES: Anais... 1-56 y s. (٥)
- RODRIGUES: Anais... 1-166 y s. 184-193. (٦)
- AZURARA: Chronica do Conde D. Pedro... p?g. 274. (٧)
- Ibid, pof. 810 (٨)
- AZURARA: id. Id. Id. P?gs. 345, 348, 351, 4v3 y s. 555. (٩)
- Ruy le Pina : Chronica del Rey dom Voham II, Coimbra 1950, pas. 106. (١٠)
- GOIS: II- 80. (١١)
- GOIS: III-16. (١٢)
- RODRIGUES: Anais... 1-90. (١٣)
- Id.: Anais.... 1-90 (١٤)
- Id.: Anais.... 1-220. (١٥)
- Id.: Anais.... 1-253. (١٦)
- Sources Inedites de L'Histoire du Maroc (S.I.H.M.), Portugal, 1-2. (١٧)
- S.I.H.M. Port. 1-3. (١٨)
- C.O.D.O.I.N.X.I-59. (١٩)
- "Fragmento de la época sobre noticias de los Reyes nazaritas"... Presentado (٢٠)
por BUSTANI y QUIROS. Larache 1940. P?gs. 50-51 y 56.

- BRUNOT, L: La mer dans les Traditions et les industries indigènes de Rabat (٢١)
 Sale. Paris 1921. p. 241.
- C.O.D.O. I.N. L1-63. (٢٢)
- S.I.H.M. Port. 1-3. (٢٣)
- L'AFRICAIN.1-268 (٢٤)
- Archivo Histórico Nacional. Osuna. Leg. 422-9. (٢٥)

الفصل الخامس

حكم النظرى

التسلط العسكرى لحكمه

لا نعتقد أن إدارة الشئون التى خنقت المجتمع الغرناطى الصغير فى الفترات الأولى لنفاه كانت أمراً سهلاً.

كان ضدهم سكان البلد الأصليون أنفسهم، سكان جبل جباله الذين كانوا يبدون قليلى الشبه جداً لأولئك الرجال، الأفضل هداماً والأفضل تسليحاً والذين كانت أخلاقهم المدنية مختلفة جداً عن الفظاظة الريفية. علاوة على ذلك فسوف يتعين عليهم أن يختلفوا كثيراً أو قليلاً فى مظاهر دينية ولغوية متعددة.

هناك عنصر معاد آخر كانت تكونه الحاميات فى "الثغور" البرتغالية، التى تعودت على أن تجول فى الأرض وخاصة حامية سبتة التى دمرت تطوان فى عام ١٤٣٧ ..

هل كان المنظرى يعتمد مسبقاً على مساندة بن راشد قبل نزوله على الشواطئ التطوانية ؟ هل حصل على هذا الدعم فى الحال؟ هناك مؤرخ مغربى يؤكد أن المنظرى كان فى البداية يعمل فى خدمة شريف الشاون وأن هذا الشريف كان هو الذى عهد إليه بقيادة مجموعة من المهاجرين.

إن تاريخ الأيام الأخيرة لبينيبار وظهور المنظرى فى أراض إفريقية، لا يسمح بالتفكير فى نظرية أخرى سوى نظرية رحيل القائد الغرناطى فى عام ١٤٨٥ أو قبل ذلك بشهور قليلة وإعادة بناء تطوان بدءاً من ذلك التاريخ.

إن ما نستطيع أن نؤكدده هو أنه بدون مساندة بن راشد لما استطاع الغرناطى أن يثبت أقدامه فى وادى المرتيل، من الناحية العملية فإن المنظرى وبين راشد حارباً جنباً إلى جنب ضد كل قلعة من القلاع البرتغالية التى كانت تخنق شمال المغرب.

عندما وصل الغرناطيون إلى هناك يتصدرهم المنظرى، كان سيدى على بن راشد هو سيد كل منطقة المعين الشمالى المغربى، وهو الوحيد الذى كان يتصدى بشكل مستمر للمحاربين البرتغاليين، وبالإضافة إلى ذلك كان هو الوحيد أيضاً الذى يتصدى للسلطة المركزية المرينية أو الوطاسية، بشكل عجيب ومعه عدد كبير من الغرناطيين البعدين قبل وصول المنظرى. لنتذكر أن الشاون هى أيضاً مدينه ذات عمق أندلسى لا شك فيه.

لما كانت احتياجاته الأولى حربية، فإننا نفترض أولية عسكرية فى حكم تلك المجموعة التى تكونت حديثاً. هل كان هذا واحداً من العيوب الخطيرة فى إدارة شئون تطوان أم على العكس سمحت بتطوره الطبيعى؟

أخبرنا ليون الإفريقى أن المنظرى كان معه بشكل دائم ثلاثمائة فارس، كلهم غرناطيون وزهرة فرسان غرناطة. من الواضح أن أولئك الفرسان الذين كانوا يشكلون مصدراً حقيقياً لسلطة القائد الغرناطى لم تكن لديهم مهمة أخرى سوى المهمة الحربية. لقد كانوا يشكلون - مع عائلاتهم - الأغلبية الساحقة من عدد سكان المدينة فى البداية، ولكن عندما أخذت هذه المدينة تنمو من حيث عدد السكان من البديهى أنهم ظلوا كطائفة مهيمنة وربما مزعجة فى لحظات كثيرة.

لا نعلم إذا ما حدثت احتكاكات أو ثورات، إلا أن الشكوك فى وجود مصاعب تصبح أمراً بديهياً.

السلطة القصوى للقائد الغرناطى القديم لن تكون محل نقاش لوقت طويل وعندما يصل أو يستطيع أن يحصل عليها ستكون سلطته مبنية على كفاحه الدائم المتزايد ضد المسيحى الغازى للأراضى الإفريقية وبالأداة العسكرية المصنوعة لهذا الغرض.

لقد كسر زواجه من ابنة سيد الجبل، ست الحرّة، الحصار العدائى الذى ربما سببه زواجه الأول.

لم يواجه المنظرى طوال حياته، على حد علمنا، انتقاداً أو معارضة فى حكمه وفى زعامته العسكرية. إن إصابته بالعمى وشيخوخته الشديدة فقط هما اللتان أضعفتا

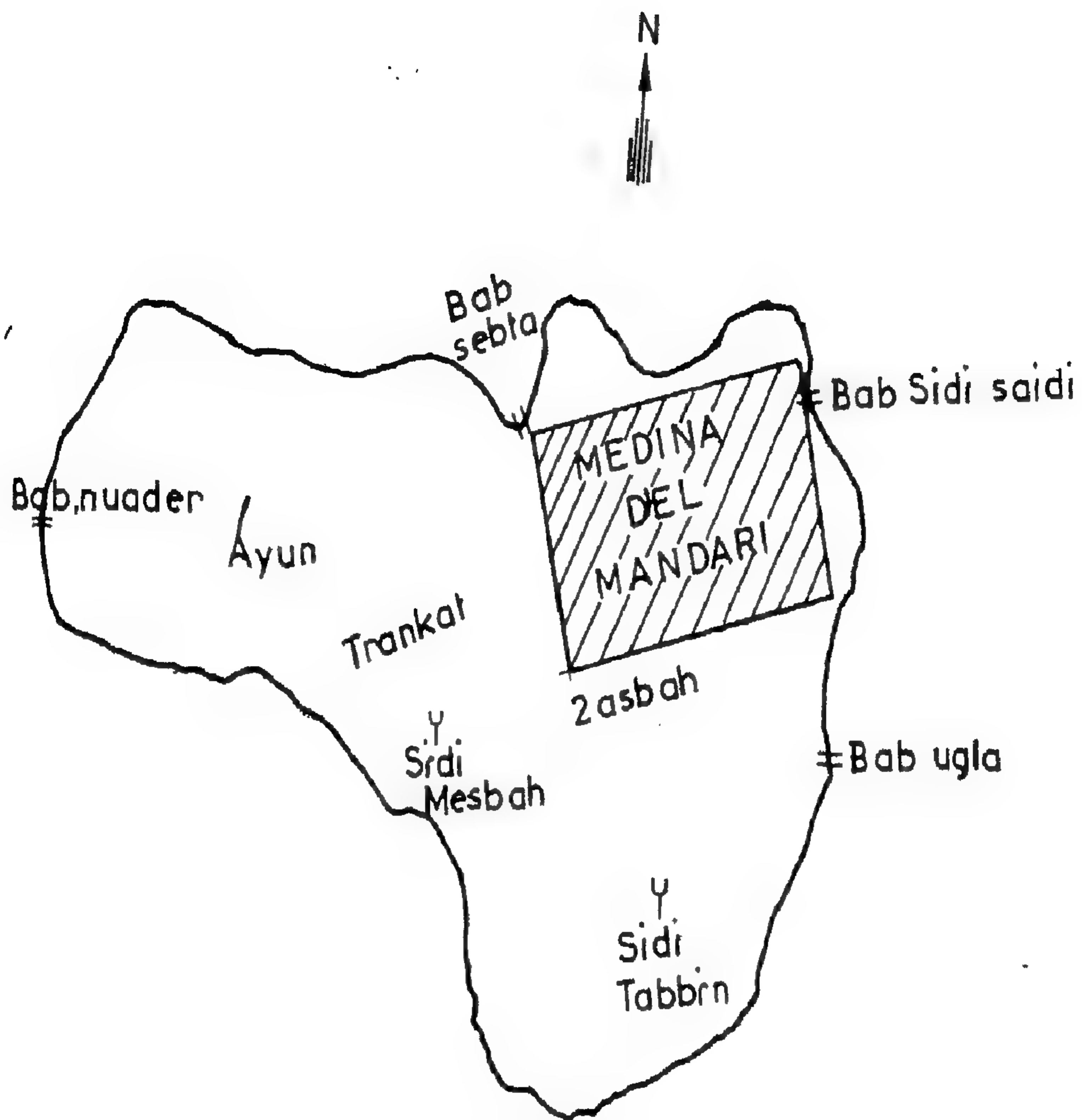
زمام قيادته التي استولت - ب. زوجته وشقيقها مولاى إبراهيم. لقد تعين أن يمر أكثر من عام منذ وفاته حتى نفذت ثورة وتآمر ضد ست الحرّة كنتيجة لبعض التذمر.

بيد أن التراكم المفرط للمبغدين الذي يشتد في فترات محددة، مثل ثورة البشرات الأولى وما تلاها من مرسوم التعميد أو الطرد في عام ١٥٠٢، سوف يشكل صعوبة متزايدة في حكم المدينة عندما تتزايد بشكل كبير المشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ومن كل نوع، بدءاً بالأنظمة الحضرية.

سوف تسمح لنا واقعة حربية في البحر بأن يكون لدينا تصور عن عدد سكان تطوان في عام ١٥١٦. غونثالوفات، قائد أصيلة، مسلم متنصر يخافه أهل البلد الأصليين بقدر ما يحبه البرتغاليون، وقع أسيراً عندما كان مسافراً في سفينة شراعية من طنجة إلى أصيلة. تم أسر السفينة عن طريق سفينتين مجهزتين بطواقم من غرناطين من تطوان، وهو المكان الذي حملوا إليه غنائمهم. هناك استقبلهم الشعب الذي كان يكره المرتد بفرح كبير.

" كان المنظرى سيد تطوان وقائدها أكبر أعداء المسيحيين في عصرنا هذا... وقد جمع أكثر من عشرين ألف شخص "(١).

بالتأكيد لن يكونوا كلهم من سكان تطوان، حيث سيحضر سكان كثيرون من المناطق المحيطة، لكن على أية حال وحتى لو افترضنا نسبة ٦٠٪ فقط من التطوانيين، فإنها تمثل كمية محترمة لأية مدينة في عصرها. نظن، بالإضافة إلى ذلك، أن عدد السكان كان يزداد على إيقاع عمليات هروب الموريسكيين من مملكة بنى نصر القديمة وأن غالبية هؤلاء المبعدين تركزوا في تطوان والشاون اللتين كان محيطاهما الحضرانيان يتسعان بشكل مستمر. لا يتطلب الأمر سوى إلقاء نظرة على خريطة المدينة التطوانية ومقارنة صِغَرِ حى بلاد Bilad البدائي بالأحياء الفسيحة الملحقة التي أنشئت بسبب تراكم اللاجئين.



Esquema de las medinas, primitiva y posterior morisca de Tetuán

رسم تخطيطي لتطوان القديمة وتطوان الموريسكية

بلاد عبارة عن مكان بدائي محاط بسور يتناول داود وصفه نقلا عن الفاسي: «كان قرية مربعة الشكل، تقع في أحد أركانها القصبة؛ كان لها ثلاثة أبواب. يبلغ عرض أسوارها سبعة أذرع. كانت القرية محاطة بسور أول وسور ثانٍ، ثم كان يحيط بالسور خنادق، وكان خندق القلعة يجعل القرية أكثر قوة. كانت تتحكم في القرية من الداخل رابية بنى عليها المنظرى قلعةً. انتهى بناؤها في عشرين سنة». سوف نعود بعد ذلك إلى هذه السطور التي تعطينا صيغة من الجانب المسلم عما كانوا سمعوه عن شكل تطوان البدائية التي شيدها المنظرى، لأنه من المدهش لدينا من الفريق المسيحي رؤية تتشابه وتكمل التقرير الذي قدمه الفاسي، فعلى الرغم من وجود قرن يفصل بين الروائتين فإن الفاسي، الذي يُعدّ اللاحق، هو صاحب التراث والمصادر المحلية، بينما الصيغة المسيحية تتمتع بقرب الزمن والأحداث. إن وجهة النظر الثانية تلك هي الخاصة بالقائد خوان غايقان، في كتابه "تقرير من ساحل ما وراء المضيق"، المكتوب على ما يبدو في عام ١٥٠٨، وله طبيعة جغرافية عسكرية حقيقية من أجل استخدام جيوش الملك الكاثوليكي.

يعرض القائد أخباراً كثيرة وبيانات إحصائية مدهشة عن عدد السكان وكل ما يمكن أن يقدم مساعدة للمحارب المقبل الذي يتحمس للهجوم على هذا «الساحل الموجود وراء المضيق»(*) ويتحدث عن موارد مائية، منها ما هي جيدة ومنها ما هي غير صالحة، وتحصينات وملاحظات استراتيجية أخرى، إلا أن أكثر ما يمكن أن يلفت انتباهنا هو أن تكون تطوان هي المكان الأوحـد – من بويونيس Bullones حتى ما بعد وهران – الذي تكتب فيه أسماء وألقاب محددة، كما سوف نرى تباعاً، في الفقرة التي نورد نسخة منها:

(*) هذا ما فعله سيرافين كالديرون في القرن التاسع عشر قبيل أو أثناء الحملة الإسبانية على المغرب، وذلك في كتابه "يوميات الضابط في المغرب"، (المراجع)

« هناك مسافة قدرها خمسة فراسخ من سبتة إلى تطوان حيث يوجد هناك(*) »
المنظري وهو إقليم أرض بن راشد. // تقع تطوان على مسافة فرسخ واحد
من البحر //
هناك نهر يجرى من تطوان حتى البحر ويمكن للقوارب والسفن الإشبيلية دخوله،
حتى مسافة نصف فرسخ من تطوان //
تطوان مكان تقطنه ثلاثمائة أسرة بالإضافة إلى أناس من الثغر المواجه لسبتة،
لديها قوة إغاثة قوامها أربعة آلاف رجل في يوم واحد // .
إن هذا المكان مغلق. به قلعة ذات قبوين، قبو من الداخل وآخر من الخارج
وجسر يمكن رفعه من المدينة إلى القلعة. إنه مكان نو مياه كثيرة //» (٢) .
إن كلمة allid يمكن أن تكون خطأ بسيطاً عندما أراد أن يضع ظرفاً للمكان
أو على العكس قد تعنى معرفة كبيرة بشخص "على" وأراد أن يسميه، إلا أنه على
الرغم من الشك الذي من الممكن أن يعترينا بصدد هذين الاحتمالين: "على" أو "هناك"،
فمن المؤكد أن غايتان، عندما يذكرهما ويكتب هذا التقرير في عام ١٥٠٨، فإنه يعرفهما
تماماً، وأكثر من ذلك، نجرؤ على تأكيد أنه لا يتكلم بناء على ما يسمعه، وأنه(**)
ربما كان واحداً من البيادق التي كان يحركها الملك فيرناندو الكاثوليكي لينجز
المشروع السري الشمال إفريقي الذي سوف نعرض له فيما بعد بشيء من الإسهاب.
نعرف على الأقل خطاباً غير منشور للكونت تينديا يذكر فيه القائد خوان غايتان،
متصلاً بخدام لعلّ باركسي أو سيدي على بن راشد، بتاريخ الثاني من نوفمبر من
عام ١٥٠٤ (٣).

(*) النص الأصلي يورد هنا كلمة allid، وسوف يشرحها المؤلف لاحقاً، فهي إما تحريف لاسم على Ali، وإما
ظرف مكان بمعنى "هناك". (المراجع)

(**) يتحدث عن "غايتان" بالتأكيد، (المراجع)



مسجد سيدى سعيدة عند باب سعيدة فى المدينة القديمة

السور الأول والثاني والخنادق المتتابعة تبدو متوافقة في رؤيتي كلا المصدرين،
المسيحي والمسلم.

لنتذكر، كذلك، مصدراً آخر، ذكر سابقاً ويمكننا اعتباره مصدراً مباشراً وموثوقاً
به، حيث إنه زار المدينة: ليون الإفريقي. إنه يتحدث عن قلعة متينة جداً، محاطة
بخنادق، ويتحدث عن خنادق أيضاً، في أسوار المدينة.

هناك إذن ثلاثة مصادر جديدة تتفق في وصف دفاعات تطوان .

إنَّ المنظرى محارب بالوظيفة والغرناطيون الذين كانوا يرافقونه "مجاهدون"
حقيقيون لن يظلوا هادئين في المدينة التي كانوا يعيدون بناءها، بل كانوا يُشيدون
دفاعات قوية ويحتمون وراء خنادق وأعمال أخرى شبيهة.

كانوا يعرفون العدو المسيحي وشجاعته وقوته الهجومية وبالإضافة إلى ذلك كانوا
يعيشون في بيئة عدائية. سوف يظل الغرناطيون يراجعون ويُحسّنون، دفاعاتهم، ليس
لمدة عشرين سنة، كما يقول الفاسي، بل بشكل دائم.

إنَّ داود لا يتناول فقط الرؤية التاريخية للفاسي، بل يوسعها:

بالنسبة إلى القلعة الواقعة في زاوية المدينة، يتعين أن تكون المكان المعروف اليوم
بجامع القصبة، الذي بناه المنظرى في داخل المدينة. لقد تحولت/ هذه القلعة/ إلى
مقر إقامته ومقر للحكومة ومركز لشؤون المدينة وضواحيها. إنَّ أبراج هذه القلعة لا
تزال موجودة.

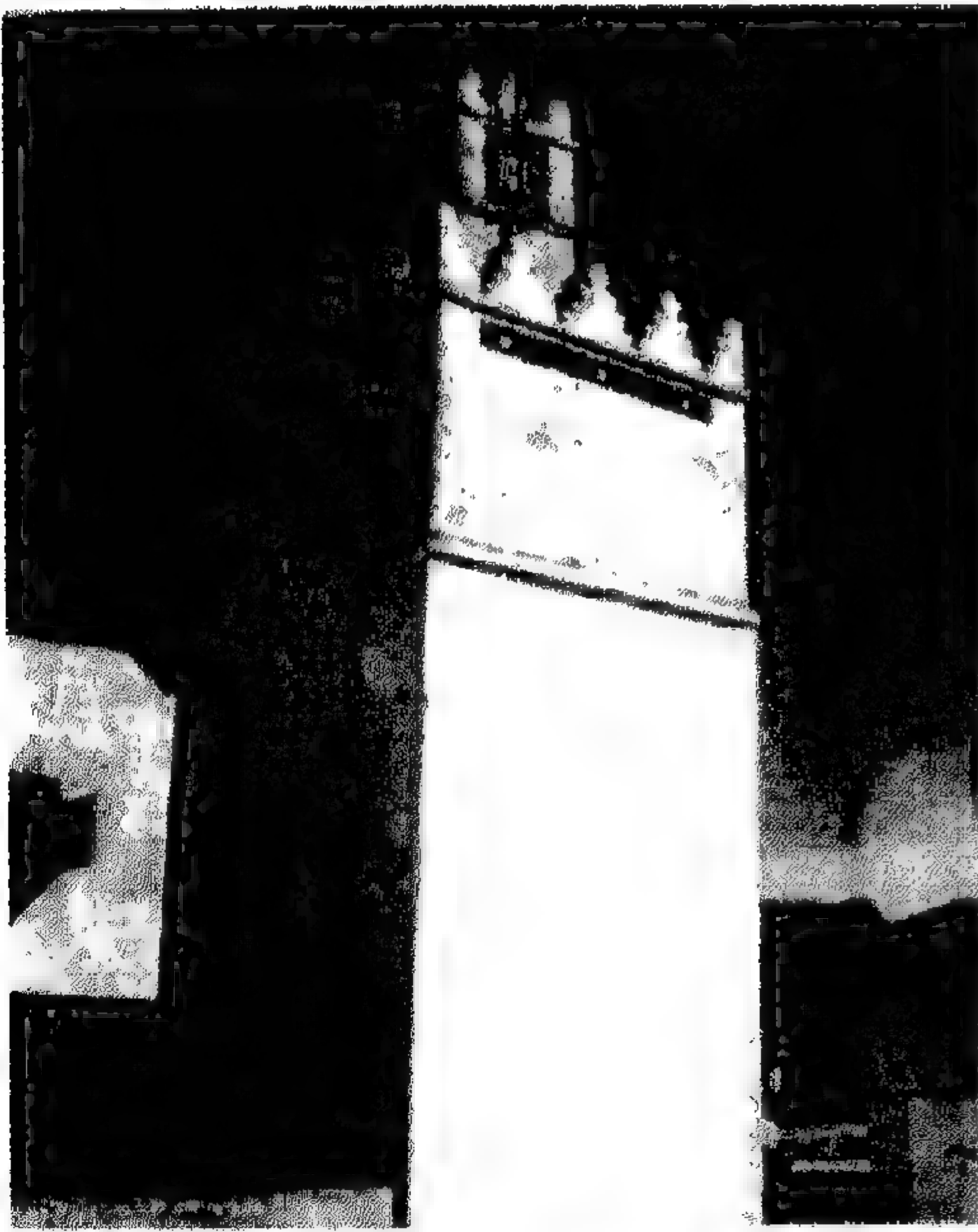
لا يزال موجوداً بالفعل جامع القلعة، مع أنه أعيد بناؤه بشكل كبير في عصور
مختلفة، والأبراج المزودة بالاستحكامات، وأسوار قلعة المنظرى ببرجها العالى الخاص
بالمراقبة، حيث كان أحد الحُرّاس يراقب دائماً الأفق البحرى، على البُعد، لكى يشير
إلى ظهور أساطيل صديقة أو معادية.

على بُعد خطوتين من ظهر مبنى القنصلية الإسبانية القديم فى تطوان، تبين
قصبة المنظرى حالياً البقايا الظاهرة الأكثر روعة ودلالة من عصر المؤسس، "مقر
إقامته ومقر الحكومة ومركز شئون المدينة".

ليس بعيداً جداً، تقريباً عند الانعراج إلى ميدان صغير، حيث يوجد الباب
الرئيسى لجامع القصبة، نجد أثراً آخر، من عصر التأسيس. إنه ما أسميته دائماً "باب
العدل" لتشابهه، فى منمنماته، مع منمنمة بنفس الاسم من قصر الحمراء الغرناطى وأن
البعض يعتبرونه من عصر سابق على وصول الغرناطيين.



باب مسجد القصبة الذي بناه المنظري



مئذنة مسجد القصبة وهو أحد البنايات الأولى

التي شيدها المنظري



برج مراقبة في قصر المنطري . من هنا كانت تراقب سفن الأعداء



باب العدل من الداخل ، وهو نسخة مصغرة لباب العدل في قصر الحمراء ، وهو من عصر المنطري

سوف نرى، لاحقاً، بتفصيل أكثر، هذا الأثر وآثاراً أخرى من عصر المنظرى. إنَّ باب العدل، بجوار القصبية والجامع، يعنى السلطة المركزية فى يدى الزعيم الغرناطى. لقد كان هذا الزعيم، فى الواقع، السيد المطلق لتطوان وإقليمها، محتمياً، بشكل خاص، فى نفوذه العسكرى ومعتماً على الأبنية الاجتماعية - الدينية للإسلام الذى كان قد ضاع لتوه فى إسبانيا. إنه عدل فى ظل الدين والسلاح.

لإكمال اللوحة بقطعة أخرى، ذات دلالة، لدينا بالقرب من باب العدل المذكور والقصبية والجامع، حى ميتامار أو مطمار أو ماتاموروس وقد حفر تحته بالكامل لبناء السجون التطوانية، مستغلين بالتأكيد خنادق من دفاعات قديمة؛ إنها نفس الخنادق التى تتحدث عنها على حدٍ سواء المصادر المسلمة والمصادر المسيحية.

لم يكن حكم المنظرى، " فى إقليم أرض بن راشد"، يواجهه أى عائق سوى تحالفه مع هذا البارأكس، سيد الشاون والجبل. وهو تحالف عمل، فيما يبدو، بشكل صحيح، على مدى حياة كليهما، ولأن فى الشاون وُجِدَت أقلية حاكمة، مختلطة بنبلاء وأشراف وفرسان غرناطيين، وفى تطوان هذه الأقلية، مالكة السلطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كانت تتألف فقط من غرناطيين، مع أن بين هؤلاء وجد، منذ وقت مبكر، نبلاء ومحاربون وتجار أثرياء، نظن أن من بينهم كان يوجد أثرياء يهود من عاصمة مملكة بنى نصر.

إنَّ الصعوبات التى يواجهها حكم المنظرى فى تطوان ستكون حادة وصعب التغلب عليها أمام الزيادة المفرطة فى عدد السكان المهاجرين الذى وصل إلى حصة قصوى فى السنوات القريبة التالية على ثورة ١٤٩٩ ومرسوم التنصر اللاحق، من تعداد سكان بلغ أقل من ٢٠٠٠ نسمة يقفز سريعاً إلى ١٠٠٠٠ نسمة وهو بالتأكيد يفوق هذا الرقم فى السنوات العشر الأولى من القرن. إنَّ هذا الفريق من المهاجرين، الكبير جدا من حيث العدد، لم يكن من القادة فقط، بل من آلاف كثيرة من صانعين بسطاء وفلاحين يفرون من أرض تمنع عنهم الخبز والملح. إنَّ تطوان المدينة، تنمو وتنمو، لكن بالتأكيد تزداد مشاكلها فى أطراد. إنها صعوبات يُخَيَّل إلينا أنها ذات

طابع اجتماعى - اقتصادى أكثر من كونه سياسى ونظن أنها، فى لحظة ما حملت إلى عقل القائدين الكبيرين، فكرة الاستسلام والبحث عن حلول لمشاكلهم الخاصة.

قسوة المنفى :

إن أرض بن راشد المأهولة جداً بالغرناطيين والتي تُعد مسرحاً حربياً مستمراً والتي اكتسحتها كل الآفات الموجودة والتي فى طريقها للوجود، بما فيها آفات الجوع والقحط والأمراض، ليست مكاناً مناسباً للحكم، إذا ما تعيّن فعل ذلك بالضرب بالرُمح وعدّو جوادٍ مستمر.

كذلك داخل المدن نفسها، خاصة تطوان، كان يتعيّن أن يكون المهاجر يقظاً حتى فى أوقات الاستراحة والاحتباس فى القلاع وخلف الدفاعات المحاطة بالأسوار.

ليس الأمر هو أن تتخيل ذلك بل لقد وجدنا استشهادات مستمرة فى التواريخ البرتغالية عن قرى هاجمها بن راشد والمنظرى من أجل أن تمتنع عن دفع الضرائب للبرتغاليين، إن كل محيط المواقع البرتغالية القوية كان يشكل محمية تقوم بتموينها، وتمدها أيضاً فى كثير من الأحيان بأفضل جنودها.

إن قتال الأشراف والغرناطيين لم يكن ضد المسيحى الغازى فحسب بل كان ضد من يطلق عليه "مسلم مهادن"، وهو ما كان يمثل أغلبية عدد السكان الريفيين.

لولا هذا المحيط الريفى الذى يُعد مورداً للسلع التموينية التى لا غنى عنها، لكان الغلاء والسخط أمرين محتملين جداً، صحيح أن الغرناطيين عندما أعادوا بناء تطوان قد أقاموا فيها سياجاً أمام الغزوات البرتغالية التى لم تنفذ بالسهولة التى كانت تنفذ بها حتى ذلك الحين، وهو ما يعنى خلق فراغ، فى محيط المدينة ربما كان يكفى احتياجات المدينة البدائية. إلا أنه عندما أخذت الهجرات تتراكم واتسع المحيط الحضرى، ازدادت بالطبع مشاكل التموين، دون أن تكفى المقيمين هناك.

سوف يصيب هذا الجزء من البلد الجوع والطاعون اللذان سُجِّلَا في مملكة فاس، على سبيل المثال، تتحدث التواريخ اليهودية عنهما، عندما يصل المبعدون إلى الأرض في عام ١٤٩٢ .

« بينما كان اليهود يقطنون في الريف بالقرب من فاس، لأن الجوع كان أليماً في الأرض، وصل حالهم إلى الحد الذي جعلهم يذهبون إلى المدينة ويبيعون أبناءهم كعبيد في مقابل قطعة من خبز»^(٤).

مع أن المبعدين اليهود وصلوا بالتأكيد إلى حدود قصوى من حيث الألام ومجاعتهم، نون الحاجة لوجود هذه الآفات في باقى البلد، فإن المصادر المسلمة تصف، في نفس الفترة تلك الأحداث الجسام التي وقعت في العصر الوسيط ونكبت البلد الشمال إفريقي.

" شاء الله في قضائه وقدره أنه عند عبور الأمير محمد بن على (أبو عبد الله) إلى المغرب وسيره إلى فاس أن يبتلى أولئك الناس بفقر مدقع ظهر في غلاء قاحش، تبعه جوع عام وطاعون، لقد صار الوضع خطيراً في فاس، حتى أن الناس كانوا يهربون منها؛ وحتى بعض من كانوا قد وصلوا إلى البلد، مهاجرين من الأندلس، عادوا إلى هذا البلد بخبر تلك الفاقة؛ لذا فإن أشخاصاً كثيرين ظلوا غير قادرين على الهجرة" ^(٥).

إن كلاً من الجوع والطاعون يُعدان لاحقين بعض الشيء على مثيليهما اللذين سجلتهما المصادر اليهودية. وهو يبين تكرارهما البائس ووقوعهما بالتالي في المراكز السكنية بل أكثر من ذلك في الأراضي المأهولة جداً بالسكان التي يتركز فيها مهاجرون من غرناطة.

كان رحيل أبي عبد الله في عام ١٤٩٣، وفي الخامس والعشرين من أبريل من عام ١٤٩٤ يكتب ثافرا إلى الملك فيرناندو الكاثوليكي: " يوجد في فاس طاعون شديد

جداً، يموت فى كل يوم ١٢٠٠ أو ١٣٥٠ شخصاً والبعض يقول إنه فى يوم يموت ٢٠٠٠ شخص، وهناك أجزاء كثيرة من تلك المملكة حتى تقريباً غير مسكونة بسبب الطاعون^(٦).

من جانب آخر لا يجب أن ننسى أن تطوان كانت الملاذ لجزء كبير من طبقة النبلاء الغرناطية. إن القباب أو المدافن بالجبانة المسلمة القديمة دليل جيد على ذلك؛ إنها قباب تُبنى تحديداً بواسطة ومن أجل شخصيات من العائلة الملكية. هل سببت طبقة النبلاء هذه مشاكل ذات طابع سياسى أو اجتماعى للمنظرى؟

لقد حاول بن راشد والمنظرى مرات عديدة مهاجمة وحصار القلاع البرتغالية. بيد أنه حتى أضعف هذه القلاع (والتي يمكن اعتبارها قلعة القصر الصغير) لم تكن فى أى وقت فى خطر الوقوع فى أيديهما. بل، بعدما اتحدت قوات الزعيمين مع قوات ملك فاس نفسه لم يحصلوا كذلك على أى نجاح فى الهجمات على أسوار أصيلة أو طنجة أو سبتة.

بالإضافة إلى البلاط البرتغالى الحافل فى أحيان كثيرة بالأحداث الحربية، كان المسيحيون الأندلوثيون والعاهلان الإسبانيان نفسيهما هم الذين كانوا يسهرون حتى لا تقع تلك القلاع الإفريقية فى أيدي المسلمين.

فى عام ١٥٠٢ يرجو الملكان الكاثوليكيان من الإشبيليين أن يهبوا لنجدة "موقع ملك البرتغال حاصره المسلمون التابعون لملك فاس". بالنسبة إلى المسيحيين الأندلوثيين، كان أمنهم الخاص يدفعهم لمساعدة الحاميات البرتغالية فى المغرب، وهو ما كانوا يفعلونه برجال وعتاد حربى وفير، هذا بالإضافة إلى الفائدة الاقتصادية التى كانت حركة التبادل التجارى مع المغرب تحققها منذ عهود قديمة جدا^(٧).

لقد كان هذا الدعم البشرى والاستراتيجى يفوق بكثير الدعم الذى يمكن أن يجلبه الفريق الآخر من داخل البلد. نُضيف بيانين يفصحان عن نفسيهما. فى عام ١٥٠١ أراد الملك مانويل العبور إلى إفريقيا بجيش قوامه ٢٦٠٠٠ رجل، بينهم ٦٠٠٠ فارس،

وفى هذا العام نفسه كانت حاميات طنجة وأصيلة تسمح بالقيام بغارات على المناطق المحيطة بالقصر الكبير^(٨).

كان المنظرى وابن راشد مدركين تماعاً حدود قوتهما. إنهما لم يستطيعا حتى أن يفيا بتطلعاتهما للاستقلال المطلق، لأن نفوذ ملك فاس كان يتجاوز ويفيض ليقطع أى طموح فى هذا الصدد مع أنه بعد ذلك لم يكن قادراً على السيطرة على الفوضى المتسلطة وترك كل سيد حرب يحكم الأرض الخاصة بنفذه.

لا نعلم، بالتحديد، أى نوع من العوائق وأى نوع من القيود وما هى الصعوبات التى دفعت كلا الزعيمين بالشمال المغربى لعقد محادثات مع البرتغاليين أنفسهم بهدف أن يمدوهم بسفن لهما ولعوائلهما وثرواتهما، بهدف الانتقال إلى تونس، وتعهدا لهم فى المقابل بتسليم مدينة تطوان وإقليمها طواعيةً بالكامل.

إن الأحداث سوف تبدولنا ضرباً من الخيال لو لم تكن لدينا الوثائق لإثباتها.

تمضى المحادثات والمشاريع بطيئة من عام ١٥٠١ إلى ١٥٠٣، أى أن ذلك كان أمراً تمت دراسته والبت فيه على مدى طويل نوعاً ما. ويكشف ابن راشد للورينثودى بارغاس، معتق الأسرى فى طنجة، عن رغبته فى "العبور إلى تونس مع كل أهل بيته وأبناء إخوته وأقاربه مثل قائد تطوان ومع كل ممتلكاتهم، وأنه من أجل ذلك، ياسيدى، يطلب منكم يا صاحب السيادة أسطولاً صغيراً يعبر به إلى تونس مع كل أهله، وأنه، ياسيدى، سوف يعطيكم تطوان، وسوف يملكها لكم هى وكل الأرض بدون أى مجهود..."

بل إن الأكثر غرابة هو التأمين الملكى، الذى يُظهره إلى لورينثودى بارغاس موقعاً ومختوماً فى البلاط البرتغالى، والذى يُسمح بمقتضاه لابن راشد نفسه وقائد تطوان بأن يتنقل فى كل واحدٍ من هذه الأماكن مع النساء والأبناء والممتلكات بشكل آمن...." ويرسل إلى كل قادة القلاع ليقدموا لهم التكريم والمساعدة التى يستطيعونها.

لقد حرر التأمين المذكور بتاريخ ١٣ من مايو من عام ١٥٠٢، وكان بن راشد يقول إنه تسلمه مباشرة من ملك البرتغال منذ حوالي تسعة شهور.

كخاتمة للوثائق الموجودة والمتعلقة بهذا الموضوع، هناك خطاب كتبه سيدي على المنظري إلى ملك البرتغال في ٢٢ من يناير من عام ١٥٠٣، والذي يؤكد فيه الغرناطي دعمه وموافقته على ما تم التحدث بشأنه مع بن راشد^(٩).

بعد أن عرضنا كمقدمة بعضاً من الأسباب التي يمكن أن تُفسر هذا القرار شديد الصرامة من جانب المنظري وبن راشد، يتبقى لنا بعض الاعتبارات التي للأسف لا يمكن أن توضح لنا شيئاً كبيراً عن القضية.

واحد من هذه الاعتبارات المهمة جداً هو لماذا خطر ببال كلا الزعيمين طلب أسطول صغير مقابل امتلاك تطوان، إذا كان لديهما أو كانا يستطيعان امتلاك أو تدبير هذا الأسطول الصغير، خاصة في فصل السنة الذي لم تكن تُبحر فيه تلك السفن بسبب المناخ، وهو وقت سوف يجهزون فيه تجمعهم وهروبهم؟ بالطبع سيكون بإمكان السفن المطلوبة الوقوف في سبتة أو طنجة، في حماية المدفعية البرتغالية ويلجأ الزعيمان مع أهليهما إلى نفس هذه القلعة للإبحار من هناك باتجاه تونس؛ إن ذلك كان هو الأسهل للطرفين.

هناك اعتبار آخر، يتسم بشيء من الخطورة، وهو التفكير في أنه بتسليم تطوان وإقليمها، توضع في أيادي برتغالية حياة الآلاف من المهاجرين الغرناطيين، هل كانوا هم المتسببون في القرار اليائس لزعيميهما؟ هل لم يعد بأيديهما السيطرة على حكم مدينة تطوان؟

إن ما يسترعى انتباهنا هو أنه لم يرد ذكر مدينة الشاون في الاتفاقيات؛ فقط تطوان وإقليمها، الذي نفهمه على أنه وادي المرتيل. إن الأشراف والغرناطيين الذين كانوا يعيشون في ظل الحماية المباشرة لـ بن راشد، لم يكونوا يسببون، على ما يبدو، مشاكل اجتماعية - سياسية، وكانوا مبعدين عن كل اتفاق تسليم أو تنازل. ومن ثم،

فإنه يبدو بالفعل أنَّ الهجرة الغرناطية الكبيرة إلى تطوان هي التي تسبب مشكلة لحكام الشمال المغربي.

هناك أمرٌ يبدو مؤكداً، بالإضافة إلى وجود تلك المفاوضات، وهو الاتحاد القوى الذي يظهر حميماً وبدون تصدعات بين المنظرى وبين راشد، إنه اتحاد سوف يصير عائلياً بعد ذلك بقليل جداً عندما يتحول المنظرى إلى صهر لـ "بن راشد".

هل ارتاب البرتغاليون في وجود حيلة حربية لسيد الشمال، من أجل الاستيلاء على موقع قوى ؟

ألم يكن لديهم وسائل كافية لمجابهة كل ما كان يقتضيه المشروع ؟

نحن لا نعرف سوى ما نقلته الوثائق الموجودة(*) إن كل ما عدا ذلك كان تخمينات، قائمة على معرفة البيئة وكثير من الظروف التي انتشرت فيها الأحداث التي تم عرضها.

يعتقد كاتب " مغربي " أنَّ من المستحيل أنَّ أميراً متديناً جداً ووطنياً مثل بن راشد يمكن أن يفكر في خيانة كهذه.

دون أنَّ نتجاسر على الحكم بسرعة، نحن نتذكّر رؤساء كثيرين وملوكاً، مسلمين ممتازين، وعلى ما يبدو محاربين أكفاء، أذعنوا أو استسلموا لقوات الملكين الكاثوليكين، لقد فعل ذلك الكثير منهم حتى دون أن يُظهروا بادرة مقاومة.

ونحن إذ نقول ذلك، لا نفكر فقط في الحرب الغرناطية الأخيرة بل في الغزوات الشمال إفريقية للملك فيرناندو، أو كما كان يقول ثافرا: " كل المملكة ترتعد وتمسك بيديها المفاتيح"(١٠).

(*) ذكرنا في مواضع كثيرة أن لدينا أسباباً قوية تجعلنا نشك في الكتابات التاريخية الأوروبية لذلك العصر . من ناحية أخرى لا يورد المؤلف رسالة بخط الزعيم الغرناطي تجعلنا نطمئن إلى ما ذهب إليه . (المراجع)

هكذا كان يشير إلى تلمسان وملكها، في عام ١٤٩٤ .

إن ما يحدث هو أنه لا يمكن نقل عقلية الحاضر إلى الأحداث التاريخية الماضية، ولا عقلية من يكتب التاريخ، إن كاتب التاريخ يجب أن يقدر الأشخاص والظروف بما يوافق العصر الذي عاشوا فيه وليس الانهماك في البحث فيما كان سيفكر فيه أو يفعله إذا ما وجد نفسه في تلك المواقف الفاصلة أو في مثلها.

يهود غرناطيون في تطوان:

في هذا الفصل الخاص بحكم المنظرى في تطوان من الضروري أن نضع في الحسبان عوامل كثيرة ومتنوعة، من الظروف الخاصة بالزمان والمكان وحتى الظروف الشخصية للطبقات المختلفة للسكان الذين كانوا يتوافدون، وأيضاً ظروف أقلية محددة تعين عليها - مثل المبعدين المسلمين - أن تقاسى المنفى والمشاق.

نحن نشير بالطبع إلى اليهود الغرناطيين الذين رغبوا في البقاء على دينهم وعاداتهم وفضلوا المنفى على البقاء في وطنهم.

لا نعرف ما هي النسبة المئوية للذين اختاروا الخروج أو نسبة الذين اختاروا البقاء، على أية حال إذا تذكرنا أن عدد العبرانيين الذين صعدوا على السفن من هناك في المرة بلغ ٧٨ شخصاً وأن ٤١ شخصاً قد أبحروا من مالقة، يبدو لنا أن عدد اليهود الذين يرحلون لا يصل إلى نسبة ١٠٪، أما الذين يبقون ويتعمدون ويندمجون في المجتمع المسيحي فهم يتجاوزون نسبة الـ ٩٠٪ (١١).

بعد ذلك كانت بعض قوائم محكمة التفتيش، طويلة بقدر طول قوائم صعود الذين لم يمكن تنصيرهم.

يشكل اليهود الغرناطيون الذين يرحلون إلى الجانب الآخر من المضيق مجموعة خاصة سوف نقوم بدراستها، كما سندرس وجود هذه المجموعة في مدينة تطوان المتزايدة.

وكما أثبتنا وجود يهود في الشاون في عهد مؤسسها سيدي علي بن راشد، نستطيع الآن إثبات وجود مستعمرة يهودية في تطوان في عصر المنظرى^(١٢).

إن من الصعوبة بمكان تحديد التاريخ الذي وصل فيه يهود غرناطيون إلى تطوان : إن كانوا قد وصلوا في نفس الوقت الذي أعاد فيه الغرناطيون بناء خرائب المدينة، أو كانوا قد وصلوا فيما بعد وفي أى وقت يفترض ذلك الوصول.

إن البحث فيما إذا كان المنظرى ومحاربوه أحضروا معهم أحد أو بعض اليهود الغرناطيين الأثرياء، علماء طبيعة أو صنّاع، ليس ذا معنى، لو فكرنا أن قائد بينيار لم يكن يحتاج في البداية سوى محاربين، وأن أولئك اليهود، في الفترة من عام ١٤٨٦ إلى ١٤٩١ لم يكونوا يفكرون في الطرد. إلا أنهم من ناحية أخرى سرعان ما سوف يبدون منكبين على نشاط تجارى لمنتجات كان يحتاجها التطوانيون الجدد والتي كان منخرطاً فيها بالتأكيد العبرانيون الذين كانوا يعيشون في الشاون ووفدوا حديثاً من مملكة بنى نصر التي كانت على وشك الانهيار.

فيما بعد، في عام ١٤٩٢، عندما طُردوا من شبه الجزيرة نستطيع أن نتأكد من تكوين جماعة يهودية في تطوان، جماعة تتشكل في صمت وتزداد كمّاً ونوعاً في سنوات قليلة إلى أن تتحول في أقل من قرن إلى واحدة من المراكز الأكثر أهمية في المهجر اليهودي الإسباني في المغرب.

قلنا إن تلك المجموعة كانت تتشكل في صمت لأننا، بالفعل، لم نجد أيّاً من التواريخ اليهودية - التي تروى أحداث المنفى وآلاف المصائب التي عانى منها العبرانيون في منقاهم - تتحدث عن اليهود الميغوراشيم الذين استقروا في تطوان، ولا تتحدث كذلك عن الذين يحضرون إلى الشاون للاجتماع بالجالية

اليهودية الريفية التي كانت موجودة هناك منذ عام ١٤٧١ فصاعداً عندما تأسست وتطورت مدينة الأشراف.

سالومون بن فيرغا، أكثر أولئك المؤرخين تعبيراً، يسكب كلمات كثيرة من الألم والضيق من أجل إخوته الذين سقطوا في فاس أو في أصيلة أو في أماكن أخرى، لكنه لم ينبس بكلمة من أجل هؤلاء الذين وضعوا أنفسهم في هدوء تحت حماية زعيمى الشمال الكبيرين، بن راشد والمنظري^(١٣).

لقد كان اليهود موجودين، نحن واثقون من ذلك. سوف نحاول، ليس أن نثبت ذلك، فهو أمر مفروغ منه، بل أن نقدم الجزء الأكبر من الدلائل التي تقربنا من الحدث الحقيقى الخاص بوجود يهود في تطوان، إن لم يكن في الشهور الأولى لإعادة بنائها، ففي السنوات الأولى لإعادة تأسيسها كمدينة.

بالنسبة إلى وجودهم في المدينة في زمن المنظري، ليس بالأمر البالغ الصعوبة العثور على وثيقة تدل على ذلك، نظراً للفترة الممتدة التي حكم فيها القائد الغرناطى بشكل فعلى وحقيقى.

هناك شاهد استثنائى هو رجل الدين الهولندى نيكولاس كلينارد - Nicolás Clen-ard، يكتب في رسالة مؤرخة في تطوان بتاريخ ٢١ من أبريل من عام ١٥٤٠ إلى مؤدبه لدى مروره بالمدينة، في طريقه إلى فاس، الملاحظات التي خطرت على باله، من بينها العدد الكبير من اليهود الذين يمكن أن يراهم^(١٤).

si Deus me incolumem duxerit Fesam, video & aliud scribendi argumentum de profectioe terrestri: aiunt nobis quinque noctes agendas sine recto, sub dio, & sesquidiem consumendū in altissimis rupibus. hoc Brabantino homini, & discipulo Louanienti quid est aliud, quam mortis species? Orabis Deum ut me seruet incolumem, & aliquo pietatis fructu reducat ex Africa. Bene vale, colende præceptor, cum tota familia, Latomo iunior, & ceteris amicis. Commendo me precibus Magistrorum nostrorum. Septem xv. Aprilis, Anno 10 M. D. XL.

NICOLAUS CLENARDVS D.
IACOBO LATOMO S. D.

SABBATO superiore discessimus Septa, vbi hæsimus quatrduum, ipso scilicet tempore quo Machometistæ suum celebrant Pascha. Opposui ego aliquid veteri proverbio: Semper aliquid noui adfert Africa. Siquidem multo magis me admirati sunt, quam ego illos, qui iam pridem nascente meo præceptore illorum mores didiceram. Monitus fueram ne quid vel Machometistis crederem, vel ludæis, quorum etiam magna hic est copia. Neuios metuo tum quod & sic cum illis agam, ut amare possint, non odisse: tum etiam quod literis mei præceptoris facti sunt ceruiores, quam ego illum humaniter tractem, etsi captiuum. Apertè prædico me venisse discendæ linguæ gratia, & ut librorum mihi comparem supellestilem. esse enim iam apud Christianos solennem linguarum complurium profectioem: hanc deesse, velut Arabicam coronidem, mihi hanc susceptam profectioem, ut eam apud nostros homines profterer. Ego vltro ad disputandum non prouoco, prouocatus respondeo me nō venisse disputandi gratia, sed discendæ linguæ Arabicæ. Illi tamen interim admirantur, cum in colloquio me audiunt citantem fragmenta quædam Alcorani. Superiore biduo

tantus

tantus fuit hominum concursus, ut Flandrensem cererent, qui legeret, scriberet, loqueretur Arabicè, ut vix mihi spacium relinqueretur rebus peragendis necessariis. Cumque meum sermonem vulgari puriore audirent (è libris enim eum hausi) veluti oratorem quendam suspiciebant Arabicum: adeo ut adolescentem quendam adducerent, veluti eximie literatū, qui quinque annos studuisset Fesæ. Vnde nihil aliud consequuti sunt, quam ut eum multis præsentibus confutarem in Grammatica: quæ meæ victoria, multis in conuenticulis iactata est. Hæc, mi præceptor, non gloriandi causa commemoro, sed ut scias, me gratia Dei optimam concepisse spem de hac mea profectioe, nec dubito, me Fesæ multis charum & gratum futurum, etsi maximè si in Campiniensis: Sin aliter eueniat, & mihi Deus peccnam statuat imponere Fesæ, hæc eius voluntas. Bene vale, colende præceptor, & Deum ora pro me. Semper si in commendatus precibus Magistrorum nostrorum. Ex Tuyruan. xxi. Aprilis.

NICOLAUS CLENARDVS IACO-
BO LATOMO S. D.

DIE XXI. Aprilis discessimus à Tuyruan, noctes duas egimus sub tentorio, Calendis Maij, confectis duabus leucis, vehemens nos occupauit pluvia, & inter torrentibus impediabatur inter altissimos montes, ut necesse haberemus ligere tentoria. Sub iis desedimus diem cum insequente nocte. Postridie data serenitate pergere cepimus, & quarta Maij, ingressi sumus Fesam, urbem grandissimam, de qua per ocium latius ad te scribam, simulque hic res meas composuero. Salutavi Regem Arabicè, & cum eo prolixè sermonem miscui, exposita causa profectiois, de qua cum aliquā ante aduentum meum ceruor fuisset factus, è literis credo præceptoris mei, iam diploma fidei miserat ut turo venire in Africam, & si casu factum sit, ut ad me

C. 3

non

نعلم أن المنظرى كان لا يزال علي قيد الحياة فى ذلك التاريخ، حيث إننا نعرف اتصالاته مع معلم العقيدة الأب كونتريراس Contreras، فى الشهور الأخيرة من ١٥٤٠ .

على أية حال فإن وجود يهود كثيرين فى تطوان حينئذٍ كان يعنى وجود حى يهودى متأصل ومزدهر فى وقت سابق.

فى هذا العقد من القرن السادس عشر سوف ينعم الحى اليهودى التطوانى بإمكانيات وظروف حياة جاذبة لكل من كان ينوى الهرب من شبه الجزيرة ويتبع دين آبائه.

هكذا يقوم معتق الأسرى البرتغالى، فارغاس، بإبلاغ عاهله بذلك من فاس فى السادس من يونيو من عام ١٥٤٢ .

” سيدى، من الضرورى منع أى مسيحى جديد من الذهاب من طنجة إلى أصيلة، أو من مكان إلى آخر برأ، لأن بعض الجنود المسلمين، الذين ينقلونهم من مكان إلى آخر، بمجرد أن يخرجوا إلى الريف، يطلب منهم اليهود(*) أن يحملوهم إلى تطوان ليعوبوا يهوداً. هذا ما فعله الآن مسيحيون جدد وصلوا إلى طنجة قادمين من لاميفو Lamego، فقد خرجوا وهم يقولون إنهم ذاهبون إلى أصيلة ولكنهم ذهبوا إلى تطوان”(*) (١٥)

غبريال دى أراندا Gabriel de Aranda، كاتب سيرة كونتريراس- الذى تعامل مع الزعيم العجوز فى الشهور الأخيرة من حياته - يتناول شهادات يهود تطوان القدامى،

(*) النص الأسمى الإسمائى به خطأ لقوى واضح لا يستقيم معه ، إذ يرد فيه أن الجنود المسلمين يطلبون هذا الأمر من الجنود المسلمين ، لذلك قمنا بالتصحيح . (المراجع)

عن أنشطة معلم العقيدة كونتيريراس. علاوة على ذلك يؤكد أراندا أن الأب كونتيريراس وعظ في نفس المعبد اليهودي التطواني^(١٦).

في ١٢ من أغسطس من عام ١٥٤١ يكتب ألفونسو دي نورونيا Alfonso de Noroña ، حاكم سبتة، إلى الملك خوان الثالث، حول علاقاته بالقائدة الفعلية لتطوان، ست الحرية، أن الحرية أرسلت له رسالة مع يهودي، وهذا اليهودي يعمل كمرافق لمبعوث نورونيا الذي يحمل رده. يعود اليهودي نفسه برسالة أخرى من الحرية. وفي الوقت نفسه يقوم بإذاعة أخبار سُمعت في تطوان عن الأتراك ولم يكن نورونيا يعتقد أنها صادقة^(١٧).

إن هذه الوظيفة سوف تكون واحدة من الوظائف الأكثر شيوعاً والتي يقوم بها اليهود، وظيفة الوسطاء والمترجمين والسماسرة، كل ذلك في وظيفة واحدة، سواء في تطوان أو في المواقع البرتغالية القوية^(*) وأفضل من كان يستطيع أن يقوم بهذا العمل كان بالتحديد هذه المجموعة من اليهود الغرناطيين، العارفين باللغة العربية والذين كانوا محل ثقة كبيرة من جانب أبناء وطنهم، والذين كانوا بالإضافة إلى ذلك يشاركونهم نفس البلية.

إنَّ تجارة العبيد التي امتصت تطوان الجزء الأكبر منها، كمركز لعمليات افتداء كثيرة، ستكون دائماً عامل جذب لوساطة اليهود الذين تحولوا هم أنفسهم إلى أسياد للأسرى.

كما كان يحدث مع أي سلعة أخرى، يقول الأب أراندا:

"اعتاد اليهود شراء العبيد لكي يعيدوا بيعهم في أماكن أخرى"^(١٨).

(*) حول دور اليهود في العلاقات بين أوروبا والعالم الإسلامي انظر كتاب "بين الإسلام والغرب" تأليف خيرارد ويقرس وغارثيا أرينال ترجمة ممدوح البستاي ، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٥ . (المراجع)

لقد كان الاتجار فى العبيد على نحو خاص أمراً شائعاً بين الجزائر وتطوان.

إنَّ الأحداث تجعلنا نظن وجود يهود فى تطوان منذ عودة القرصنة المركزة عند منبع نهر المرتيل، وهو ما يستلزم وجودهم فى العقدين الأولين من القرن السادس عشر.

يتأكد ذلك عندما نعلم أن يهود تطوان بايعوا (حاييم بيباس حازاكين Hayyim Bi-bas ha Zaquen) فى عام ١٥٣٠ ليكون حاخام فاس. بعد أن عينه يهود تطوان "حاخاماً كبيراً"، أصبح بيباس زعيم عائلة لحاخامات كبار وحاخامات بسطاء فى تطوان امتدت حتى أيامنا (١٩).

يمكن تفسير مبايعة بيباس، بفضل معرفته اللاهوتية والقضائية الفائقة التى كانت تُعزى إلى مدينة فاس، والتى كان مجتمعها مؤلفاً من أغلبية من يهود ميغوراشيم قشتاليين، وهو تفوق اعترفت به جماعة تطوان، المؤلفة فى معظمها من ميغوراشيم غرناطيين، هؤلاء كانوا يتحدثون اللغة العربية، وعلاوة على ذلك، كانوا يرتدون الزى الموريسكى، كما يقول بيرنالديث Bernáldez، وهو ما كان يقربهم أكثر إلى الموريسكيين الغرناطيين، وكان يسهل اندماجهم وتعايشهم مع الذين أعادوا بناء تطوان.

من الميغوراشيم الغرناطيين سوف تتغذى التجمعات اليهودية فى تطوان والشاون والقصر الكبير وأصيلة ومراكز أخرى يوجد بها موريسكيون.

من المفترض أن هذه الجماعات لم تتفاهم جيداً مع اليهود الميغوراشيم القشتاليين فقد كانت هناك اختلافات ظاهرة بينهم، ابتداءً باللغة ذاتها وانتهاءً بالعادات وعلاوة على ذلك الملابس الذى احتفظ به المسلمون الإسبان فى منقاهم، وكذلك اليهود القادمون من مملكة غرناطة.

ليس لدينا وثيقة تؤكد على وجود يهود إسبان فى تطوان فى أواخر القرن الخامس عشر. إنَّ المدينة، التى بدأ المنظرى ومحاربيه فى إعادة بنائها بدءاً من عام ١٤٨٥ أو قبل ذلك، لن تكون لها قدرة كبيرة على استيعاب أجانب فى السنوات الأولى. نعتقد أنه

فى عام ١٤٩٢، حينما خرجت أعداد كبيرة من اليهود، كانت المدينة تنمو وهى تأوى مسلمين إسبان، إلا أنه كان سيُعدُّ أمراً صعباً قبول مئات من الميغوراشيم القشتاليين، الذين كانوا بالنسبة إليهم غرباء مثل المسيحيين، ومن المنطقى الاعتقاد بأنه على العكس أمكن استقبال دسنة من المواطنين الذين لم يكونوا ليشكلوا عقبة كبيرة، بل كانوا سيساعدون فى مظاهر كثيرة من الحياة اليومية والتي كان المسلم يحتقر ممارستها.

هناك دلائل أخرى ذات طابع أثري تقربنا من التواريخ الأخيرة من القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر لى نصدق وجود تجمعات يهودية خاصة فى مدن الشمال المغربى، وهى تجمعات نحددها بميغوراشيم غرناطيين.

توجد مثل هذه الدلائل الأثرية فى المقابر اليهودية بمدن الشمال، هنا يوجد أنموذج للمقبرة يختلف جوهرياً عن نماذج المقابر فى وسط وجنوب البلد، يكفى مقارنة الصور والرسومات التى نشرها مياس Millas^(٢٠) أو فيلار Villar^(٢١) أو التى قمت أنا بنشرها^(٢٢)، بتلك التى أخرجها إلى الضوء كل من بوريللى Bourrilly ولاوست Laoust^(٢٣).

عموماً فإن شكل التابوت فى الشمال يكون منقوشاً فى شاهد القبر ذاته، أى، أن لوحة الحجر نفسها لها شكل تابوت.

فى باقى البلد يكون التابوت مرسوماً أو منقوشاً على الحجر، الذى يكون شكله مستطيلاً، مثل أحجار مازاغان وأثيسور وأغادير، أو له أشكال متنوعة على شكل معين منحرف أو انحناءات عند الرأس، كما فى مراکش أو مוגادور أو رباط سلا.



مقابر قديمة في مدافن كاستيا في تطوان

” كل مدينة، كل عصر، له عاداته فيما يخص شكل المباني الجنائزية”^(٢٤).

لكننا نلاحظ أن هناك مدناً مختلفة من المعين الشمالى المغربى تتشابه مقابرها اليهودية - التى ترجع تقريباً إلى العصر نفسه - فيما بينها وتختلف عن مقابر باقى البلد.

الفترة حددناها بفضل حدث تاريخى مؤرخ تماماً، وهو الإخلاء البرتغالى لأصيلة فى عام ١٥٥٠، فظلت خالية، ثم أعيد احتلالها ثم تركت من جديد بعد مغامرة الملك سيباستيان فى عام ١٥٧٨ .

فى عام ١٤٩٢، عام الطرد، وصل آلاف من العبرانيين إلى أصيلة؛ بعضهم وهم الأكثرية توجهوا بعد ذلك إلى الداخل، وآخرون وهم أقل وصلوا بغرض البقاء أو العودة إلى شبه الجزيرة بعد طلب التعميد. بالتالى فإن المدافن اليهودية فى أصيلة تندرج بين السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر ومنتصف القرن السادس عشر بالضبط.

بدءاً من عام ١٥٥٠ لا توجد قبور يهودية أخرى فى أصيلة حتى التواريخ المعاصرة، لقد توقف إذن تطور ”ممکن” من شكل القبر فى آخر العصر الوسيط إلى القبور التى تُبنى فى عصرنا هذا.

بهذه الطريقة نعتقد أن لدينا قاعدة انطلاق من أجل مقارنة واستنتاج بيانات مهمة لدراستنا.

يوجد يهود فى أصيلة منذ قبل عام ١٤٩٢ حتى عام ١٥٥٠ ، قبورهم يمكن تأريخها بدءاً من عام ١٤٨٧ .

تقع جبانة أصيلة العبرانية، البعيدة عن أسوار المدينة، فوق جرف على حافة البحر. هذا الوضع يؤثر فى حالة حفظ المدافن خاصة فى الجزء القديم، حيث يصل البحر ليضرب بعض القبور، وفى أجزاء أخرى أحدثت رطوبة الجوتاكل فى ألواح القبور الحجرية. الكثير منها محفوظ لأنها مغطاة بطبقة من تربة نباتية حيث نمت بوفرة الأعشاب والشجيرات المتشابكة.

إن ألواح القبور من حجر واحد، مشيدة بالجير المحلى وعليها كتابات قديمة وتشبيهات. اللوح الوحيد يغطى القبر مباشرة على الأرض. أشكال التابوت فيها متنوعة جداً، بدءاً من الشكل البيضاوى المنتفخ بشكل خفيف أكثر عند الرأس منه عند القدمين، حتى التمييز الواضح لدائرة عند الرأس تبدأ بشقين على كلا الجانبين، مشيرةً للاكتاف، مروراً بالجزء الضيق السفلى الذى ينتهى، أحياناً، بشكل مدبب عند القدمين^(٢٥).

ينتشر هذا النوع من القبور فى الشمال فقط، ويحده من الجنوب القصر الكبير ثم أصيلة وطنجة والشاون وتطوان.

تتميز قبور تطوان عن القبور الأخرى بثروتها الزخرفية، التى تعطى إحساساً بهدوء كبير وثروة الجماعة.

بيد أن النوع هو نفسه، لوح تابوت يكون فيه عادةً دائرة للرأس وسمات مقتضبة تمثل الذراعين والقدمين، ويمتلئ الحجر بنجوم وأشكال زهرية. إذا كانت هذه الزخارف هى ببساطة ذات منشأ محلى، نظراً لوجود مدرسة حجارين، وهى مدرسة غير موجودة فى مدن الشمال الأخرى، فهى مجرد افتراضات تُعبر مع ذلك عن تمهّل كبير وعناية عند الدفن .

إن ما يظهر بكل وضوح هو أن هذا النوع من التوابيت فى الشمال المغربى تستخدمها مجموعات يهودية مختلفة عن باقى المجموعات، بما فيها مجموعات فاس ومراكش. فى فاس، حيث الجزء الأكبر من المنفيين اليهود، لا يوجد شئ يشبهه. لقد استخدم الميغوراشيم القشتاليون نوعاً آخر من القبور ونظن أن القبور موجودة فى الشمال، قبور الميغوراشيم الغرناطيين، إنهم بلا شك ميغوراشيم غرناطيين الذين يغزون الحى اليهودى التطوانى، إلا أننا نعود لنجد نفس المشكلة: متى وصل بالضبط هؤلاء الغرناطيون إلى تطوان ؟

إن الدلائل المعمارية تجعلنا، نقترّب من الأعوام الأخيرة من القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر.

هذا هو الذى تنقله لنا أقدم مقابر الجبانة القشتالية التطوانية.

هناك دليل آخر يُضاف إلى الدلائل السابقة وهو الموضع الذى كان لأقدم حى يهودى تطوانى، كان يقع بالضبط داخل سور بمدينة المنظرى البدائية، فى ظل حماية القلعة والتي شيدها المؤسس.

إنه أمر يُعد بالتالى مؤكداً بشكلٍ كافٍ، وهو أنه كان هناك يهود فى تطوان فى ظل حكم سيدي على المنظرى وأن هؤلاء اليهود كانوا هناك فعلاً عند بداية القرن السادس عشر.

هذه الجماعة لم يكن يحكمها قوانين يهود قشتالة ولا الطقوس الدينية ولم تكن تتحدث لغة الميغوراشيم القشتاليين، كل هذه الأمور كانوا يجهلونها عندما يتوجب عليهم أن يبايعوا سلّطة حاخامية تنظمهم "الجمعية المقدسة للمطرودين من قشتالة". من هنا فإنه لا اعتبار أن أولئك اليهود التطوانيين كانوا يهوداً مُبعدة من مملكة غرناطة أو ميغوراشيم قشتاليين لا يوجد سوى خطوة؛ ألا وهى العثور على وثائق تؤكد هذا.

حتى الآن نستطيع فقط أن نؤكد أنه فى عهد المنظرى تأسست وكبرت مستعمرة يهودية فى المدينة التى أعاد بناءها المهاجرون الإسبان - المسلمون.

الهوامش

- Anais... 1-224. (١)
- VILLA-AMIL Y CASTRO, Jose: "Berbería en tiempo de Cisneros ", Bol. de la Soc. (٢)
Geográfica de Madrid- IV- Madrid 1879. pág. 149.
- A.H.N.: - Osuna. L. 3.406-. Fol. 81. (٣)
- SALOMÓN BEN VERGA: "La Vara de Judá". Tr. Cantera. Rev de estdios (٤)
históricos de Granada y su reina". Tomo XIV. Año 1924.
- "Fragmento de la época sobre noticias de los reyes nazaritas". Presentado por (٥)
Bustani y Quiros. Larache 1940.
- C.O.D.O.I.N.: L1. pág. 91. (٦)
- RICARD, R.: Etudes sur l'histoire des portugais au Maroc. Coimbra 1955. pág. (٧)
144 y s.
- GOIS, Damiao de: Croniqua del Rei D. Manuel. Lisboa 1909. II-26 y s. (٨)
- SANCEAU, E. et RICARD, R.: "Un projet de remise de Tetouanl.", Hesperis. (٩)
1957, 1° 2° tr.
- C.O.D.O.L.N.: L1-72 y s. (١٠)
- LADERO QUESADA, M.A.: "Dos temas de la Granada nazarí" en Cuadernos de (١١)
Historia - III- 1469. págs. 343-4.
- GOZALBES BUSTO, G.: "Los judíos en la fundación de Xauen". M.E.A.H. (١٢)
XXVI-XXVIII. Fas 2°, págs. 379-325.
- SALOMÓN BEN VERGA: "Schebet Jehuda". Tr. Cantera. Rev. Est. hist. Grana- (١٣)
da y su reino. XIV. 1924.
- NIC. CLENARDI: - Epistolarum-. Amberee 1566. pág. 40. (١٤)
- S.I.H.M.: Port. 1ª, IV. Pág. 55. (١٥)

- ARANDA, G.: Vida del P. Contreras. Sevilla 1691. págs. 549 y 605. (١٦)
- S.I.H.M.: Port. 1^a III. Pág. 500. (١٧)
- ARANDA: Op.cit. pág. 580. (١٨)
- LAREDO, Abraham I: Les noms de juifs de Maroc. Madrid 1978. pág. 418. (١٩)
- MILLAS VALLICROSA, José M.^a : "Lápidas sepulcrales antropomorfas en los (٢٠)
cementarios israelitas de Xauen y Tetuán". Sefarad VI-1946-. Págs. 63-72.
"Lap. Sepulc... de Alkazarquivir y Tánger". Sefarad IX-1949-. Págs. 421-432.
- VILAR RAMÍREZ, Juan Bt.^a: "El cementerio israelita de Tetuán", en el B.A.O. VI- (٢١)
1970-. Págs. 218-227.
- GOZÁLBES, G.: "Datos sobre los hispano judíos..."C.B.E.T.N." 13-14. (٢٢)
- BOURILLLY J. et LAOUSTE.: "Steles funéraires marocaines". Collection Hes- (٢٣)
peris III-1927.
- BRUNOT, L. et MALKA, Elie: Textos judeo arabes de Fes. Rabat 1939-378. (٢٤)
- (٢٥) انظر الصور الخاصة بدراستي المذكورة في ملاحظة رقم ٢٢ .

الفصل السادس

قادة شمال المغرب والمسيحيون

علاقات غربية

رأينا كيف أن المعارك الحربية لم تكن هي وحدها التي كان يباشرها سيد الشمال المغربي - بن راشد - وكبار القادة البرتغاليين ، بما فيهم ملك البرتغال نفسه . كذلك كان لسيدى على بن راشد علاقات وثيقة جدا مع السلطات الغرناطية : ثافرا وتينديا ، وكذلك مع الملك فيرناندو نفسه .

يبدو أنه في مجال العلاقات التي يمكن تسميتها خصيصاً بعلاقات خارجية ، فإن الصوت المسموع كان دائماً صوت بن راشد ، وهو ما يتفق منطقياً مع دوره كسيد للشمال أو لأرض "بن راشد" ، فهو - كما رأينا - معروف في كل حكاية أو تقرير .

إلا أن ذلك لا يمنع (في أى موضوع خطير أو مفوضة) أن يعطى المنظرى ، بشكل أو بآخر ، موافقة على الخطط التي وضعها حاميه والد زوجته ورفيقه في الكفاح . لقد أثبتنا ذلك في المفاوضات من أجل تسليم تطوان ، التي لم تتم من خلف ظهريهما ، بل بموافقتهما ، المعبر عنها وثائقياً(*) حيث كان المنظرى أحد المنتفعين من الرحيل عن الأرض ، مع حاميه . سوف نرى ذلك الآن ، عن طريق الخطابات والرسل الذين توجهوا إليه ، بالإضافة إلى المفاوضات التي أقيمت بشكل مباشر بين بن راشد وفيرناندو الكاثوليكي .

(*) الوثائق التي يتحدث عنها المؤلف هي كتابات المؤرخين وهي - كما رأينا في مناسبات عديدة - ليست سوى كتابات . (المراجع)

إنَّ غرناطة وما كان يُعدُّ آخر مملكة لبنى نصر ، كانت فى أيدى ثلاث شخصيات ، كما نعلم ؛ الراهب إيرناندو دى تالاييرا وفيرناندو دى ثافرا وإنييغو لوبيث دى مَندوثا . حسنُ إذن ، هناك وثائق معروفة ، ليست بالقليلة ، مع أنَّ هناك تكهنات بأنها كثيرة جدا ، مُعبِّرة عن المراسلات بين ثافرا وتينديا مع بن راشد والمنظرى ، ولثافرا مع سادته ، وبين بن راشد وتينديا وشخصيات أخرى ، تحمى أو تذكر ببساطة بن راشد ، وعلاقات تينديا بسيدده ، المتعاون مع بن راشد والمنظرى فى مشاريع الملك فيرناندو .

كان العاهل الإشباني يعرف بوجود "براكس" قبل عام ١٤٩٢ . إن هذا التأكيد يبدو طموحاً ، حيث إننا لا نستطيع أن نقيم عليه براهين، إلا أن هناك دلائل كافية لاعتباره صالحاً .

لدينا أولاً وثائق فى العام المذكور، ١٤٩٢، وثيقة مؤرخة فى مايو وأخرى فى يونيو، تبرهnan على وجود اتصالات قديمة بين الملك فيرناندو وبين راشد .

الوثيقة المؤرخة فى مايو عبارة عن محضر شرعى يثبت كيف أن حاجب الملكين الكاثوليكين، لوبى دى إيريرا، ينزل مع ثلاثة مدنيين وأشخاص مسيحيين آخرين على شاطئ مدينة ترغة، إقطاعية "على بن راشد"، لتنفيذ العدالة فى المدانين المذكورين، بشنقهم على مرأى من مسيحيين ومسلمين وبربر وعرب، وقد جمعوا أكثر من ثلاثة آلاف شخص لهذا الغرض؛ من الملاحظ أنهم اختاروا يوم سوق أو تسوق، ليكون الحضور كبيراً، لقد كانت الجريمة التى اتهموا بها هى أنهم سرقوا مسلمى غرناطة الذين كانوا يعبرون إلى الضفة الأخرى بأمان ملكى .

لا يمكن إنكار الدليل على أنه عندما يسمح لسفينة إسبانية بإنزال أناس وتنفيذ العدالة فى قلب أرض على الناحية الأخرى من المضيق، كما كانت ترغة، فإنه لكى ينفذ ذلك العقاب النموذجى، تعين وجود اتفاق مسبق بين السلطات العليا فى الضفتين .

بالإضاقاة إلى ذلك، عندما يطلب المسيحيون أن يسلم إليهم مذنبون آخرون، في حوزة "بن راشد"، لمعاقبتهم بالمثل، فإن مندوبي سيد الشمال (لا يعترضون بل يطلبون أيضاً أمولا تخص بن راشد، مسروقة في مالقة، سوف يسلم سيدهم - في المقابل - المذنبين حيث إنهم كانوا يعرفون أنه في خدمة أصحاب السمو. إنها صيغة أكثر من كونها مجاملة تبدو عبارة محترمة للإذعان .

نكرر إن ذلك يقتضى، وجود تعاملات سابقة، نتكهن نحن بأنها مباشرة، إلا أننا حتى الآن، لم نستطع أن نثبتها، إلا بشكل غير مباشر، من خلال الشخصيات الكبيرة في غرناطة المسيحية^(١) .

في الثامن عشر من شهر يونيو من نفس العام، ١٤٩٢، يأمر مرسوم ملكي السيد سيرانو في مالقة، ليعمل ضد فردين وافقا على فدية أسرى، وكان الضامن هو قائد ترعة؛ وقد قدم القائد شكوى ضدهما لأنهما لم يфия بالتزامات الفدية المذكورة^(٢) .

لا شك أن الملكين الكاثوليكين كانا يريدان تأكيد الثقة في حسن نيتهما وبكلمتهما الملزمة، أمام عيني السيد المغربي .

من ناحية أخرى، كان السيد المغربي يريد أن يجد سلطة قوية ومنظمة تعمل كإطار لمشاريعه. عندما لم يجد هذه السلطة في بلده، لضعف الأسرة الوطاسية الشديد، كان يلتفت بعينه، من حين لآخر، إلى فريق وفريق آخر معارض : البرتغال أو قشتالة. هذه الأخيرة كانت مفضلة طوال الوقت، لقوتها التوسعية، التي كان يتكهن بأنها أكبر من البرتغالية وللبريق المبهر الذي كان يحدثه المنتصرون في حرب غرناطة في عيون محاربي بن راشد، حيث كان "بن راشد" طبقاً لـ ليون الإفريقي يعيش هناك، في شبابه، كبطل نشط .

لدينا شهادة تؤكد استعداد شريف الشاون لإمداد المسيحيين على الضفة الأخرى بمساعدة استخباراتية قيمة .

لدينا رسالة طويلة موجهة من ثافرا إلى الملكين الكاثوليكين، مؤرخة في مالقة، في ٢٩ من شهر يونيو، دون ذكر العام، الذي يمكن أن نفرضه قبل عام ١٤٩٢ بقليل، تتعلق في فقرتين منها، بسيدى على بن راشد .

في الفقرة الأولى منهما يقول بالنص :

"... أخبر فكاك أسرى، يعمل في خدمة بن راشد، والذي قدم من هناك، أن براكس بصدد المجيء إلى توروكس Torrox والمياتير Almayater ويقول أيضاً إن مع ظهور الهلال سوف تتجمع أربعون سفينة من سلا حتى بيليث، لتصبح عند مدخل بويونيس Bullones، وأنه لا يعلم إذا كان ذلك لأمر مهم" .

إن مدخل بويونيس هو مضيق جبل طارق، وبالتالي فإن بن راشد يخطر ثافرا عن حشود السفن لقطع حركة مرور السفن المسيحية .

من المنطقي افتراض أن هذا لم يكن الاتصال الأول لثافرا مع بن راشد، إن لم يكن كذلك لكان تعين على ثافرا أن يشرح للملك فيرناندو من كان ذلك المدعو براكس. إن الثلاثة كانوا يعرفون بعضهم بعضاً من وقت سابق وبشكل جيد. بالنسبة إلى ثافرا لم يكن هناك شيء غريب، حيث كان إرساله للسفن والرسل إلى الساحل الشمال إفريقي مستمرا لأجل معرفة الوضع السياسى والعسكرى للممالك هناك، وهى معلومات كان ينقلها بشكل منضبط إلى سيده الملك الكاثوليكي^(٣) .

لنجاح خطط الملك فيرناندو كان من المهم التعرف على قادة تلك السواحل التى كان يفكر فى أن تكون امتداداً لحرب الاسترداد. وليس فقط معرفتهم بل اجتذابهم، كما فعل مع غالبية القادة والرؤساء العسكريين ونبلاء مملكة بنى نصر .

يتضح من رسالة ثافرا هذه أن بن راشد كان يخدم، بمقدار قوته وظروفه سياسة الملكين الكاثوليكين .

فى الرسالة نفسها يظهر بن راشد فى موضوع مختلف جدا عن السابق، يمكن فهمه فقط بمعرفة العالم الذى تتصرف فيه الشخصيات؛ إنه عبارة عن اقتداء الأسرى .

تناولت مع خادم بن راشد الاتفاق الذى سوف تأمرون يا أصحاب السمو بدراسته والخاص بالمائة أسير والذى أرسله لكم موقعاً ومختوماً من قبل الكاتب العمومى^(٤) .

تستمر الرسالة مع وصف تجارة عبيد مقابل البضائع التى تظهر الجانب الآخر الذى تتطور فيه علاقات بن راشد. إن بن راشد يشترك فى ذلك ليس فقط مع المنظرى بل مع شخصيات أخرى من البرجوازية الغرناطية التطوانية - الذين يقومون بتجهيز السفن - وكبار قادة غرناطة المسيحية. إنه مظهر تجارى تكتشف مراحل المتعددة كذلك فى رسائل الكونت تينديا وفى وثائق أخرى^(٥) .

بديهى أنها ليست ذات طابع تجارى تلك الاقتراحات التى يطلبها الملك فيرناندو من سكرتيه، الخبير فى الأمور المتعلقة بشمال إفريقيا، ويجيبه سكرتيه بحذر :

أرسلوا لى لأطلب من سموكم أن تكتب إليهم ما يبدو لى فيما يخص براكس، وذلك لا أستطيعه أنا من هنا لأننى لا أعرف ما هى رغبة سموكم حىال ذلك؛ لكن لو أن سموكم موافقون على ذلك، بالإرادة المعتادة، سيكون أمراً طيباً أن تكتبوا خطاباً، تجعلونه فى خدمة رغبتكم وإن شاء الرب ستكونون سموكم فى هذه الأراضى قريباً، وإنكم من هنا سوف تجيبونهم عن كل شىء وإذا كان لدى سموكم رغبة أخرى، فصدقوا أن لديكم نصيباً كبيراً، لأنه متفق مع ملك بيليث ولديه ما هو أكثر من خمسة آلاف حصان...^(٦) .

بالتالى، فإن الأمر لا يتعلق، بكل تأكيد، بقضايا تجارية، إذ يشير بوضوح إلى كل الأمور المتعلقة بالظروف السياسية الحربية .

ربما كان بن راشد قد قدم مباشرة اقتراحاً للملك الكاثوليكي وهذا الملك، قبل أن يجيب، كان يلتمس نصيحة مستشاره في شئون شمال إفريقيا .

إن رد ثافرا - الموجود بدون تاريخ، مع أنه يفترض أنه نحو عام ١٤٩٣ - يبدو أنه يميل إلى الجانب الإيجابي من العرض المقترح، على الأقل لا يخفى رغبته في قبوله، عندما شوّه - عن وعى أو بدون وعى - البيانات الخاصة بأعداد المقاتلين . لم يستطع سيدى على بن راشد فى أى وقت من النشاط الحربى، ولا حتى بتحالفه مع قوات أخرى أن يكون لديه خمسة آلاف فارس؛ إن التواريخ البرتغالية تحدد القوة الفعلية، أو السقف الذى استطاع أن يصل إليه بن راشد مع المنظرى، لقد قال لنا ليون الإفريقى عنه إنه جمع ٣٠٠ فارس وقال برناردو رودريغيس إنهم كانوا يجمعون ٩٠٠ فارس من تطوان والشاون وترغة؛ عملياً كان كل المعين المغربى الشمالى فى أياد مسلمة .

بالنسبة إلى الكونت تينديا، فهو لا ينتمى فقط لمجموعة القادة المسيحيين التى تتاجر مع مسلمى شمال إفريقيا بل يحتفظ معهم، خاصة بن راشد والمنظرى، بمراسلات متدفقة وشديدة فى ظروف محددة، وتتواكب مع رغبات صريحة عند فيرناندو الكاثوليكي .

يعامل تينديا بن راشد كأخ وصديق ويعتنى بتجارته ويرسله كشيء خاص، رسل، من ناحية أخرى، كان يرسلهم سيد الشاون مباشرة للملك القشتالى، الذى بدوره يرد يرسل آخرين، هذا التيار من المعلومات والاقتراحات أو المشاريع، تمر من خلال كونت تينديا، دون أن يحاول هو أن يتدخل، ولا حتى أن يعرف، بل فقط من أجل رعاية استمرار هذه الاتصالات .

على أية حال كان تينديا أيضاً له مصادر معلوماته وبالتأكيد لم تكن لتمر فى غفلة منه المشاريع التى يمكن أن تكون لدى سيده، ملك إسبانيا .

عندما تبدأ هذه المشاريع فى أن تتحقق، حينئذ يتدخل الكونت إنييغو، ويحرك ماكينة نفوذه وصداقاته كما فى الحالة التى سوف نراها تباعاً، والتى يظهر فيها وهو يتوجه مباشرة إلى سيدى على المنظرى .

تينديا والمنظرى :

ذكرنا فى الفصل الخاص بزواج المنظرى الحادثة التى قام فيها السيد إنييغو بالاستيلاء على عروس القائد، عندما كانوا يحملونها إلى شمال إفريقيا لعقد قرانها على القائد الغرناطى .

إن تلك الحادثة، التى يرجع تاريخها إلى نحو عام ١٤٩٠، تقدم لنا بتسلسل تاريخى أدلة متعددة. النقطة الأولى، كما ذكرنا، هى وجود القائد الغرناطى فى تطوان التى أعيد بناؤها قبل السقوط النهائى لمملكة بنى نصر. النقطة الثانية، وهى التى تهمنا فى هذه اللحظة، هى التيقن تقريباً من وجود تعارف وعلاقة بين كلا القائدين، على الأقل بدءاً من هذا التاريخ .

بما أن المنظرى ترك وطنه طواعية بمفرده، من وجهة النظر العائلية، فقد ترك فى غرناطة، على ما يبدو، عائلة كبيرة وميسورة الحال. سوف نرى فيما بعد مظاهر يبدو أنها تثبت هذا التأكيد الأخير .

إن تأكيدنا على هجرة عضو من عائلة المنظرى، سببه الصمت المطلق من جانب المؤرخين البرتغاليين والمغاربة فى هذا الصدد. ليس هناك منظرى آخر فى تطوان التى أعاد هو بناءها، سوى هو، صاحب العقل القائد لتلك الهجرة الجماعية للمحاربين .

بالنسبة إلى أفراد عائلة المنظرى الذين بقوا فى غرناطة، مثلهم مثل كل العائلات النبيلة إلى حد ما فى العاصمة، كانت لديهم مشاكلهم فى التكيف مع الأوضاع الجديدة التى خلقها غزو المملكة على يد العدو اللدود. وهى مشاكل استمرت بشكل متزايد،

كما نعلم، وانتهت بالاستبدال العنيف والسريع إلى حد ما لطبقات اجتماعية بأخرى، ولبرجوازية ببرجوازية أخرى، ولملك بملك آخرين، وأخيراً، استبدال أنماط حياة بأنماط حياة أخرى لها أبطال مختلفون .

بعض أفراد عائلة المنظرى سوف يصلون إلى ثورة البشرات الكبيرة، لكن إلى هنا تنقطع أخبارهم .

فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر، كان لا يزال يبدو عليهم أنهم يستطيعون التنفس، مع أنهم كمهزومين، كانوا دائماً فى احتياج ليد كريمة تكون لهم درع واق .

فى الفقرة السابقة رأينا تينديا يعمل محامياً لـ بن راشد فى شؤونه بشبه الجزيرة، حسن، نحن متأكدون أنه لعب نفس هذا الدور بالنسبة إلى أفراد عائلة المنظرى الغرناطى، بطلب مباشر أو غير مباشر من مؤسس تطوان. لهذه الأسباب ولأسباب أخرى، نؤكد أنه كان يعرف أشخاصهم وظروفهم، كما أننا نتكهن بأنه كان يعرف الفائدة التى يمكن أن تقدمها تلك الصداقات، سواء مع بن راشد أو مع المنظرى .

ثافرا وتينديا ونبلاء وأعيان كثيرون آخرون من أندلوثيا كانوا يريدون مواصلة حرب الاسترداد إلى الأراضى الشمال إفريقية، وفى ذلك الاتجاه كانوا يخبرون ويشجعون الملك الكاثوليكي، كما يمكن أن يرى، على وجه الخصوص، فى مراسلات ثافرا. كان الملك يريد ذلك أيضاً، لكن لكونه أكثر فطنة ولديه تقارير من كل نوع، كان يجد نفسه مقيداً، بالإضافة إلى ذلك، (لظرف وآخر)، كان يمنعه من العمل بالكيفية التى يريدها وفى الوقت الذى كان يريده، لأن الذى كان يشغل الملوك والرعايا حقيقة فى إسبانيا، كانت السواحل الأكثر قرباً من جنوب شبه الجزيرة، التى كانت قد نشأت منها مخاطر كثيرة فى عدة عصور ماضية والتى كان يخرج منها من جديد خطر آخر لعدم توقف الهجوم على السواحل والملاحة البحرية من جانب الغرناطيين المهاجرين .

لم تكن الموانئ المحصنة، التي احتلها البرتغاليون في السواحل المغربية كافية. بدونها كان الأمر سيصبح بالطبع أسوأ، لكن سكان شبه الجزيرة وصلوا إلى بذل أقصى جهد ممكن، بالنسبة إلى ما يتعلق بالمعين الشمال مغربي، وتم إيقافهم على يد زعيمين كبيرين، هما بن راشد والمنظري. لم يكن بالمستطاع فرض "الحماية"، التي كان يحلم بها البرتغاليون في الشمال، فحاولوا بعد ذلك بقليل فرضها في الجنوب .

لكن المغامرة الحقيقية للبرتغال كانت بلاد العالم الجديد وإسبانيا، مملكة فاس، في تلك القارة فجرت البرتغال أقصى طاقاتها، بحيث لم تكن الطاقات الباقية كافية للشروع في غزو مملكة فاس التي، مع ذلك، كانوا قد طالبوا بها كمملكة خاصة بهم في عدة مناسبات وأخيراً في معاهدة تورديسيلاس Tordesillas في شهر يونيو من عام ١٤٩٤ .

الملك فيرناندو - الذي كان ينفذ صبره، من حين لآخر، في هذه القضية - كان ينتزع كل ما يستطيع من امتيازات، مثلما كان في المعاهدة الأخيرة المذكورة، بشأن اعتراف البرتغال لقشتالة بحقوقها في احتلال مليلة وكزازة Cazaza .

في غضون ذلك، كان الملك الكاثوليكيان يبدآن حملة جزر الكناري، التي تعد بوابة الأطلنطي وحيوية بالنسبة إلى الطرق البحرية الجديدة المفتوحة مع اكتشاف أمريكا .

كان ثافرا يشكو من الأولوية المعطاة لغزو الجزر بدلا من الحملة الإفريقية، لكن منهج الملوك كان دائماً : عدم البدء في شيء قبل إنهاء آخر^(٧) .

في العام التالي لإنهاء احتلال الجزر، تضع إسبانيا قدمها في الواجهة البحر أوسطية لمملكة فاس؛ في شهر سبتمبر من عام ١٤٩٧ تحتل مليلة .

حتى هنا يبدو أن التنازلات البرتغالية وصلت إلى أقصاها. سوف يتعين عليها عدم الوفاء بالمعاهدة وأن تسبب صدمة جادة إذا واصلت قشتالة زحفها نحو غرب مليلة. ولأنه كانت هناك مشاكل من كل نوع، فإن هذه المشكلة الخاصة

بالواجهة البحرية أمام سواحل جنوب شبه الجزيرة تأخر حلها ولو أنها لم تغب أبداً عن النظر .

إن حرب إيطاليا وموت إيسابيل الكاثوليكية والفترة الانتقالية لفيليبى الوسيم، سوف تكون، تاريخياً، المعالم العريضة للسياسة القشتالية، التى جمدت بطريقة ما، المشروع الإفريقى. مع الولاية الثانية للملك فيرناندو، من ١٥٠٧ إلى ١٥١٦ تبدأ دفعة .. جديدة لهذا المشروع .

إن احتلال بيليث دى لاغوميرا أيقظ الشكوك والاحتجاجات البرتغالية، التى تم تهدئتها بحجة أن بيليث مملكة مستقلة عن فاس .

بعد ذلك سوف تأتى، فى الطريق نحو الشرق، سلسلة من الانتصارات المذهلة: وهران، ١٥٠٩، الجزائر وبجاية، ١٥١٠ وطرابلس فى نفس العام .

كان كل شمال إفريقيا من الناحية العملية، باستثناء الطرفين، تسيطر عليه السلطة العسكرية الإسبانية. عن هذين الطرفين، الطرف الشرقى، مصر، بالكاد كان مهماً. الطرف الغربى، شمال مملكة فاس، كان يمثل الكابوس الحقيقى، لأنه لم تكن تتوقف الغارات البحرية على السواحل الجنوبية الأندلوثية، ولا الخطر فى حركة المرور البحرى .

الملك فيرناندو الذى لم يتخل أبداً عن التفكير فى كيفية درء الخطر الأقرب والحقيقى واليومي الذى كانت تشكله سواحل ريف، قرر، فى النهاية، إنهاء هذا الوضع والشروع فى معارك تهدف إلى غزو محتمل لمملكة فاس .

نعتقد أنه كان أمراً ضروريا أن نورد بإيجاز التسلسل التاريخى لإبراز أحداث مملكة فاس، لأن هذه الأحداث، من وجهة نظرنا، منعت تنفيذ الطموحات الأكثر تأججاً لهؤلاء وأولئك. طموحات لها صيغة مهيبة فى التوصيات بشأن إفريقيا، تجسدت فى وصية الملكة إيسابيل .

مرة أخرى، شرع الملك الكاثوليكي، الذي منعته في هذا الصدد، معاهدته مع البرتغال، في طرح سياسة الأمر الواقع. بعد ذلك سوف تأتي التفسيرات إلى صهره وجاره ملك البرتغال .

تينديا، الذي سيكون له معرفة كافية بخطط عاهله، يكتب، في يونيو من عام ١٥١٠، إلى مؤسس تطوان .

. إنها على ما يبدو المراسلات الكتابية الوحيدة، المعروفة حتى الآن، لكل من إينييفو والقائد السابق لقلعة بينيار، لكن من نفس النص الذي سوف تراه تباعاً، يستدل على أنه كانت هناك مراسلات كتابية أخرى، والأهم هو أنه يعزز ظننا السابق أن تينديا والمنظري كانا قد تعارفا من وقت طويل، وأن الأول أدار في مناسبات عديدة أموراً شخصية للقائد أو لأقاربه. سيكون باستطاعتنا إثبات ذلك في المراسلات التي ترافق رسالة السيد إينييفو إلى القائد الغرناطي، إنها رسالة يبدو لنا أنه من المهم حقيقة نسخها هنا، في هذه الدراسة المخصصة بالتحديد لمؤسس تطوان، لأننا، بالإضافة إلى ذلك، نعتقد أيضاً بأن شرح فقراتها يعد أمراً ذا مغزى .

إلى المنظرى ، تطوان :

إلى الفارس النزية جدا، الحاكم والقائد، الشريف النبيل الشجاع
والسيد الخاص، منالسيد إينييفو لوبيث دى ميندوتا، كونت
تينديا، قائد عام لمملكة غرناطة حاكم للمدينة المذكورة وقصرها
الحمراء وقلاعها بأمر الملكة سيدتنا، منذ وقت طويل لا أعرف
أخباركم والآن عندما وجدت نفسى هنا فى مدريد مع السيد
الموقر جدا، السيد كاردينال إسبانيا ومع هؤلاء السادة أعضاء
مجلس الملك والملكة سيدانا، منتظرين كل يوم مجيء الملك سيدنا،
بدا لى أنه من المناسب أن أعرفكم أننى بخير وبصحة وأطلب
منكم أن تتعموا على بكتابة رسالة أخرى منكم، مع الرسول الذى
أرسله لهذا الغرض ولأمر أخرى، أطلب منكم أن تتعموا عليه
بمنحه الثقة والأمان كما أنعمتم على، وأن تكتبوا لى كصديق ما
تريدون أن أفعله هنا، فأنت تعرف أننى صديق لك منذ وقت
طويل(*) بهذا أتشرف أيها الفارس النزية جدا، الحاكم والقائد،
الشريف النبيل الشجاع، ليعطيه ربنا من نعمته، من مدريد،
الثانى عشر من يونيو من عام ٥١٠ .

يوجد نص مكتوب على الرسالة يقول : "كل ما تم إملاؤه حتى" الشريف الحقيقى
سيدى الخاص المنظرى، حاكم تطوان" (٨) .

عندما نبدأ بعنوان الخطاب ذاته ونقارنه مع العنوان الذى رأيناه فى خطاب آخر
مرسل لـ بن راشد، فإننا نلاحظ ألفة أقل مع الحاكم التطوانى ومواظبة أكبر فى
علاقتهم : "من أيام لم أعلم أخباركم". لكن بالإضافة إلى هذه الاستمرارية الأقل،

(*) النص الإشباني يتحدث عن "أيام"، لكن اللفظ نفسه سيتكرر فى الرسالة وبمعنى "زمن طويل" فأثرنا أن
تكون ترجمته هنا على هذا النحو ، (المراجع)

كانت هناك مراسلات سابقة كان السيد إننيغو يحاول أن يستأنفها الآن، ويعرض نفسه للقيام بالتكليفات التي يطلبها منه، ويذكره بأن صداقته ليست من الآن لكن منذ زمن مضى (*). لكن بما أن تينديا موجود في مدريد، كما يقول في رسالته، فإن ذلك يعطى الانطباع بأن كل الأشخاص الذين يذكروهم بدءاً من كردينال إسبانيا، ثيسنيروس، أشاروا عليه بالتوجه إلى الحاكم التطواني، كمقدمة لخطه كانت تحاك في تلك الدوائر العليا .

الرسالة الموجهة للمنظرى أرسلها السيد إننيغو مع قبطان يدعى بالومينو، الذي يستلم، أيضاً، مكتوباً به تعليمات يتوجب عليه بالإضافة إلى ذلك أن يبلغها شفاهة للقائد التطواني .

إلى القائد بالومينو :

أن ما يتعين عليك أن تقوله باسمي للفارس النزيه والشريف، الحاكم والقائد المنظرى هو الآتى : إنه يعرف مقدار الصداقة التي كانت وتكون بينه وبينى والإرادة التي أبعدها دائماً في مساعدة وتسهيل كل شؤونه، وأن تلك الإرادة نفسها لدى الآن. وإذا كان يريد أن أتفاوض هنا في شيء يخصه أو يخص أقاربه فأنا في مدريد حيث يوجد السيد كاردينال إسبانيا وسادة مجلس الملك والملكة سيدانا، فليرسل لى معكم ليخبرنى به، لأننا هنا ننتظر قدوم الملك سيدنا قريباً . من الآن وحتى يأتى، كل يوم نعرف أخبار سموه في ثلاثة أيام، بحيث إننى سوف أستطيع أن أفعل أى شيء يرضيه ويناسبه وسوف أحاول ذلك عن رضى .

(*) إن تعبير "أيام" الوارد في الرسالة يعنى هنا بالضبط "وقت طويل"، وعليه، فإن حديث المؤلف عن استمرارية في المراسلات في جملة سابقة لا يقتعنا كثيراً. نفهم أن المعنى المراد من الجملة السابقة هو "منذ وقت طويل لا أعرف أخباركم" وهو ما يتفق مع بقية الرسالة. (المراجع)

حتى هنا فإن مضمون التعليمات المعطاة للقائد بالومينو خاص بعلاقات السيد إينييفو الشخصية مع المنظرى. هذه العلاقات كانت فى وقت آخر أكثر استمرارية وحسبما يفهم، كانت تتعلق بشكل مباشر بمصالح المنظرى نفسه أو أقاربه أو ملازميه .

يذكر تينديا القائد بذلك، تعبيراً عن رغبته فى العودة لخدمته كما حدث فى الزمان القديم، حتى فى أمور كبيرة وخطيرة، حيث يضع نفسه كمدافع له عند السلطات العليا الأخرى فى قشتالة .

إن ذلك يعطى انطباعاً بأن الكونت يريد أن يضع كل ثقل الذكريات مع المنظرى، التى لابد أنها كثيرة وطيبة جداً، من أجل إعادة بناء ثقة هو فى حاجة إليها فى تلك اللحظات من أجل شىء يتحدد، إما فى طريقه ليكون مشروعاً، وإما فى مرحلة الإعداد، وهذا الشىء كان يتعلق بمنطقة تطوان، كمركز أو كبؤرة لنشاط مسيحي .

إن التعليمات الموجهة للقائد بالومينو تنتهى بشىء يقودنا نحو الغرض الحقيقى للرسالة .

**"... سوف تستطيع أن تختبره إذا كان يريد أن أسعى له أنا
فى عقد معاهدة سلام، أو هدنة، بعد أن تسمع ما قاله عن ذلك،
لا تدع شيئاً دون أن تأتى لتبلغنى به" .**

معاهدة سلام أو هدنة، لماذا؟ ومع من؟. إنها الأسئلة التى نستطيع أن نطرحها على أنفسنا، لأن الحالة أو الوضع الحربى للمنظرى كان متعلقاً بالبرتغاليين فى سبتة والقصر الصغير وطنجة وأصيلة وفى هذه المعارك كان، على العكس، بن راشد وليس المنظرى، هو الزعيم المناسب لمناقشته فى معاهدة سلام أو هدنة .

لا نعلم ما إذا كان تينديا والبلاط القشتالى يعتبران أنشطة القرصنة التى تنفذها سفن تطوان أو ترعة بمثابة حالة حرب. إن أنشطة القرصنة هذه كانت تشغل السلطات الإسبانية جداً بدءاً من الملك فيرناندو نفسه، لكن، فى كل الأحوال، من الغريب عرض

هدنة أو معاهدة سلام فى هذا النوع من المعارك التى كان من المعلوم أنه لا يمكن لهذا الفريق أو ذاك السيطرة عليها بشكل كامل. إن ما نعرفه، من خلال رسالتين أخريين، هو ما كان يسعى إليه تينديا بالتأكيد عندما توجه بمودة إلى المنظرى وأخبره شفاهة عن طريق بالومينو، أن ما كان يريده هو ألا يعترض المنظرى بأية قوة غزوة التأديب التى كان تينديا يعتقد أنها بصدد أن تنفذ، لحرق السفن التطوانية فى عقر دارها فى مصب نهر مرتيل .

هذان الخطابات اللذان نشير إليهما هما، واحد لإنبيغو مانريكى والآخر للملك فيرناندو .

فى الخطاب الموجه للأول، وهو قائد مالقة ، يأتى ذكر السفن بوضوح وإحراقها على أيدي أشخاص قليلين، ينصح الكونت بالألا يتدخل "أناس كثيرون"، هذا هو ما يشير به على قائد مالقة بصفتة المسئول عن الحملة .

هذا الخطاب مؤرخ فى نفس تاريخ الخطاب الذى أرسل إلى كل من بالومينو والمنظرى .

بعد ذلك بأربعة أيام يوجه تينديا خطاباً آخر إلى العاهل الإسباني يفصل فيه بعض البيانات المهمة والتوضيحية : "لقد أرسلتم سموكم تطلبون من محامى فارغاس إبلاغى بما يتعين على بالومينو أن يفعله" .

لقد كان الملك بالتالى ليس فقط على علم تام بل فى جوهر الموضوع نفسه، وهو ما لم يكن من الممكن أن يكون غير ذلك، وحسبما يخيل إلى تينديا أو يبدو له أنها الخطة المقصودة، فإنه ينصح عاهله .

"أنا أعطيت رأياً فى بعض الأمور، على الأخص فى فصل يتكلم عن الهجوم بعدد قليل، لأن رأى وضع على اعتقاد أنه لم يكن من المتعين وجود حراس عند مدخل النهر ولا مع السفن، وأنه إذا كان هناك حراس فسوف يتعين على الذين ذهبوا أن يقتلوهم" .

ليس هناك حاجة لذكر اسم تطوان للتأكد من المكان الذى كانت تتجه إليه فيما يبدو تلك المعركة: مدخل نهر مرتيل والسفن التى كانت تحتوى به. لم يكن بإمكانهم التوجه إلى شخص آخر مباشرة إلا إلى سيدى على المنظرى، الغرناطى، قائد تطوان زعيم تلك المنطقة التى كانت - لا يجب أن ننسى - أرض (بن راشد) .

هل نسى ذلك المحرضون على ذلك العمل؟

ربما نسيه البعض، لكن الملك الكاثوليكي لم ينسه بأى حال من الأحوال. سوف نعرف ذلك فيما بعد .

فى خطاب تينديا إلى الملك لا يزال هناك بعض الفقرات التى ينبغى الإشارة إليها. إلى جانب التوصية الشديدة على السرية فى تلك المهمة، يعرض على الملك سبب قيامه بالكتابة إلى المنظرى :

"بدا للسيد الكاردينال، حتى لو لم يتم شىء، أنه من المفيد جدا أن يعلم المسلمون أن سموكم لديكم الرغبة فى القيام بذلك، فى أن يتوقفوا، لأجل ذلك بدا أنه يتوجب على أن أكتب إلى المنظرى، وهو صديق حميم لى، لكى يذهب بالومينو بالرسالة" .

إن قوله "المنظرى، صديق حميم لى" هو قول ذو دلالة، إلا أننا لا نعلم إن كان يشير إلى صداقة قديمة أو أنه ينتظر، بالفعل، رداً ينسجم مع علاقات ودية حقيقية منذ عهد قديم، كما نظن نحن .

هناك فقرة أخرى ذات دلالة كذلك : "حتى لو لم يتم شىء" إن السيد إينيغون نفسه وحتى الكاردينال، ليسا متأكدين تماماً من أن الحملة سوف تتم، بل أكثر من ذلك، يمكن أن نضيف نحن، ولا حتى يعرفان أى نوع حملة تلك التى سوف تنفذ عملياً. إن الملك فيرناندو، لا شك، هو الذى كان يقرر متى وكيف. سوف يكون بوسعنا أن نبرهن على ذلك لاحقاً .

الكونت تينديا يسمح لنفسه بإعطاء نصائحه ذات الطابع العسكرى، وهى سديدة بدرجة كافية وليست بعيدة عن الواقع الذى شوهه ثاقرا فى موضوعات مماثلة .

"إن ما يجب قوله الآن يا سيدى هو أن سموكم ستكونون على دراية أفضل منى بالناس الموجودين فى ذلك المكان - هناك تأكيد أنهم أكثر من مائتين من الفرسان والجنود والمشاة، والمسافة من عرض البحر كبيرة" .

إن مدفعية السفن، فعلا، لم تكن تستطيع الوصول إلى مدينة تطوان، ولا حتى أن تحمى أى معركة تتشب فى وادى المرتيل ضد دفاعات التطوانيين، الذين سيكون باستطاعتهم أن يجمعوا بسهولة هذه القوات التى تقدر بأكثر من مائتى فارس وما يقرب من الألف من المشاة، طبقاً لرأى السيد إينيغوى السديد .

يقول السيد إينيغوى :

"يتوجب على سموكم أن تأمروا بالآ يتم الهجوم بعدد قليل من الناس، لأنه يقال هنا إنه بالآلف رجل والأربعمائة من خدام الجنود الذين أمرتم سموكم بذهابهم إلى الساحل يمكن تحقيق ذلك، بالنسبة إلى، يا سيدى، يبدو أنه لا يجب أن نحيل كل الأمور إلى الرب، وأن نظن أنه - لأن الأمر يخصه - سوف يصنع المعجزات" (٩) .

إنها فلسفة عملية لقائد جيد كان يبدأ بالتعرف بشكل تام على عدد القوات المعادية والأرض التى كان يتعين القتال فيها ومستويات قواتها .

لقد كان تينديا يظن أن الهجوم على مدينة تطوان لم يكن من الممكن تنفيذه بـ ١٤٠٠ رجل، ولا حتى بضعف هذا العدد حتى ولو كان سيدافع عنها ١٢٠٠ محارب فقط .

إن القائد القديم لقلعة بينيار كان أيضاً مقاتلاً بارزاً، وسوف يستطيع بسهولة أن يهزم الذين يتجاسرون على القيام بحملة بقوات جيش قليلة. أولاً كان يتوجب إقناعه إن لم يكن بأن يساعدهم، على الأقل بتحبيده، والشروع بعد ذلك فى الحملة بالعدد المناسب من القوات .

لكن، فى رأينا، فى هذه المناسبة، لم يكن الأمر يتعلق فقط بحملة تأديب، إن هدف الملك الكاثوليكي كان شيئاً آخر، مع أنه ليس بعيداً عن اختفاء سفن القرصنة والخطر الدائم الذى كانت تمثله. الهدف النهائى بدا أكثر طموحاً بكثير .

كان عبارة عن غزو مملكة فاس، لا أكثر ولا أقل، باستخدام الشواطئ التطوانية كراس قنطرة للحملة العسكرية .
إن ذلك يستحق دراسة مطولة .

الهوامش

- LADERO QUESADA, Miguel A.: Los mudéjares de Castilla en tiempos de Isabel (١)
II. Valladolid 1969
- Arch. Catedral Málaga: L. 62. pég. 44. (٢)
- Cf. Por ejemplo carta de Zafra a los RRCC en Granada a 28-6-1493. C.O.D.O.I.N. (٣)
LI-. Págs 67 y s. Y otra id. id. LI. Págs. 72 y s..
- C.O.D.O.I.N.: LI. Págs 51 y s. (٤)
- Cf. LOPEZDE COCA CASTAÑER, J.E.: "Esclavos, alfaques...". En especial su (٥)
Apéndice. Rev. Hispania - 139- Madrid 1978.
- C.O.D.O.I.N.: LI. Págs 99. (٦)
- C.O.D.O.I.N.: LI. Págs 78 y s. (٧)
- MENESES, Emilio: "Correspondencia del Conde de tendilla" Madrid 1474. -II-. (٨)
Pág. 36.
- MENESES: Corresp..., II - 38. (٩)

الفصل السابع

غزو مملكة فاس

التواريخ البرتغالية :

أكدنا أن الملك الكاثوليكي حاول غزو مملكة فاس على الرغم من الاتفاقيات التي كانت تُدرج تلك المملكة في فلك النفوذ البرتغالي، وهو التأكيد الذي قوبل بمعارضة البعض حتى حينه.

كانت الأضرار والمصائب الآتية من سواحل الريف من ناحية، والمنطقة الأطلنطية من ناحية أخرى كثيرة كي لا يفكر الملك القشتالي في حملة مشابهة، علاوة على ذلك، نظراً للاستحالة المادية للحاميات البرتغالية للشمال الإفريقي من أجل السيطرة على الموقف ذي الخطر المستمر على السواحل الأندلوثية.

لا الحملات في أراضي العالم الجديد البعيدة، ولا النجاحات في أجزاء ساحلية أخرى من شمال إفريقيا حجبت الرؤية عن الملك. إن السرطان الحقيقي بالنسبة إلى إسبانيا كان يتأتى من تلك السواحل الأخرى الأكثر قرباً والتي كانت تقع على بُعد ساعات إبحار قليلة جداً من سواحل أندلوثيا والتي كان الغرناطيون المهاجرون يشنون منها قتالاً، خاسراً، لكنه كان دائماً ثقیلاً بالنسبة إلى المنتصر. كان ذلك ثأر الإسلام الإسباني المخلوع من أرض شبه الجزيرة.

سوف تمتد الحرب لقرون، لأن الدولة الإسبانية اكتفت بالقدرة على صد الهجمات على سواحلها. هذه السواحل سوف تمتلئ بالأبراج والقلاع، وسوف تظل المشكلة بدون حل حتى العصور الحديثة تقريباً.

أراد فيرناندو الكاثوليكي، بنظرة ثاقبة للمستقبل حل المشكلة، كما كانت قد حُلّت مشكلة اتحاد شبه الجزيرة، وكما حُلّت، بشكل جذري، مشاكل أخرى كثيرة، وقفز على

الضفة الأخرى وشكل درعاً واقياً لم يكن البرتغاليون يعرفون أو يقدرّون على خلقه؛
مملكة ملتزمة بدفع الجزية للمملكة القشتالية.

كان الملك يعرف أن البرتغال سوف تعارض دائماً التدخل القشتالي في فاس،
لكنه كان يعرف كذلك وبشكل تام حدود القوات البرتغالية، وأن هذه القوات لن تستطيع
أبداً السيطرة على المملكة المغربية.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الملك البرتغالي مانويل Manuel كان صهره، تزوج أولاً من
ابنته إيسابيل Isabel، وبعد موتها تزوج من ابنته الأخرى الصغرى ماريا María. لقد
كان ذلك يشكل عنصراً مهماً داخل شبكة التحالفات التي نسجها الملك الكاثوليكيان
ضد أعدائهما. لقد كان هناك توازن صعب يحتفظ به بين الرغبات الدفينة لفيرناندو
وهدفه في ألا يوقظ عداءً لا لزوم له.

سوف يستغرق وقتاً طويلاً يفكر في إشكالية تدخله المسلح الذي يشجعه عليه، من
ناحية أخرى، مستشاروه الأساسيون لشئون إفريقيا، الذين كان من بينهم ثافرا Zafra
وتيندياً Tendilla .

إن العلاقات مع بن راشد، زعيم الشمال المغربي، كانت تمده، في أية لحظة،
بمساعدة ليست بالهينة أبداً، على الأقل لكي يتمكن من إنزال عدد كبير من المقاتلين،
دون خسائر في هذه الحملة الوشيكة.

تبدو لنا علاقات القادة المسيحيين هذه مع المنظري وبن راشد، في عام ١٥١٠،
ليست كمحاولة أو ضربة جزئية ضد تطوان وملجئها القرصاني، بل كمقدمة أو تمهيد
لهذه الحملة الأكثر أهمية التي كانت تتضمن قلب نظام الأسرة الوطاسية في فاس
وتنصيب بن راشد، سيد الشمال المغربي كملك يلتزم بدفع الضرائب.

على الأقل هذا الهدف الأخير هو ما تؤكد التواريخ البرتغالية، التي تستحق
روايتها تركيز اهتمامنا، لأنها لا تبدو، بالتأكيد، قصة مصنعة ولا مكتوبة لتبرير شيء
أو من أجل أحد.

النص التالي مأخوذ من غويس:

"أرسل الملك مانويل إلى قشتالة، خوان مينديث دى فاسكو غونسيوس Joanne Mendez de Vascogoncellos، على خلفية بعض الممارسات التى عَلمَ أنها كانت مُثارة بين الملك فيرناندو وملك فاس ومولاي على بارأكسى، التى كان يمكن أن تكون ذات ضرر كبير على هذه الممالك ... كان يتصرف بالأسلوب المتبع".

كان فى قشتالة شريفٌ يُدعى بدرو الباستاردو(*)، شخصاً ذا أصل وتأثير حتى أنه شارك فى الخلافات الكبيرة التى وُجِدَتْ بين فيليبي الوسيم والملك فيرناندو، كان باختصار ينتمى للفريق التابع لفيليبى، وعندما عاد الملك الكاثوليكي فى فترة ولايته الثانية خشى مثل آخرين من الفريق المذكور، من غضب الملك ونفى نفسه مثلاً فعل الكثيرون أيضاً.

اختار لمنفاه الشمال المغربى، وبقي بعض الوقت لاجئاً عند سيدى على بن راشد، "بين المسلمين كان يُعد سيداً عظيماً".

نعلم أن بن راشد، كان يعرف الملك فيرناندو ويتعامل معه، وقد حصل من الملك على عفوٍ عن الباستاردو، بمقتضاه رحل بدرو إلى قشتالة، يحمل معه تعليمات من سيد الشمال المغربى للملك المسيحى.

كانت التعليمات أو الاقتراحات التى قدمها بن راشد إلى الملك الكاثوليكي هى: "أنه إذا وعده بالنظر فى موضوع مملكة فاس، فسوف يساعده بشرط أنه بعد الاستيلاء

(*) أى أنه ابن غير شرعى. الطريف أن هناك كتاباً كاملاً يتحدث عن الأمراء من أبناء غير شرعيين. انظر González Cremona, Bastardos reales, Planeta De Agostini, Barcelona, 1996: (المراجع)

على المملكة يجعله ملكاً عليها، وبعد أن يصل المشروع إلى النهاية التي يريدها هو، أن يدفع بن راشد الجزية، ويطيع ملكي قشتالة في كل الأمور."

لا يمكن أن يكون الأمر أكثر وضوحاً. إن غويس، كما يرى، يجعل بن راشد مسئولاً عن مبادرة المشروع. مع ذلك، من الصعب أن ينقاد الملك فيرناندو ببساطة لاقتراح من هذا النوع. عندما مال الملك إلى الحملة التي كانت تُقترح عليه فإن الموضوع لا بد أنه كان مختمراً في ذهنه.

يُرسل الملك السيد بدرو الباستاردو بخطابات لـ بن راشد ولسلطان فاس. ينزل السيد بدرو عند القلعة البرتغالية بالقصر الصغير، للدخول إلى المملكة المغربية من هناك، إلا أن حاكم الموقع، يشك في شيء، يأخذه بناءً على تناقض في كلامه ويحتجزه عدة أيام ريثما يستطيع قراءة الخطابات التي يحملها الباستاردو. يُخبر بها الملك مانويل، ولكي يخفي الإجراءات التي تم اتخاذها يفرج عن السيد بدرو ورسالته.

"من ثم أعد الملك فيرناندو من أجل هذا المشروع أسطولاً كبيراً
نون أن يعلن عن وجهته، سوى أنه كان ضد المسلمين". كان هذا
الأسطول مستعداً ومتأهباً للخروج من ميناء مالقة، عندما تلقى
الملك فيرناندو رسائل من البابا خوليو الثاني يخبره فيها بتشكيل
تحالف ضده من قبل فرنسا وفينيسيا، ويطلب منه، بالإضافة إلى
ذلك، مساعدته."

"حزن الملك فيرناندو كثيراً، لأنه اضطر إلى التخلي عن هذه الحملة التي كان يريد
أن يقوم بها."

في الحادي والعشرين من شهر مايو من عام ١٥١١، يكتب الملك فيرناندو إلى الملك
مانويل يحيطه علماً بالأخبار التي تلقاها من البابا خوليو الثاني، بشأن فرنسا
وفينيسيا، مُعرباً عن رغبته في تحالف الملك البرتغالي معه ضد الفرنسيين.

” الأمر الذى لم يشأ أن يفعله أبداً والذى كان مغتاضاً منه جداً.”

إن ذلك، إضافة إلى أعمال أخرى غير ودية، يبدو أنه كان رد الملك البرتغالى على محاولات الملك الكاثولىكى التدخل فى الأراضى المملوكة للبرتغال، وإفهامه أنه كان على علم بمشاريعه.

بالنسبة إلينا، فإن غويس، ١٥٠٢-١٥٧٤، يتميز بكونه مؤرخاً معاصراً للملكين اللذين يعرض حياتهما.

إنه يُعد بالتالى مصدراً أصلياً وعلاوة على ذلك فهو مُعتمد كمؤرخ رسمى. يثبت لدينا رقابته من قبل أعلى دوائر البلاط البرتغالى^(١).

إن سرد الأحداث موجز وبصبغات حقيقية مستندة بالتأكيد إلى وثائق أمانة الدولة، التى وضعت تحت تصرفه. إنه بالنسبة إلينا صادق من كل الوجوه.

من المحتمل جداً أن مؤرخاً آخر لاحقاً قد أخذ منه أخباره، مُخصّصاً إياها بقدر استطاعته. هذا المؤرخ هو السيد مانويل دى فاريما، الذى تُعد ترجمته للأحداث مماثلة، لكن بصبغات نقدية أكثر اتهاماً لفيرناندو الكاثولىكى الذى يتهمه بأنه ” مكارٌ ” و ” تعميه المصلحة ”، مع صفات أخرى، ليست أقل قسوة^(٢).

بعد جمع تاريخ الملك مانويل ملك البرتغال، الذى استخرجنا منه الأخبار السابقة، التمس غويس تمكينه من توسعة الكتاب وقد قبل البلاط البرتغالى التماسه مع بعض القيود التى تتعلق بعضها بالتحديد بالفصل الثالث والعشرين من الجزء الثالث الذى يشير إلى محاولة فيرناندو الكاثولىكى غزو فاس.

بما أن تلك الإضافات تشتمل على بيانات عظيمة الأهمية، فسوف نعكسها، لأنها غير موجودة فى أية حكاية أو تاريخ آخر، نون أن نكرر بشكل غير ضرورى البيانات التى قدمها قبل ذلك غويس نفسه، والمكررة فى ترجمته الجديدة.

من بين الخطابات التي كان يحملها السيد بدرو الباستاردو والتي نجح حاكم القصر الصغير في نسخها، كان هناك خطاب موجه إلى "مولاي محمد Mofamed ملك فاس". في هذا الخطاب يطلق الملك فيرناندو إنذاراً نهائياً حقيقياً للعاهل المغربي، مع سلسلة من الشروط كان من الصعب على العاهل الإفريقي أن يتمكن من تلبيتها.

أن يكون الملك تابعاً له وأن يدفع جزية قدرها ألف عملة doblas من الذهب؛ أن تكون هناك موانئ جاهزة لكل البضائع الإسبانية التي تدخل إلى فاس، وأن لا تدخل إلى تلك المملكة بضائع أخرى سوى الإسبانية، على سفن إسبانية، وأن يعطيه رهائن لتأمين السفن والبضائع؛ وأن يسلم إليه قلاعاً في السواحل وكل السفن ذات المجاديف الموجودة في مملكة فاس، دون أن يكون في الإمكان فيما بعد بناء تلك السفن ذات المجاديف. وأنه إذا لبي الشروط المذكورة فسوف يكون هناك سلام دائم بين المملكتين.

لا يستطيع المؤرخ سوى أن يشرح أن تلك البنود كانت غريبة جداً بحيث إن الملك فيرناندو كان يعرف جيداً أن ملك فاس لن يوافق عليها وبالتالي فسوف تكون لديه ذريعة لشن الحرب عليه.

كان هناك خطاب آخر موجه إلى سيدي علي بن راشد، يطلب منه أن يجهز كل أتباعه وأصدقائه وحلفاءه، ونحسب من بين هؤلاء، منطقياً، سيدي علي المنظري، بهدف أنه عندما يجتاح مملكة فاس، تكون لديه صعوبات أقل في خلع مولاي محمد من العرش، وجعله هو ملكاً وتحويله إلى تابع له.

إنه أقصى طموح لـ "بن راشد" الذي أصبح الآن مسناً، والذي كافح طوال حياته ليجعل لنفسه منطقة سيادة يمكن أن تتحول إلى شيء أكبر.

نتذكر في هذه اللحظات فترة الشباب البعيدة لـ بن راشد التي رواها ليون الإفريقي، حينما كان يستحوذ على ضرائب الجبل، المستحقة للملك، أي أنه كان يهدف إلى خلق سلطة في مواجهة السلطة المركزية، عندما كانت تتمكن من إخضاعه مستعينة بجيش قوى^(٣).

إن ضعف المرينيين والوطاسيين سمح له بأن يعيش من الناحية العملية في حالة شبه مستقلة، محتقراً دائماً السلطان الذي يأتى عليه الدور، إلا أن هذا الوضع لم يُشبع طموحاته في السُلطة، التي كانت تدعمها، إضافة إلى ذلك، مواهب غير عادية لسياسى وحاكم ومحارب استثنائى. إن والد زوجة المنظرى وحليفه وصديقه، كان سيقدم، ومعه المنظرى، مساعدة لا تُقدر بثمن فى خطط العاهل الإشباني، لو تم تنفيذ الحملة.

لا يزال المؤرخ يقدم لنا بعض البيانات المهمة: لم يرد ملك فاس على الرسالة لأن مملكته كانت منهكة جداً بسبب فقدان أناس كثيرين، ماتوا بالطاعون فى السنوات السابقة، وقد تحالف الملك فيرناندو بشكل حاسم مع " بن راشد " .

أعدَّ الملك فيرناندو جيشاً كبيراً، دون أن يقول إلى أين كان يتجه سوى أنه كان ضد المسلمين الأفارقة، ومؤلف من أشرف الناس وأكثرهم عدداً من كل الذين خرجوا من سنوات كثيرة من إسبانيا، على حد قول غويس.

لا تدهشنا الحماسة المتبقية من أجل الحملة عندما نعرف اللحظة النفسية لها.

عندما كان الملك فيرناندو على وشك الخروج مع ذلك الجيش من ميناء مالقة، تلقى خطاب البابا الذى كان يحدثه عن الرابطة التي تشكلت ضده، وتنازل الملك عن حملته التي كان مستعداً أن يشارك فيها شخصياً^(٤).

هناك معلومات أخرى منشورة، وهى غضب الملك مانويل الذى يستعد، علاوة على ذلك، لأن يقود بنفسه جيشاً إلى شمال إفريقيا، عندما وضع فى حالة تأهب كل حاميات المواقع البرتغالية القوية فى المعين المغربى الشمالى. وهو ما يُعد إجراءً ممتازاً للدفاع عن حقوقه فى مملكة فاس، لو لم نعرف أن تلك الحاميات بالكاد كانت تحتوى خلف أسوارها، حينما كانت تُهاجم بشكل جاد، كما حدث فى حصار أصيلة، فى عام ١٥٠٨، وقد تم إنقاذ الحامية والمدينة بفضل قوات إسبانية حضرت لنجدها. لا يوجد أى مؤرخ آخر يمدنا بتفصيلات كثيرة عن المحاولة الفاشلة لفيرناندو الكاثوليكي لغزو مملكة فاس.

رودريغيس، المعاصر أيضاً للأحداث، يخصص له بالكاد أربعة أو خمسة سطور، دون أن يتكلم عن غزو قاس، بل عن تدمير تطوان.

"... عندما كان الملك فيرناندو ملك قشتالة موجوداً في إشبيلية أمر بحشد أناس كثيرين بغرض العبور لتدمير... تطوان، لكونها مؤذية جداً لكل ذلك الساحل التابع لأندلوثيا؛ وقد أُلغى القرار الذى أصدره الملك فيرناندو بناء على طلب من الملك مانويل، سيدنا" (٥).

يتعين علينا أن نلفت الانتباه إلى أنه، إلى جانب أخبار أصيلة، التى كان بالتأكيد مؤرخاً أميناً لها، فإن رودريغيس فى المسائل البعيدة عن ذلك الموقع يكتب قليلاً عما سمعه أو قرأه من طرف ثالث و، بالإضافة إلى ذلك، دون الاهتمام بتحديد بيانات، مثلاً فعل عندما بدأ الفقرة التى سوف يوجز فيها نشاط ملك قشتالة، يقول إنه فى السنوات الماضية، عشر أو إحدى عشرة أو اثنتى عشرة (*)، وهو ما يسبب لنا بعض الشك، فى وجود تزوير، أو فى وجود بعض التردد وعدم الدقة فى رواية الأخبار.

لا نجد أى مؤرخ برتغالى آخر ينقل لنا بالتفصيل المحاولة الفاشلة للملك الكاثوليكي على شمال إفريقيا الأقرب للسواحل الإسبانية، إلا أن تاريخ غويس يبدو بالنسبة إلينا كافياً.

إن كون الكتاب قد مُنِع مرتين بقرار الملكة البرتغالية الحاكمة، فى وقت صدور كلتا الطبعتين الأوليين، وكون هذا الفصل الخاص بمحاولة الملك فيرناندو نقض المعاهدات هو بالضبط أحد الأسباب الرئيسية لذلك المنع، يدفعنا إلى منح المؤرخ غويس كل ثقتنا فى صدق أخباره.

(*) أى عام ١٥١٠ أو عام ١٥١١ أو عام ١٥١٢ . (المراجع)

الفقرة الخاصة بالخطاب الملكي الخاص بمنح المؤرخ الإعانة المالية التي طلبها لطبع العمل، تردُّ هكذا:

"Vi os capitulos que me enviastes assim o que falla no C ardenal Infante meu tio como o que toca as cousas d el Rei Dom fernando. No do Cardenal mandei emendar o que vereis, e no del Rei Dom Fernando mudar o que tam-bem vereis pelo caderno que com esta vai, conforme ao qual o fareis lancar em seu lugar"

فيما يخص الموضوع القشتالي، فإن البلاط البرتغالي لا يصحح، لكنه يُغير أو يبدل الفصل، وهو ما يشير إلى أنه كان لا يزال يُشكّل حدثاً جدلياً بين قادة كلا البلدين.

لن يكون التغيير جوهرياً إلى الدرجة التي تؤثر في مضمون الأحداث التي تبدو متماثلة في طبعتي تاريخ غويس، إذ تحتوى الطبعة الثانية على تفاصيل أكثر لا تؤثر في شيء على السياق العام.

تفاصيل، من ناحية أخرى، لا نعتقد أنها كانت السبب في التصحيحات التي تمت بيد الملك. هذه التصحيحات سوف تشير على نحو خاص، إلى انتقادات أو أوصاف أشد قسوة وعدائية، وُجّهت للملك فيرناندو، الذي، هو في نهاية الأمر، كان أصل العائلة الملكية البرتغالية.

عندما كان غويس، كمؤرخ رسمي، يستعمل وثائق أمانة الدولة البرتغالية كان، في وقته، الأفضل إحاطة بالموضوع الذي، في اعتقاد البرتغاليين، كان يضر بشدة مصالحهم في إفريقيا.

فيما بعد سوف تقنعهم الظروف بما هو عكس ذلك.

التواريخ القشتالية:

لا نجد عند المؤرخين الإسبان شيئاً شبيهاً لرواية غويس. ليس السبب هو أنهم كانوا يجهلون الحملة المخططة للملك الكاثوليكي على أراضٍ في إفريقيا، فهذا الأمر

كان يعرفه الجميع، لكن أيًا منهم لا يتحدث عن أن فاس كانت الهدف الواضح للملك فيرناندو.

المؤلف المجهول الذي واصل ما بدأه بولغار يذكر أن الملك رأى أن هناك أربع مدن لها موانئ جيدة جدا كانت تُعدُّ كل منها مدخلا آمناً لإفريقيا كلها وأن هناك ملوكاً كثيرين وقَّعوا معه اتفاقيات هُدنة، يدفعون له الجزية، مثل ملوك بيليث وتلمسان، " وقرر هو نفسه بشكلٍ حازم أن يذهب بشخصه ليعبر إلى إفريقيا"، وكان السبب، ببساطة، هو القتال من أجل الدين.

من أجل هذا الهدف الخاص بالعبور شخصياً إلى إفريقيا، جمع المجلس في مونثون، في عام ١٥١٠، بهدف طلب المال من أجل هذه الحرب التي " كان يعتزم القيام بها ضد مسلمين أفارقة ". على ضوء هذا البيان التاريخي نرى أن مراسلات ورسائل تيندياً إلى المنظرى في هذه التواريخ كان لها ما يُبررها.

يتعين علينا أن نلاحظ - على ضوء ما قاله المؤرخ - أنه، إذا كانت هناك موانئ محتلة في إفريقيا، وكان هناك ملوك يدفعون الجزية فلم يعد هناك شيء كثير يمكن أن تقوم به حملات إلى الشرق من مليلة، وتتطلب بذل مجهود كبير جدا.

في أوائل عام ١٥١١، غادر الملك مدريد متوجهاً إلى إشبيلية، وقد أمر بتهيئة الأمور وتجهيز عمليات التموين اللازمة لجيش ضخم مثل الذي كان يجمعه، وهو ما كان يصل إلى مدينة قادش حيث كان من المتفق عليه أن يجتمع الأسطول والجيش "الذي كان يتعين عليه أن يعبر مع جلالته؛ وهو ما رأيناه جميعاً بوضوح بأعيننا، ولا أحد يمكنه أن ينكر، وكل الناس يقرون بأنهم يعرفونه ورأوه".

يبدو كما لو أن، في وقتها، كانت هناك اختلافات فيما يخص الحملة وأهدافها.

يوجد اختلاف مع غويس: يجعل المؤرخ البرتغالي من مالقة نقطة انطلاق الأسطول الإسباني، في حين أن المؤرخ القشتالي يحدد مكانها في قادش.

ولكون المؤرخ القشتالي، كما يصرح، شاهد عيان على الحشد، فإنه يتعين علينا أن نصدق بأن المحاربين الرئيسيين قد التقوا بالفعل في قادش، لكن تجمعت أيضاً في مאלقة عتاد وموئن عديدة، كما هو مثبت وثائقياً، طبقاً لما سوف نراه. قادش ومالقة، كلاهما كانتا قريبتين من الهدف.

بعد أن عُرف وأُشيع في كل إسبانيا الإعلان بأن الملك سيذهب شخصياً، تطوع سادة عظماء على نفقتهم لعبور البحر مع الملك وحضر جزء كبير منهم إلى مدينة إشبيلية، مثل رجال آخرين وفرسان وأناس من العوام وأشراف كانوا يريدون العبور لمحاربة المسلمين.

"لقد كان العدد كبيراً بحيث لا يمكن تصديقه والسفن الكثيرة والأسطول الضخم الذي تجمع في قادش لم يتسع ولم يستوعب أناساً كثيرين. أقول لكم إن شباناً كثيرين جاءوا من إنجلترا لخدمة صاحب الجلالة في هذه الحرب المقدسة...".

إنهم رُماة سهام إنجليز، فعلاً كانوا لا يزالون يلعبون دوراً معيناً في المعارك، حيث كان دور البارود في بدايته.

بعد الحشد والتجهيزات الكثيرة تصل الأخبار من البابا ويترك الملك فيرناندو "كل أفكاره وأسطوله وعتاده الذي كان قد أعده بتكلفة لانهائية"، وذهب إلى بورغوس ليتابع الموقف الأوروبي الجديد^(٦).

هناك نقاط اتفاق كافية، من الممكن رؤيتها، بين الروايتين القشتالية والبرتغالية. في عام ١٥١١ يفكر الملك الكاثوليكي في أن يقود شخصياً حملة إلى شمال إفريقيا.

لا يذكر المؤرخ الإسباني المكان أو الغرض من حملته، لأنه من المحتمل أن الملك لم يبح له بذلك؛ يؤكد غويس أن الهدف كان مملكة فاس ويورد الأدلة اللازمة.

يقول غويس إن مالقة كانت مكان حشد الأسطول، فى حين أن زميله الإسباني يشهد أن فى قادش تجمع أسطول وجيش. نعتقد أن التفسير الذى قدمناه يلائم كلتا الصيغتين.

لا يأتى غالينديث دى كارياخال بشىء جديد أو استثنائى. يضيف فقط أن الملك وصل إلى إشبيلية فى فبراير من عام ١٥١١، عندما كان يُعد جيشه لعبور المضيق، وهو ما عرقلته كل المملكة، مع أن الحقيقة أنها كانت، فى السر، ضد ملك فرنسا.

ثم تأتى فقرة لا توضح لنا شيئاً كبيراً:

" أرسل الملك هذا العام الجزء الأكبر الذى كان لديه من جيشه من أجل عبور المضيق، وقد أبحر الجيش من مالقة ". لا يقول لنا أين ذهب هذا "الجزء الأكبر من جيشه" وليس كله بالتحديد، بل الذى كان يعده، والذى يذكر غالينديث بأنه أبحر^(٧).

لا يوضح لنا برنالديث أيضاً الهدف من هذا الأسطول الضخم الذى يُنظَّم بطلب من الملك، ويحتشد فى إشبيلية ومالقة وفى كل موانئ أندلوثيا، حيث تتراكم أيضاً إمدادات لا نهائية من القمح والشعير والنبيد والجبن وشحم الخنزير والأسلحة وكل الأمور الأخرى التى كانت ضرورية.

إن ما كان يُحدد مكانه عند البعض فى مالقة وعند آخرين فى قادش، هنا هى كل موانئ أندلوثيا، وهو أمرٌ أكثر منطقية، إذا كانت الحملة قد جُهزت على نطاق واسع وليس من أجل وقت محدد أو حدث منفصل، مثل تدمير مدينة ساحلية معادية وانسحاب سريع للقوات.

دخل الملك إشبيلية فى فبراير من عام ١٥١١، معلناً الحرب ضد المسلمين هناك فى إفريقية، وأنه سوف يعبر بشخصه، " إن القرى والمدن، كانت حزيمة، لأنه سوف يعبر بنفسه... وكتبت له بعض المدن تطلب منه ألا يعبر، بل يرسل القادة..."^(٨).

لكن الملك فيرناندو ردُّ بآته كان يتعيَّن عليه أن يعبر بمساعدة الرب.

لقد تأكّدت كل أخبار عموم المؤرخين، الإسبان والأجانب من رغبة الملك الكاثوليكي في الذهاب شخصياً على رأس جيش قوى، لقتال الكفار في الأرض الإفريقية نفسها. إن مكان هذه الأرض الإفريقية هو الذي لا نعرفه، مؤقتاً، داخل التواريخ القشتالية مع أنه نادراً ما تتجمع قوات كثيرة للهجوم على مدينة.

يُنهي برنالديث، مثل الباقيين، هذا الموضوع بالأخبار التي وردت من البابا، والتي بسببها "تعيَّن عليه - على الملك فيرناندو - أن يترك العبور إلى شمال إفريقيا، مع أن السفن كانت جاهزة والإمدادات وصلت، وأناس كثيرون من الذين كان قد تعيَّن عليهم أن يعبروا، جاءوا ورحلوا عن أراضيهم ليعبروا...".

بدا الملك غاضباً جداً عند تلقيه خطابات البابا، وأمر بصرف الناس الذين كانوا قد تجمعوا. من بين هؤلاء، يتذكر برنالديث أيضاً ألف وخمسمائة رامى سهام إنجليز. لا شيء جديداً يقوله لنا مؤرخون آخرون، بالكاد يشيرون إلى الموضوع.

ربما لكون الموضوع تم تأمله بشكل فيه كثير من التحيز من قبل كاتب برتغالي فقط لم يركز المؤرخون المعاصرون القشتاليون انتباههم حتى في عقدة القصة، التي تم سردها إلى حدٍ ما من أجل النيل من مكانة صورة فيرناندو الكاثوليكي.

لكون الحملة فاشلة من حيث المبدأ فإن التأريخ الإسباني اللاحق لم يسلط انتباهاً كثيراً عليها. لنضع في الحُسبان أن العاهل الإسباني نفسه كان هو الذي أخفى دائماً الهدف الأخير الذي كانت تكرر له كل تلك الاستعدادات والتي لم يفسر الهدف منها، حتى بعد صرف النظر عنها.

في أيامنا، مؤرخون لفترة حكم فيرناندو، لا يذكرون حتى المحاولة على الرغم من أنها محددة بوضوح في حوليات وتواريخ ذلك العصر.

وثائق أخرى:

سوف نختم بإيجاز هذا الفصل الخاص بحملة قاس التي خطط لها فيرناندو الكاثوليكي، عبر أراضى بن راشد والنزول على شواطئ يسيطر عليها المنظري، بوثائق ذات طابع مختلف عن التي تم فحصها حتى هنا والتي كانت عبارة عن تواريخ العصر، البرتغالية والقشتالية.

كانت المؤن التي تم جمعها في مالقة من أجل الحملة وفيرة جدا كما يوضح المؤرخون بشكل صائب، من الطبيعي عندما أُلغيت الحرب التي خطط لها، أن أصبحت كل تلك المؤن إلى حدٍ ما مُعرضة لفقدائها الكلي أو الجزئي، مع الأضرار المترتبة على ذلك بالنسبة إلى التجار أو الممولين الذين كرسوا أنفسهم بشكل خاص لذلك وانعدام الثقة المترتبة على ذلك في الخزانة الملكية إذا جرت في المستقبل أحداث من هذا النوع، من هنا فإن الملكين أصدرام أمراً ملكيا يعطى فترة ستة شهور، حتى يمكن في تلك المدة بيع المواد المخزونة، بأفضلية على مواد أخرى، وقد لبوا على هذا النحو بالتأكيد طلبات المتضررين، هذا الأمر الملكي محفوظ في أرشيف بلدية مالقة، وهو ما يُعد حجة لنا، بالإضافة إلى المشروع في حد ذاته، على أن له وثائق أكثر من اللازم تكفي لكيلا نشك في حقيقته وفي أهميته، إذ احتاج الأمر إلى ستة أشهر من أجل التخلص من كمية كبيرة من الأطعمة المتراكمة^(٩).

يعطى الأمر الملكي فكرةً، ليس فقط عن عدد القوات التي كانت على حد قول المؤرخين كبيرة جدا، بل أيضاً عن مدة الحملة، التي لم يكن يظن أنها ستكون قصيرة، يتعين علينا، كما قرأنا، اعتبار أن الاستعدادات من أجل الحملة كانت قد اتخذت في كل موانئ أندلوثيا وليس فقط في مالقة. إنها أسباب إضافية تؤكد أهميتها.

بعد ثمانية عشر عاماً من هذه الحملة الفاشلة، اختفى أبطالها الأساسيون؛ فيرناندو الكاثوليكي ومانويل الأول ملك البرتغال وسيدى على بن راشد، بقي فقط منظري عجوز وأعمى موجود في حكومة تطوان وإقليمها كظل فقط، لأن الذين كانا

يتولى ان السلطة حقيقةً هما زوجته ست الحرة وشقيقها مولاى إبراهيم، المفضل عند سلطان فاس، الذى تغير أيضاً، أصبح يحكم فى البرتغال خوان الثالث، ابن الملك مانويل والسيدة ماريا، الابنة الصغرى للملكين الكاثوليكين. هو إذن حفيد فيرناندو وإيسابيل ابن عم للإمبراطور كارلوس. فى عهده تم التوصل إلى نتيجة مفادها أن المواقع الإفريقية القوية، " الحاميات"، مكلفة بشكل أكثر من اللازم للخزانة العامة مقارنةً بالربح الحقيقى الذى تُدره أو المنفعة والخدمة التى تقدمها.

لقد كان كفاح بن راشد والمنظرى يعطى بالتالى ثماره على المدى الطويل.

يقرر القصر البرتغالى التخلّى، إن لم يكن عن المواقع كلها فعلى أغلبيتها، لكن قبل ذلك يستشير خوان الثالث كبار البارزين فى المملكة فى إلغاء أو إعادة تنظيم تلك المواقع الواقعة فيما وراء المضيق.

تُعد الفقرات المأخوذة من رسالة يوجهها دوق براغانشا إلى الملك، ومؤرخة فى بيايتيوسا فى الثانى عشر من فبراير من عام ١٥٢٩ رداً على هذه الاستشارة.

يُعبّر الدوق عن أفكاره بخصوص تكلفة الحاميات بشمال إفريقيا، متخذاً الحطب كمثال، الذى يكلف إحضاره من إفريقيا أكثر مما لو جلبَ من إسبانيا أو البرتغال. يقول الدوق إنه يتعين سحب سلاح الفرسان وترك المشاة فقط، لأن الفرسان هم الذين يسببون الأضرار الكبيرة للقلاع وهم بلا شك الأكثر كلفة.

يرى الدوق أنه من الأفضل التنازل للإمبراطور كارلوس عن مواقع سبتة، والقصر الصغير، وطنجة وأصيلة، والاحتفاظ فقط بأزمور Azzemur وصافى Safi، اللتين تُسببان نفقات قليلة؛ بالإضافة إلى أن التنازل عن تلك المواقع سوف يوفر الاحتفاظ بأسطول فى المضيق.

غير أن الفقرات الأكثر أهمية فى الرسالة هى تلك التى تذكر الموضوع المتناول فى هذا الفصل، أى حملة الملك الكاثولى على أراضٍ إفريقية.

... "me pesou muito de voso pay nom dar licença para se tomar Totuao a el Rey voso avooo, a ainda segundo meu voto, ele lhe ouvera d ajudar a tomar , e meter nyso huua quintelada; e o conservar da conquista nom he senao pera quem tem as ma os na masa, para querer executar, mas pera as ter asy enba-raçadas, e nom nas consentir aproveitar a outrem, ou o nao procurar aimda que as exercytem, parece que tem huua leiva de cao de palheiro".

لقد أحزننى كثيراً من أبيكم أنه لم يُعطِ الإذن بالاستيلاء على تطوان من الملك جدكم، وهو ما يعنى أن دوق براغانثا عاش تلك اللحظة التاريخية ويؤكد لنا، على وجه الخصوص، رأينا، حول المكان الإفريقى الذى كان يفكر الملك فيرناندو فى التوجه إليه أو إنزال جيشه فيه. لم يكن شرق مليلة، لكن، كاحتياط أولى، الاستيلاء على تطوان التى نعتقد أنها هدف أولى، وأن غويس كان على حق. الهدف الأخير كان سيكون مملكة فاس.

يعود دوق براغانثا فى نفس الرسالة للتذمر من شكوك أبناء وطنه، الذين منعوا تحقيق استفادة كبيرة من قوات شبه الجزيرة.

يبدو له أن ملك البرتغال ليس قويا بما فيه الكفاية كى يتم احتلال مدينة فاس، وليس لديه من المال ما يساوى نقل خمسين أو ستين ألف رجل يذهبون ليقطنوا فى شمال إفريقيا. إن ذلك يمكن أن يفعله بسهولة جداً ملك قشتالة بسبب المدن الكثيرة التى لديه، وبالإضافة إلى ذلك لكون القشتاليين طموحين جداً للتجديدات.

يقول بعد ذلك إنه من الممكن توطين رهبانية الأوسبيتال فى سبتة والقصر الصغير؛ بذلك سوف تمنع سفنهم المسلمين من عبور المضيق.

" وستكون خدمة للرب أن نمنع أسر أشخاص كثيرين، وسيكون ذلك تعويضاً عن أسر أشخاص كثيرين فى تطوان ... ويعلم الرب قدر حزنى على ذلك."

"()

يوجد بالتأكد أَلَم مَرِير لَدَى دُوق بَرَاغَانثَا وَهُوَ يَتَذَكَّر مَا كَانَ مِنَ الْمَمَكْن أَنَّ يَكُون وَلَمْ يَكُنْ وَالنَتَائِج الَّتِي يَعَانِيهَا بَلَدُهُ الْآنَ بِسَبَبِ الْاِحْتِفَاز بِمَوَاقِع قَوِيَّةٍ لَمْ تُؤَدَّ، فِي وَقْتِهَا الْمُنَاسِبِ، إِلَى تَلْبِيَةِ تَطَلُّعَاتِ شَبْهِ الْجَزِيرَةِ فِي تَوْسِيعِ حَرْبِ الْاِسْتِرْدَادِ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنَ الْمَضِيقِ.

بَعْدَ هَذِهِ الْمَحَاوَلَةِ الَّتِي قَادَهَا فِيرِنَانْدُو الْكَاثُولِيكِي، لَمْ تَحْدُثْ مَحَاوَلَاتٌ أُخْرَى عَلَى شِمَالِ إِفْرِيقِيَا الْقَرِيبِ تَسْتَحِقُّ أَنْ تَوْضَعَ عَلَى مَسْتَوًى ذَلِكَ الْمَشْرُوعِ الْفَاشِلِ.

إِنْ حَمَلَاتِ الْمَعْمُورَةِ، فِي مَصَبِ نَهْرِ سَبُو Sebu وَالْعَرَائِشُ فِي مَصَبِ نَهْرِ لُوكُوسْ، هِيَ حُرُوبٌ دِفَاعِيَّةٌ بَسِيطَةٌ.

وَلَا حَتَّى أُمَكْنِ الْاِسْتِفَادَةَ مِنَ الرِّغْبَةِ فِي اِسْتِسْلَامِ الرِّبَاطِ وَقَلْعَتِهَا.

يَشْهَدُ الْقَرْنُ السَّابِعُ عَشَرَ، حَيْثُ تَجْرِي الْأَحْدَاثُ الَّتِي ذَكَرْتُ لِلتَّو، لَيْسَ قِمَّةُ الْقُوَى الْإِسْبَانِيَّةِ بَلْ اِنْحِدَارُ قُدْرَتِهَا.

إِنْ رِسَالَةُ دُوقِ بَرَاغَانثَا إِلَى خَوَانِ الثَّالِثِ تَشْكَلُ هَكَذَا، وَثِيقَةٌ ثَمِينَةٌ، وَلَكُونَهَا بِالْتَحْدِيدِ مِنَ الْجَانِبِ الْبَرْتِغَالِي فَهِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا تَنْطَوِي عَلَى قِيَمَةٍ عَاطْفِيَّةٍ وَتَارِيخِيَّةٍ.

لَا يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَصْنَعَ تَارِيخًا خَيَالِيًّا، كَمَا هُوَ مَنْطَقِي، بَلْ نَفَكِّرْ فِي النَتَائِجِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي كَانَتْ سَتَحْدُثُ لِأَجْلِ التَّحْوِيلِ التَّارِيخِيِّ لِشَبْهِ الْجَزِيرَةِ لَوْ تَمَّ تَنْفِيزُ جُزْءٍ مِنْ جُهُودِ التَّوَسُّعِ الْأُورُوبِيِّ وَالْأَمْرِيكِيِّ فِي بِلَادِ شِمَالِ إِفْرِيقِيَا، خُصُوصًا تِلْكَ الْمُنْتَمِيَّةُ لَغَرْبِ الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ، الْمُنْتَشِبَةُ بِهَجْرَةِ إِسْبَانِيَّةٍ.

الهوامش

- GOIS, Damiao de: Crónica d'el Rei D. Manuel. Lisboa 1909.3.^a parte. Cap. XXIII. (١)
- FARIA y SOUSA, Manuel de: África portuguesa. Lisboa 1681. pág. 99. (٢)
- L'AFRICAIN: 1-271 (٣)
- GOIS: Op. cit. Vol. XII. Págs. 73 y s. (٤)
- RODRIGUES: Anais, 1-90. (٥)
- CRONICA DE LOS RECC D. FERNANDO e D.a ISABEL: B.A.E. (٦)
- Id.id.id. Pág. 558. (٧)
- Id.id.id. pág. 743. (٨)
- Archivo del Ayuntamiento de Málaga. Libro de Provisiones. Vol. VI. Fols. 14 vt.o y (٩)
15 vt.o.
- S (ources) I (nedites) de l'H (istoire) du M (aroc). S.I.H.M. Portugal Tom. II-2.a (١٠)
París 1946. págs. 443 a 445.

الفصل الثامن

وفاة المنظرى وخلافته

طول حياة المنظرى

توفى سيدى على بن راشد المجاهد العظيم فى الشمال المغربى عام ١٥١١- وهو نفس العام الذى تقرر فيه غزو الملك الكاثولىكى، لا تعرف خطط أخرى لهذا الملك على هذا النطاق فى شمال إفريقيا- فبعض من تلك الحروب كان يرجع إلى سياسة شبه الجزيرة، التى شهدت قبل موت السيد فيرناندو عام ١٥١٦ اندماج مملكة نابارا، والبعض الآخر يرجع إلى موت سيد الشاون الذى سيكون حافزاً قويا للاقتراب من قشتالة، التى كانت تمثل أكبر قوة فى ذاك العصر.

وكان مولائى إبراهيم نجل بن راشد وصهر المنظرى مهتما بالسياسة الداخلية للدولة المغربية فوضع سلطاناً على هواه وصار رئيساً قويا للوزراء، ولم يكن رغم مهاراته الفائقة كحاكم وكمحارب قادراً على تجنب سقوط الأسرة الوطاسية وانهيار الدولة.

وقد توفى أيضاً قبل موت المنظرى.

وقد عاش مؤسس تطوان أكثر مما عاشت مآثره وبطولاته، ولكننا نعرف أن أحداً لم يضعه فى الحساب فى أى نشاط مخطط ضد الأرض الخاضعة لحكمه.

ومع ذلك فإن قوارب الاستكشاف التى كانت تلجأ إلى نهر المرتيل كانت تقلق مسئولى السلامة البحرية فى الشواطئ الأندلوثية. وعلى الأقل نعرف مجموعة من الرسائل المتعلقة بهذا الموضوع كتبها كونت تنديا على مدى عام ١٥١٣ ، وفى السادس

من يناير كتب إلى الملك متعهداً بإخراج " القوارب الاستكشافية من تطوان، إذا جاءت السفن في وقت الليالي العظيمة" (*).

وابتداء من فبراير حيث كتب تندياً إلى كونت ألكوتين الحاكم البرتغالي لسبتة، كانت هناك خطة لهذا الحاكم، حيث كان يريد الاعتماد على الأسطول البحرى الإسباني طبقاً لما يستنتج من الرسالة التى وجهها السيد إننيغو إلى الأب بيرنخيل دومس قائد السفن فى ٢٥ مايو:

"لقد كتب إلى فى هذه الأيام الماضية السيد كونت ألكوتين القائد العام لسبتة أنه يريد أن يدبر حيلة لخروج قوارب الاستكشاف من تطوان... وكان يبدو أن هناك عوائق كبيرة فكتبتُ إلى جلالته... فأجابنى الملك... أما بالنسبة إلى فأرى ألا نغامر بسفُنك، على الرغم من إمكانية المغامرة ببعض الناس فما يمكن إدراكه لا ينبغى تركه. ولكن أرى أنه لا ينبغى التجربة بحيلتين مجتمعتين... إخراج السفن واجتياح بعض الأماكن... حيث يأتى أكبر الخطر من تطوان...".

ثم رجع يكتب إليه فى الشهر التالى قائلاً له إن البرتغاليين هم أناس طيبون ولكنهم لا يحفظون السر لذلك "كان المسلمون قد تنبهوا إلى الحيلة التى دبرها البرتغاليون أصحاب القوارب الاستكشافية".

لذلك وكما هو معهود كان على تنديا أن يُعلم سيده: "لقد أخبرنى قائد السفن أن لديه معاهدة لإخراج قوارب الاستكشاف من تطوان بمساعدة كونت ألكوتين وأنه فى بولبونس (تقع بولبونس فى مضيق جبل طارق) وأن المسلمين قد أسروا رجلاً ليعرف هذه المحاولة مما أدى إلى اكتشافها...".

(*) لم نتوصل إلى معرفة المعنى المراد بهذا المصطلح ، وربما كان المؤلف يشير إلى الليالى القمرية.
(المراجع)

وكانت هناك رسالة أخرى إلى الملك فى سبتمبر تتحدث عن تلك الخدعة كشىء مضى (١).

وباستثناء تلك الحيل، فإننا لا نجد حتى عام ١٥١٧ تقريباً مخططات أخرى ضد تطوان فيما بقى من فترة حكم أو وصاية السيد فيرناندو على العرش، ومن جانب آخر فلا يزال لدى قائدها أعمال حربية كثيرة وذلك طبقاً للمؤرخين البرتغاليين.

وبعد ذلك، فإن ضعف قواه الجسدية وخاصة إصابته بالعمى، قد أسدلت ستاراً كثيفاً من الغموض على آخر سنين عمره الطويل.

وهنا بالتحديد يسير الكتاب المغاربة بحذر، فالبعض منهم يؤرخ موت المنظرى عام ١٤٩٤ أو ١٤٩٥، وهو شىء سهل رفضه من خلال الوثائق. فقد رأينا سابقاً بعض الأدلة المتعلقة بافتداء الأسرى بتاريخ ١٥٢٣ والتي ذكر فيها أن المنظرى كان يملك أربعة عشر منهم. وكان عشرون ينتمون إلى محمد إبراهيم، مما يشير إلى الزعامة التي تحركت خلالها البرجوازية التطوانية فى ذلك الوقت.

ولم يختلف المنظرى فى عام ١٥٢٣ جسمانياً ولكن اختفى عملياً وبقي تحت سيطرة كل من زوجته ست الحرة وصهره، والبعض يتحدث عن منظرى ثان ومنظرى ثالث، وحتى عن منظرى رابع، وآخرون يتحدثون عن ابن أخ له ويتحدثون حتى عن حفيد.

لذا فربما أخطأ ليون الإفريقى الذى أعلن أنه زار المدينة حينما كان يحكمها حفيد المنظرى، الذى كان قد مات ضريراً مسناً قبل ذلك بقليل.

ومثل هذا التصريح من الممكن أن يستخدم على الأقل لتعديل وجهة نظر هؤلاء الذين حددوا موت القائد فى نهايات القرن الخامس عشر، وهذا شىء غامض إزاء تأكيد الإفريقى أن المحارب العظيم كان قد مات قبل زيارته للمدينة بوقت قليل، والتي لم تتم قبل نهاية العقد الثالث من القرن السادس عشر.

وبالتالى لا نعرف من أين جاء خلفاء المنظرى هؤلاء الذين ذكرهم مؤرخ مغربى بتسلسل زمنى بادئاً بالديب Ad Dib مؤسس القصة وكذلك آخرين قليلين،

ولا ينبغي أن ندخل فى تدقيقات حين ما إذا وجدت تلك الأسماء فى تاريخ تطوان، ولكن نستطيع أن نؤكد بشكل قاطع أنهم لم يكونوا خلفاء للمنظرى، وكذلك يمكن التأكيد بكل وضوح على أنه لم يكن هناك منظرى ثان ولا ثالث، حيث إن خليفة الزعيم فى الحكم لم يلقب باسمه ولا حتى طمح إلى ذلك.

وقد طالت حياة المنظرى حتى نهايات عام ١٥٤٠ أو بدايات عام ١٥٤١ وإن لم تكن سنوات حكمه قد طالت.

ويؤكد لنا ذلك الكتاب الذى كتبه الراهب اليسوعى غابرييل دى أراندا بعد ذلك بقرن تقريباً، محاولاً تقديم الأدلة والأحداث المهمة والضرورية لترسيم مبشر إشبيلي هو الأب فيرناندو دى كونتريراس على أنه قديس،

ولكى يتم القيام بالمهمة بشكل دقيق، يجرى البحث عن شهود ووثائق وإثباتات يمكن إيجادها، وتم مضاهاة التواريخ بعناية، وفى النهاية كان يتم البحث عن كل أنواع الآثار لكى تظهر أن الكاهن فيرناندو دى كونتريراس الذى كرس الفترة الأخيرة والكبيرة من حياته لافتداء الأسرى، كان جديراً بأن يكون قديساً.

إذن فهذا الكتاب يمثل وثيقة ذات قيمة كبيرة بالنظر إلى صحته، أما فيما يتعلق بنا، فإنه ضرورى من أجل معرفة المعلومات الكافية حول افتداء الأسرى، وخاصة فيما يتعلق بالسيرة الذاتية للمنظرى، ولكى نستطيع أن نحدد الفترة الزمنية الدقيقة عند اختفاء القائد الغرناطى.

وعلى حد علمنا، لم يقم أحد حتى الآن بالبحث فى كتاب الأب أراندا لكى نستكمل حياة المنظرى.

ربما لأنه كان يعتقد أن هذا المنظرى كان الثالث أو الرابع للأسرة المختلقة التي اخترعها بعض المؤرخين وتبعهم آخرون. ربما لأنه كان يعتقد خطأ أن كتاباً حول إعلان القداسة كان أبعد من أن يتناول شخصية تاريخية مسلمة.

ومع ذلك فإن الأب كونتريراس كان محملاً بتاريخ إفريقي وقد امتلأت سنين عمره الأخيرة بالأخبار والخطط المتعلقة بمملكة فاس وبتطوان بشكل ملحوظ، ولم يقتصر دوره فقط كمفتد للأسرى، بل كوسيط بين خليفة المنظرى الذى يدعى حسن وبين البلاط الملكى الإسبانى.

وهناك رسائل ومذكرات للأب كونتريراس مكتوبة من تطوان وأخرى قد تسلمها، تشكل كلها حبكة تاريخية، تكفى فى رأى لتقييم كتاب الأب أراندا كوثيقة تاريخية ذات أهمية بالغة.

لقد عرف الأب كونتريراس المنظرى وتعامل معه فى الشهور الأخيرة من حياته. ومن الممكن أن يكون قد تعامل معه آنفاً فى زيارته الأولى إلى تطوان فى عام ١٥٣٥ ولكن لم يخبرنا الأب أراندا شيئاً عن ذلك. ومن المحتمل أن اتصالاته بهدف الافتداء كانت مع سلطات أخرى دون علم القائد المسن.

وعندما مر المبشر عبر تطوان فى عام ١٥٣٥، فى الطريق من مدينة فاس إلى سبتة حاملاً معه مجموعة من المسيحيين الذين أطلق سراحهم من عاصمة المملكة، لقي مفاجأة غير سارة فى تطوان.

وجد هناك عبيداً أكثر عدداً مما كان يتوقع وأشدُّ بؤساً مما كان يظن. ولم تكن لديه أموال كافية للقيام بعمليات افتداء أخرى، ولكن نشاطه التبشيري جعله يتضرع ويأمل ذلك. فوسع من عمليات الافتداء وخصوصاً النساء والأطفال من الأسرى نوى الوضع الأكثر خطورة، وبما أنه لم يكن لديه مال ولا بضاعة فقد استدان بثلاثة آلاف دوقية على أن يردها فيما بعد.

بيد أن مالكي هؤلاء العبيد - وهم أعضاء الطبقة الحاكمة والذين كانت تلك التجارة هي الأكثر ربحاً بالنسبة إليهم - فكان حتماً عليهم أن يتفاهموا مع كونتيريراس لكي "يضمنوا" بضاعتهم. ولأن المنظرى لم يظهر، نفترض أن كونتيريراس تعامل مع زوجته ست الحرة أو مع مفوض منه. وتظهر زوجة المنظرى في العديد من الوثائق متحمسة للتجارة التي كانت تقوم بها القوارب الاستكشافية.

وقد وصل الأب كونتيريراس إلى تطوان مرة أخرى بعد ذلك في عام ١٥٣٩ بعد أن ترك التاجر خوان دي إيريرا في إشبيلية المكلف بتنفيذ وتلقي الوصايا والتبرعات التي جعلته يسافر للقيام بمهمة الافتداء.

وقد حددت بعض الأوامر نوعية الأسرى الموفد إليهم، كالعبيد في مدينة فاس على سبيل المثال ولكن كونتيريراس كان قد شاهد بؤس المنظرى في تطوان مما جعله يقرر أن يرجع إلى تلك المدينة التي تعتبر أحد المراكز الرئيسية لنشاط القرصنة وإحدى أهم أسواق العبيد في الشمال الإفريقي.

وقد تردت أوضاع الأسرة الوطاسية منذ زيارته السابقة، ففي ٢٤ من يوليو عام ١٥٣٦ منى أحمد الوطاسي ورئيس وزرائه محمد إبراهيم بهزيمة في معركة ضد شريف مراكش.

وقد سقطت مملكة فاس من تحت سيطرة الابن محمد إبراهيم و كان أبوه يحلم أن يحكمها يوماً ما.

وكان الموت وحده هو ما منعه من أن تلحق به هزائم أخرى أو أن يرى انهيار إنجازات أبيه مثلما حدث له. وقد توفي قبل عام من وفاة المنظرى معلمه والمدافع عنه في ميادين الحرب والذي عاش أكثر مما عاشت الشخصيات الأخرى وأكثر من ذكرى الأحداث.

وقد عاش ضريراً ومسنناً، وقد أحل صهره وزوجته محله في السنوات الأخيرة. وفي الواقع كانت ست الحرة هي التي تدير الشؤون العامة، ولكن عندما كانت تتعامل

مع أمر فنى كان يتدخل محمد إبراهيم. على سبيل المثال كان محمد إبراهيم يبعث قائداً عسكرياً ليراقب أسوار المدينة ويدعمها^(٢).

إذن كان الأب فيرناندو دى كونتيريراس المبجل يتحدث ويتعامل مع منظرى ضعيف فى كل المظاهر وقد أشرف على الموت.

وتتقصدنا بعض المعلومات الأخرى المهمة فى الأدلة التى حصل عليها الأب أراندا، منها وصف الحالة الجسمانية للمنظرى فى ذاك الوقت. وفى مقالة موجهة إلى الغرناطى يقول فيها بالنص مشيراً إلى حياته: "ينبغى أن تنتبه إلى أنه لم يبق لك الكثير، لأنه قد طالت سنين عمرك". وهذا الذى يرد على لسان كونتيريراس الذى جاوز السبعين يشير إلى أن المخاطب كان أكبر منه سناً^(٣).

وفى تلك السن المتأخرة التى أضعفت المنظرى نفسياً وزادت من حنينه، كان يستدعى الأب كونتيريراس يومياً إلى قصره ويقيم معه حوارات ممتدة حول الأحوال فى إسبانيا^(٤).

إسبانيا تلك التى كانت تحت حكم الإمبراطور لم تكن هى التى كان قد تركها القائد الغرناطى أيام شبابه.

ولنتصور الأسئلة التى كانت تستهوى القائد العجوز وإجابات الكاهن المبجل التى لم تكن أقل إثارة.

وقد انعقدت تدريجياً صداقة أثقلتها الذكريات، مما جعل الاثنين يقومان ببعض الإشارات خارج المؤلف. وهكذا فقد سمح المنظرى للكاهن بزيارة السجون عندما يريد ذلك، بل وأذن له بشيء أكثر من ذلك حيث سمح له أن يقيم قداساً فى المكان الذى كان يقيم فيه المبشر لكى يمنح الأسرار الكهنوتية للأسرى. وهو إجراء غير عادى، ذكره ديبغو دى تورس بعد ذلك بقرن تقريباً كشيء معجز فى كتابه "تاريخ الأشراف..."^(٥).

ولم تنته هنا الإيضاحات القيمة التى قدمها المنظرى إلى الأب كونتيريراس، ولكنها أسهمت فى افتدأت الكاهن بطريقة غير عادية.

وقد اضطر الأب كونتريراس أن يظل فى تطوان منتظراً المال الذى سيرسلونه إليه من إشبيلية وقد أدرك أن مشكلاته قد ازدادت، إذ إن عليه أن يساعد كل الأسرى المفتدين فى تلك الأثناء. وقد أمر المنظرى أن من يستطيعون العمل فسيحصلون على أجرهم اليومى فى الأعمال العامة وأن على النساء أن يقمن بالخدمة بهدف الحصول على قوتهن وقوت أولادهن، أما بالنسبة إلى الذين تم افتدائهم من مدينة تطوان فقد أمر رؤساءهم القدامى أن يعاملوهم بالحسنى كرجال أحرار.

وإلى جانب أن العبد كان يعتبر بضاعة وأنه ينبغى ألا يؤذى، فهنا هم عبارة عن عبيد قد أطلق سراحهم وبالتالي تكون مسئولية تلك "البضاعة" مناطة فقط بالشخص الذى كان قد اشتراهم وهو فى هذه الحالة الأب كونتريراس. وقد ترجع تلك الأمور إلى مشاعر المنظرى الإنسانية، وبالإضافة إلى ذلك فقد قام بمساعدة المبشر بكل الوسائل المتاحة.

تلك المشاعر التى كان قد مضى زمنها فى تلك الأوقات قد خلقت ميلاً كبيراً للأب كونتريراس نحو القائد الغرناطى، فكان يزوره كل يوم. تلك الزيارات التى كان ينتظرها القائد العجوز الذى من المحتمل أنه كان بمعزل عن العالم الخارجى فى هذه الفترة من حياته.

بل إنه يزيد من إيضاحاته القيمة، حيث إنه فى إحدى المناسبات أقرض المنظرى ثلاثة آلاف بوقية للمبشر، ويظن الأب أراندا أن كونتريراس قد استدان مبالغ أخرى كثيرة فى المصاعب المتتالية التى تعرض لها لكى يفترى أكبر عدد ممكن من أولئك البؤساء.

وكان كونتريراس يراقب الغرناطى وكان كثيراً ما يشعر أنه لم يكن مجرد مرشد مسلم يسهل له الأمور فى عمليات الافتداء، بل كان الأخ الإنسان ذا الشخصية العظيمة وصاحب الفضائل الكثيرة التى تقربه من النموذج المسيحى المثالى الذى كان هو نفسه يمثله.

وبالنسبة إلى الكاهن فلم يكن لديه إلا مخرج واحد إزاء ذلك، فكان عليه أن ينقذ تلك الروح حاملاً إياها إلى الطرق المناسبة.

وقبل أن يخرج من تطوان في شهر نوفمبر من عام ١٥٤٠، اجترأ كونتريراس على أن يحضه بشدة كي يعتنق المسيحية.

الصحيح أن المنظرى نفسه تناول تلك المسألة متحدثاً عن الدين، وكان رأيه بموضوعية أن المسلم الصالح ليس هو الذى يتنكر لدينه ويرتد إلى المسيحية، وكذلك ليس المسيحي الصالح هو الذى يقوم بنفس الشيء، ومع ذلك كاد كونتريراس أن يقنع القائد الذى وعده أن يصير مسيحياً حيث طلب منه أن يشرح له تدريجياً تعليمات وأسرار شريعة المسيح، وخصص له أوقاتاً وساعات كي يستطيع أن يراه كل يوم وأن يتكلم بتأنٍ عن تلك المسألة.

ونحن نتساءل ما إذا كانت لدى المنظرى النية فى أن يرتد كما كان كونتريراس يعتقد ذلك، أم أن الحقيقة هى أنه كان يريد أن يتحدث مع المبشر لى يقطع عليه تلك الوحدة النفسية التى كان يعيش فيها. ومن ناحيته كان الأب أراندا يرى أن القائد التطوانى كان يفكر فى أن يتنصر ولذلك السبب كان يقرض تلك المبالغ المالية كونتريراس بهدف أن تكون له وسيلة معيشة عند انتقاله إلى الأرض المسيحية.

ويبدو لنا أن هذه مبالغة فى الشك والافتراض، حيث إن المشاكل التى كان سيتعرض لها الغرناطى لم يكن يجهلها كونتريراس.

ولم تكن هناك عقبات مانعة أمام خيال كونتريراس الرائع وكان يبدو له أن هدفه قد بلغ الغاية التى كان يتمناها.

وبما أن إقامته فى تطوان قد امتدت أكثر مما ينبغى فقد طلب خوان دى إيرارا منه فى نهايات نوفمبر أن يسرع بالذهاب إلى ذلك الموضع البرتغالى لى يبحر ومعه الفدية.

وتقريباً غادر الكاهن الطيب تطوان رغماً عنه معتقداً أن عملية تنصير المنظرى قد أصبحت ناضجة.

وفاة المنظرى

اعتقد كونتريراس أنه بكل تأكيد حينما يرجع سريعاً فسوف يتم عمله الطيب بدخول القائد فى المسيحية.

ولم يتم الأمر هكذا، حيث إنه فى نهايات إبريل أو فى بدايات مايو من العام التالى ١٥٤١ رجع إلى تطوان وعلم مع بالغ الأسى أن المنظرى كان قد مات.

وقد حدثت وفاته طبقاً لهذه الشهادة الموثقة فى الفترة ما بين شهرى ديسمبر من عام ١٥٤٠ وإبريل من عام ١٥٤١^(٦).

ومن المحتمل جداً أن المنظرى قد بلغ الثمانين عاماً أو جاوزها طبقاً للمعلومات التى نستطيع أن نعتمد عليها حتى الآن. وطول العمر هذا هو الذى حير بعض المؤرخين سواء من اشتغلوا بالتاريخ المحلى أو العام، إلا أن توضيح هذه النقطة يحل لغز إحدى أكثر الفترات غموضاً فى تاريخ تطوان.

إن القائد العظيم، مؤسس تطوان، المحارب البارز والمقاتل المتمرس الذى كان على رأس المهاجرين الغرناطيين إلى شمال المغرب والسياسى البارع والحاكم الشهير، أثبت حتى آخر يوم فى حياته عظم الروح السامية التى كونت شخصيته.

وقد مات مؤمناً بالعقيدة التى كان يعيش من أجلها مظهراً فى الوقت نفسه أنه كان مرآة لبعض القيم الأخلاقية فى أى دين والتى توضح قبل كل شىء قيادته الممتدة التى لم يجرؤ أحد فى حياته على أن يتصدى لها.

إن وصف آخر أيامه الذى قام به الأب أراندا بكل إعجاب واحترام يقوى نظريتنا فى أنه لم يكن هناك أكثر من قائد وحيد وعظيم هو المنظرى أبو الحسن على المنظرى الغرناطى التطوانى.

وعلى مدى أكثر من نصف قرن تولى قيادة المدينة التي أسسها أو التي أعاد بناءها . وقد وقعت أحداث عظام فى ذلك النصف قرن، قام بها شخصيات كبيرة فى المنفى بالكاد وقد أهملها الزمن وغطت عليها الظروف وكانت لها أصداء خافتة فى الأرض التي دُفن فيها.

والوطن الذى ولد فيه وقضى فيه مراحل طفولته وطموحاته فى الشباب نسيه سريعاً، هذا إن كان قد تذكره فى مرة ما.

ونعتقد أن المنظرى- كرمز لشخصيات إسبانية هاجرت عبر تاريخنا- لا يستحق فقط احتراماً كبيراً، بل يستحق ذكرى مثيرة للمشاعر تضعه للأبد فى الصفحات التى سطرها أسلافنا أو التى كتبت عنهم.

الخلفاء الذين أعقبوا المنظرى: ست الحرة

فى الوقت الذى مات فيه المنظرى كان قد خمد نشاطه فى ميادين الحروب منذ سنوات كثيرة، ومن المحتمل أنه كان كذلك فى إدارة شئون المدينة.

أما زوجته ست الحرة ابنة بن راشد فكانت تحمل على عاتقها إدارة الشئون الداخلية التى لم تكن تستلزم أسلوباً خاصاً أو معرفة مختلفة عما هو معتاد، وبالنسبة إلى هذه للأعمال التى تستلزم أسلوباً خاصاً - مثل إعداد أفضل تحصين للمدينة - لذلك كان أخوها محمد إبراهيم يقرر ما هو مناسب ويرسل خبيراً فى هذا الموضوع .

وكما رأينا فى حالة المنظرى، نستطيع أن نؤكد أنه لم يقم أحد بالبحث فى موضوع زعامة محمد إبراهيم أثناء حياته . كان يحكم الدولة من مدينة فاس وكان يقوم بتجميع السلطات، على الرغم من أن موته المبكر حال دون أن نعرف ما إذا كان سيبلغ أكثر أو أقل مما كان يحلم به.

إن هذا الوضع للوزير المتمكن الذى كان يحكم إقطاعيته فى الشمال عن طريق أخته والشبح البطولى لصهره - وقد امتد حكمه عشرة أو خمسة عشر عاما أو أكثر- ربما كان هو السبب الرئيسى فى حيرة المؤرخين.

إن التسلسل الزمنى الدقيق لاختفاء المنظرى والذى لم يتوافق مع غروبه السياسى قد شكل ستاراً كثيفاً من الضباب حال دون إدراك الأحداث بشكل واضح.

ويبدو أن المنظرى كمحارب لم يذكره المؤرخون فى ميادين الحروب منذ عام ١٥١٨ ولم يذكروه بعد ذلك. ومنذ ذلك الحين أغفلت الكتابات التاريخية البرتغالية هذا القائد العجوز. إنها كتابات يمكن الاعتماد عليها بقدر قربها الزمنى والمكانى من الأحداث التى كانت تروىها.

ومع ذلك ولحسن الحظ فلدينا تلك الشهادات الخاصة بافتداء الأسرى فى عام ١٥٢٣ وحتى موته وكذلك كتاب الأب أراندا الذى كان يسرد فيه موته عام ١٥٤١ . ورغم أن فترات كثيرة من حياة المنظرى اتسمت بالغموض، فإن الذين تابعوا وفاته أوضحوا لنا أسباب الارتباك عند المؤرخين.

وكذلك لم تقدم الوثائق القليلة التى تم نشرها فى S.I.H.M. شيئاً كثيراً حول ذريته وحول الدور الذى قاموا به فى حكم تطوان.

سنحاول ذلك قدر الإمكان مستعينين بالمصادر والمعلومات المتاحة لدينا، وإن كانت قليلة لسوء الحظ.

ومن المناسب قبل أن نواصل كلامنا أن نذكر أنه حين موت المنظرى لم يكن صهره محمد إبراهيم على قيد الحياة، وقد مات فى شهر سبتمبر عام ١٥٣٩ (٧) .

ولذلك فإن أخته ست الحرة لم تكن تعتمد على التأييد الأخلاقى والمؤثر الذى كان يمثله أخوها.

ويقول الأب أراندا أن كونتيريراس قد بكى لفقدان القائد بصورتيه هنا، وهي انتهاء الحياة وفقدان الخلاص الأبدى الذى كان يسعى إليه، لكن مكانته عند المنظرى جعلت حفيدا له يدعى حسن يستمر فى مساعدته بقدر ما كان يفعله جده. وقد تصرفتم أرملة للمنظرى بالطريقة نفسها، إذ قدمت له الهدايا واحترمته كما كان يفعل زوجها^(٨).

وبالتالى فإن حسن بالنسبة إلى الأب أراندا هو حفيد المؤسس. وما لا يوضح لنا هو ما إذا كان حفيدا من جهة القرابة أو بالمصاهرة.

أما أن يطلق حسن على نفسه أنه حفيد المنظرى فذلك شىء يمكن تفسيره، فهو بسبب النفوذ الكبير الذى بلغه الغرناطى فى حياته. ولقد حصل ليون الإفريقى على هذه المعلومة ثم نقلها إلينا. وبالتالى يبدو أننا قد حصلنا على خليفة المنظرى.

لكن الأحداث لم تمر على هذا النحو ويجب أن نوضح ما قد حدث. إن الشخصية التى وضعت على رأس الحكم فى المدينة كانت الحرة وليست حسن. وكان حسن زوجاً لابنة الحرة وكان أحد النبلاء الغرناطيين الذين أقاموا فى تطوان. وبصفته هذه فى كلتا الحالتين اضطلع بدور مهم فى أعمال المدينة، وكان يتقاسم السلطة مع أم زوجته قبل موت المنظرى.

ولدينا وثيقة نستطيع أن نستنتج منها هذه الأحداث، ففي رسالة كتبها سباستيان دى بارغاس وأرسلها من مدينة فاس إلى خوان الثالث فى السادس من ديسمبر ١٥٤٠ يتناول فيها حادثاً خطيراً تمثل فى اختفاء ثلاثة من التطوانيين أوصى سباستيان بعقد لقاء "مع محمد حسن صهر ست الحرة ومعه بعض من أشرف تطوان"^(٩).

وفى رسالة أخرى إلى كونت فيميوسو فى ٢٠ من أكتوبر عام ١٥٤٢ أكد بارغاس على قرابة حسن كصهر للسيدة الحرة^(١٠).

إذن يمكن اعتبار هذا الصهر ابناً بالتبني ولا يمكن اعتباره حفيداً، اللهم إلا إن كان متزوجاً ليس من ابنة المنظرى بل من حفيده، وهذا هو ما جعلنا نرتاب من فقررة فى الرسالة التى وجهها السفير لوريتشو بيريث دى تابورا إلى ملكه خوان الثالث

والمؤرخة فى تطوان فى ٢٦ من يوليو من عام ١٥٤١ . فى تطوان كان ملك فاس الذى ذهب ليتزوج من الحرة ينتظره.

" quero começar esta com dar conta a V.A. de como ja estou neste Tutuao, pera onde parti d Arzila a XI de julho, em companhia d um filho de Hacem, que estava por alcaide de Tetuao, ao qual el Rei mandou com des de cavalo pera me trazer,e ha entrada d este lugar mandou o alcaide seu pai e o filho d Alman-darim,que agora he seu enteado,com gente de cavalo que me sahirao a receber"(١١).

وتلك كانت المرة الوحيدة التى ذكر فيها ابن للمنظرى . فهل كانت هى المرة الوحيدة كذلك بالنسبة إلى الحرة أو إلى المرأة الغرناطية؟

والآن ينبغى أن نكتفى بهذه الفرضية . فما يبدو أنه الأكثر صحة بالنسبة إلى الوقائع ويتفق مع المصادر المعروفة هو أن حكم المدينة قد امتد على يدى أرملة المنظرى، وقد ساعدها حسن، المعروف لدى البعض بصهر المنظرى أو حفيده عند البعض الآخر.

هناك شىء أكيد: وهو أن حسن لا ينتمى إلى عائلة المنظرى الغرناطية.

-وكان آل حسن ينتمون إلى باثا، وهو ما يقوى فرضية قرابة المصاهرة لا قرابة الدم بمؤسس تطوان(١٢).

وإذا كان لدى المنظرى ولد أو أولاد ذكور، كما تبين ذلك رسالة تابورا، فلا نعرف لماذا لم يخلفوا حكم أبيهم ولم يظهروا فى ميادين الحروب، وهو شىء كان سيسجله المؤرخون البرتغاليون.

وربما كان لشخصية ست الحرة المسيطرة والطموحة علاقة بجوهر المسألة.

لم تكن الإشارات إلى السمات الحيوية لابنة بن راشد قليلة فى رسائل بارغاس إلى خوان الثالث . يستنتج من تلك الإشارات ومن رسائل تابورا أو من رسائل ألفونسو

دى نورونيا قائد سبقة الشىء الحقيقى؛ وهو أن ست الحرة بالفعل قد حكمت تطوان بعد موت زوجها.

ومن الطبيعى أن ذلك قد عرقل خطط شخصيتين محيطتين بها وعرقلت الباقيين بدرجة أكبر.

كان حسن أحد الشخصيتين وقد فشل جهده فى السيطرة الكاملة على المدينة وعلى إيراداتها المرتفعة. وكان الآخر أخاها من الأب محمد وهو أيضا بن راشد، وأمه من الأشراف. كان مهملًا أيام حكم محمد إبراهيم الذى عزله عن تولى أية مسؤولية، ونراه الآن يتحرك فى منطقة نفوذه فى الشاون وقرعة، وبما أنه متمرد بشكل دائم، فما كاد أن يموت المنظرى حتى تمرد ضد ملك مدينة فاس (١٣).

كان يريد أن يخلف القائد الغرناطى ويسترد سلطة أبيه. إن بن راشد الجديد هذا قد أفقد البلاط الملكى فى مدينة فاس صوابه، وبدأ سريعا فى التآمر ضد أخته.

ولم يتكفل مولاي أحمد الوطاسى سلطان مدينة فاس بأرملة المنظرى فقط، بل تزوجها بعد ذلك فى غضون بضعة أشهر فى تطوان فى ٣٠ يونيو من عام ١٥٤١ (١٤).

وهذا الزواج قد مكن للحرة بشكل أكبر فى السلطة التطوانية.

وكان هذا الزواج بالتأكيد مؤجلاً لسنين طويلة إلى حين موت القائد الغرناطى، فجاء ملبيا لأهداف سياسية وعاطفية، حيث نذكر بأن محمد إبراهيم كان قد تزوج من إحدى أخوات السلطان ولا بد أن السلطان قد ملّكه لمكانته تلك. ومن جانبها كانت ست الحرة تمثل عوناً معنوياً ومادياً كانت الأسرة الضعيفة تحتاج إليه.

ولقد ترك مولاي أحمد زوجته فى تطوان وعهد إليها حكم المدينة (١٥).

إذا كان فى حاجة إلى مساندة، فما هو قد حصل عليها. كانت ست الحرة تحكم فى كنف الزوج والأخ، أما الآن فتستطيع ذلك من خلال ملك مدينة فاس ذاته.

ولا يوجد في تاريخ تطوان حالة مثل حالة ست الحرة. إنه من الغريب ومن غير المؤلف أن تُرى امرأة تحكم. علاوة على ذلك فكانت تمتلك قوة وصفات غير عادية في ذلك العصر.

ولم يقلل الأعداء البرتغاليون من انتقاداتهم إلى الحاكمة الجديدة لتطوان. وكان بارغاس المندوب البرتغالي يكيل لها السياب في رسالة وجهها إلى قائد سبته البرتغالي ألفونسو دي نورونيا في ٣٠ من أغسطس من عام ١٥٤١. نتخير منها بعض العبارات الحانقة.

Tudo o que sab?amos que Citalhorra he tao prevenida que nada le ficca no tynteiro

وفي الواقع فإن ذلك ثناء على السيدة الشهيرة.

..."nao ffez justiça,em Tutao nem em todo este caminho d estes campos".

إن ملك فاس:

" ssempre deu muito crredito a Alhora, polo muito que lhe peitavo, quanto mays agora que he sua molher".

"Na cobiça e avereza sao seus derradeiros cuydados". "... de Alhora se nao queixase mays a el Rey que nehuum rremedio tynha", "le forte cousa hua pessoa como a vossa rreceber tantas avexações e enjurias de hua molher àaffora de ser menoscabo que Cristaos a Ceita sejam suditos de hua molher..."

وقد اختتم رسالته ناصحاً إياه أن يفلق الحدود مع تطوان كي يلحق ست الحرة درساً قاسياً^(١٦).

وقد مر بارغاس والبرتغاليون المهتمون بالأمر بأوقات عصيبة مع تلك المرأة التي كانت على رأس التطوانيين.

وكان المندوب البرتغالي يشكو مرات عديدة من أن الحاكمة كانت تفتح الرسائل التي كان يرسلها له الملك وكانت تمر عبر تطوان وكذلك الرسائل التي كان يرسلها هو.

"Per Ceita ja no ousa esprimer, porque em Tutuao abrem minhas cartas, e ja m o ffizerao vezes, e mei queixey qua d iso nao ouve emmenda".

كتب ذلك في منتصف عام ١٥٤٢ في ٩ من يونيو من مدينة فاس إلى ملكه خوان الثالث^(١٧).

وقد يؤس نورويا قائد سبته العام في معاملاته مع حاكمة تطوان وقد أغلق الحدود مرات عديدة مانعا عبور التجارة بين المنطقتين، وهو ما قد أضر بكلا الجانبين. وكانت الحرة تتظاهر بأن ملاحى قواربها من الأتراك، وطالبت بالفدية المناسبة للأسرى المقبوض عليهم، بينما تذرع نورويا بالهدنة المعقودة ورقض أن يدفع شيئاً. وذات مرة وبناء على طلب ملك فاس، أرسل بارغاس من أجل عقد المصالحة وفتح الحدود وقد نجح في ذلك، وقد أخبر ملكه بعد ذلك في رسالة وجهها له من سبته في ٨ سبتمبر من عام ١٥٤٢:

"Senhor vym a Tutuao e a Ceita, e Jaco Rute comigo.Ficao muy amigos D. Affonso e Cyte al Horra, mas ella depouys d amizade comsemtio,os navios dos Turcos entrarem em seu rio... He molher muy belicosa e mal asosegada em tudo"^(١٨).

وكان نورويا محقا في ذلك، حيث كان قد عقد اتفاق سلام بين لشبونة ومدينة فاس لمدة أحد عشر عاماً في مايو من عام ١٥٣٨^(١٩).

ولسوء حظ السيدة المبجلة كان أقاربها – الذين يشكون من تصرفاتها، وربما الذين أزعجهم نفوذها – هم أول من تأمر للإطاحة بها.

وكان أول هؤلاء هو أخوها غير الشقيق محمد بن راشد الذي طمح إلى حكم تطوان لكنه لم يبلغ ذلك، وكان محرصاً أحياناً خفية، وأحياناً كان متمرداً بشكل ظاهر، وهو من كان يلقي القبض على أى مسيحي غير حذر، يبتعد عن القلاع الساحلية وكانت لديه سجون فى ترعة مكتظة بالمسيحيين الذين كان ينقلهم تدريجياً إلى مدينة الجزائر لى يبيعهم فى ذلك السوق^(٢٠).

وكانت الحرة تستنكر تلك الأحداث التى تعتبرها منافسة لها فى أعمال الافتداء تلك، إذ كانت مصادر نفع كبيرة بالنسبة إليها.

وفى ١٨ أغسطس من عام ١٥٤٢ أخبر نورويا ملكه بأشياء كثيرة من بينها:

"que pelos cativos que d aquy águora ha hum ano cativaram,leva Citiforra dous mil e seiscentos cruzados, imda a roguo de Comtreras,que nam queria menos de tres mil"^(٢١).

وهو أيضا ما أدانه أخوها غير الشقيق.

إنه لمن المنطقى الافتراض أن الزعماء التطوانيين كانوا منزعين بنفس الدرجة وكان على رأسهم حسن الذى كان يرى الثروات تذهب من أمام عينيه وأن تلك المرأة الطامعة استولت عليها وأنها كانت تحمل نصيب الأسد فى تكلفة الافتداء.

وكتب بارغاس: "إن ست الحرة وأخاها محمد بن راشد كانا أعداء"، وبالفعل كان كل من يحيط بها أعداء لها.

وهبت العاصفة فى ٢٢ من أكتوبر من عام ١٥٤٢ . حيث هرب والد حسن الذى كان مستاء من ملك مدينة فاس وكذلك هربت معه أسرته وبعض الفرسان. ووصل إلى تطوان حيث كان هناك والده وآخرون معه فأطاحوا بست الحرة وطردوها من تطوان وصادروا كل ثرواتها^(٢٢).

وإذا ما اعتبرنا أن المنظرى قد مات فى ديسمبر من عام ١٥٤٠ فقد استمرت ولاية أرملته اثنين وعشرين شهراً ولم تصل حتى سنتين.

وهى فترة طويلة إذا وضعنا فى الاعتبار عزلتها السياسية، ومن ناحية أخرى طبيعتها التى أثارت ضدها الكثير من القوى العدائية بما فى ذلك قوى عائلية.

وبالتأكيد أنها قد توجهت إلى الشاون بعد أن طردت من تطوان حيث سقاها أخواها غير الشقيق من كأس المرارة.



مسجد - ضريح سيدى على بن راشد مؤسس مدينة الشاون.

ولم يعد أحد للحديث عنها مرة أخرى ولا نعتقد أن حياتها - التي تعرضت لهوان مستمر بسبب العزلة - قد طالت، وسيكون مصيرها مختلفاً تماماً عما كانت قد تمتعت به حتى ذلك الحين.

هناك ضريح في الزاوية الريسونية في الشاون، يقال إنه يحوى رفات ست الحرة السيدة المبجلة أميرة الشاون، وعلى فرض صحة هذه الرواية فإن الناس كانوا بالقلعة التي كان أبوها قد أمر بتشييدها وكانت الأساس للمدينة، مدينة الشاون العظيمة، مدينة أشراف جبل علم، والتي يحفظ ذكرها حتى الآن شارع في المدينة العتيقة . إنها على وجه الخصوص مدينة سيدى على بن راشد "المجاهد" الكريم في شمال المغرب الذي دُفن على أبوابها.

القائد أحمد حسن :

حسن الذى يظهر اسمه فى الروايات والأخبار التاريخية مكتوباً بأشكال مختلفة - كان الخليفة الثانى للمنظرى فى حكم تطوان ومحيطها، وذلك إثر ثورة صغيرة قام بها أفراد من حاشية البلاط الملكى مُنعت خلالها ست الحرة من القيام بمهامها فى ٢٢ أكتوبر من عام ١٥٤٢ .

وكان حسن العجوز هو المسئول الرئيسى لتلك الثورة، ذلك الانقلاب الذى تم بدون إراقة دماء، لكنه كان غاضباً من الوطاسى فهرب من مدينة فاس وقاد جماعة من الفرسان فى مدينة تطوان.

لا نعرف تفاصيل أخرى عن هذا الحدث فى حد ذاته، ولكن نعرف فقط أن فترة حكم حسن قد بدأت منذ ذلك الوقت. ولكن أى حسن؟ أذلك الذى جاء من مدينة فاس أم ذاك الذى كان مع الحرة التى كانت أم زوجته فى تطوان؟ أهو العجوز أم الشاب؟

يبدو لنا من ناحية أن هناك إشارات كافية تدل على أن الشاب هو الذى تولى موقع القيادة، فمعرفة كونتيريراس لحسن هذا قبل التمرد وبعده فى عام ١٥٤٢ دون أن يخبرنا أن من كان يعاملهم كانوا مختلفين، وتتفق تسميته بحفيد المنظرى مع ليون الإفريقى.

ومن جانب آخر توجد هناك أدلة مقنعة إلى حد كبير تجعلنا نميل إلى حسن العجوز: إعلان أنه ينتمى إلى باثًا أى أنه ينقصل عن المنظرين الغرناطين وفى نفس الوقت اعترافه بأنه يتقدم فى السن . وفى إحدى مذكراته ألمح كونتيريراس أخيراً إلى أن حسن هو الذى جاء من مدينة فاس وقام بطرد زوجة الملك من تطوان.

إن عدم ذكر ست الحرة ولا المنظرى مرة أخرى، لن يثير قضية صلة القرابة بين حسن الحاكم وهؤلاء، وسنبقى على باقى الاحتمالات حتى ظهور وثائق جديدة.

وسوف يأتى ذكر أولاد حسن فيما بعد ، بمن فيهم ابن متقدم فى السن يخرج ليقا تل مع محاربى المدينة. هذه الإشارة لا توضح لنا شيئاً.

ولم يك د حسن يتولى منصب الحكم فى تطوان حتى تحالف مع بن راشد الذى كان هو الآخر مستاء من السلطان وفى مواجهة معه.

وسيتخذ كلا القائدين هذا الموقف لعدة سنوات معترفين أحياناً بالشريف، عدو الأسرة المالكة فى مدينة فاس، وأحياناً بوقف النشاط وكانا طامحين دائماً نحو استقلال أكبر من الذى كانا يتمتعان به بسبب الفوضى التى كانت تسيطر على البلاد.

إن سيرة الأب كونتيريراس الذاتية تمدنا بمعلومات كثيرة عن الأيام الأخيرة للمنظرى، حيث يقص علينا نوعاً من القصص الخيالية لبعض السنوات، إذ تدلنا بعض مذكراته ورسائله على الصلة التى كانت تربطه بالقائد حسن.

والحقيقة أن بعض ما كتبه المبشر مذهب ولا نعرف هل ننسب أخباره إلى شيخوخته أو إلى مخيلته أو إلى حماسه.

وما يدهشنا أكثر هو أن القائد حسن يبدو أنه قد تابعه في هذيانه، مما يجعلنا نفكر حول خلفية الحقيقة الكامنة وراء الخطط التي حاكها الاثنان.

ولنرى المصادر الوثائقية التي تتضح من خلالها أدلة وبراهين تجعلنا نميل أكثر إلى موضوعية العرض.

وتمتد الرسائل والذكرات والعلاقات من الأخبار عن حسن منذ عام ١٥٤٥ وحتى عام ١٥٤٩. لن نورد أخباراً خيالية أخرى يقدمها الكاهن، بل نقتصر فقط على ما يتعلق بالقائد حسن، أما مجموع ذلك فيستلزم دراسة أخرى منفصلة.

وكتب الأب كونتيريراس في شهر أبريل من عام ١٥٤٥ ثلاث رسائل ومذكرة. وجهت اثنتان منهما إلى الأمير فيليبى، وريثُ كارلوس الخامس، أما الرسالة الثالثة والمذكرة فقد أرسلهما إلى كاردينال طليطلة.

وهكذا نجد مشروعاً قائماً بالغ الأهمية بحيث لا يمكن عرضه دون مقدمات، ومع ذلك فإن هذه المقدمات لا تظهر على شكل وثائق، وينبغي علينا أن نكملها حيث لا يوجد شيء الآن.

وبالتالى نعتقد أن المبشر كانت له صلات مع حسن منذ أن تولى حكم المدينة ليس فقط لأمر تخص الافتداء، وهو الأمر الذى أورده الأب كونتيريراس فى كتابه، بل لى يخطط لتحركات مستقبلية يظهر فيها حب القائد الشديد لإسبانيا. وينبغى أن يكون هذا القائد وكونتيريراس على علاقة فى المجال السياسى منذ عام ١٥٤٣.

وفى رسالة وجهها الراهب إلى الأمير فيليبى حثه فيها أن يقترب شخصيا من جنوب إسبانيا ليكون على مقربة من المغرب.

" تعال، تعال، تعال يا صاحب السمو إلى إشبيلية أو إلى أندلوثيا فإن هؤلاء المسلمين جميعاً هم ملك لك".

الاقترب الذى طلبه . فى الرسالة التالية كان أكبر: كان هو الوصول إلى مضيق جبل طارق. حينئذ سيستسلم المسلمون دون قتال.

وقد اقترح القائد أن يرسل إليه السيد برناردينو كى يعمل ما يناسب عمله. وبناردينو هذا من عائلة مندوثا ابن السيد إننيغو القائد العام الأول لمملكة غرناطة.

وقد قاد برناردينو الأسطول الذى كان يراقب مياه مضيق جبل طارق. وكان حسن مصرا على التعامل معه. وفى نفس التاريخ فى أبريل من عام ١٥٤٥ أرسل كونتيريراس رسالة أخرى من تطوان إلى باردو دى تابيرا كاردينال طليطلة وكان رئيس مجلس قشتالة حينذاك قد حثه - بأمر من القائد - على أن يتخذ قراراً: إما أن يكف عن ذلك أو أن يكمل مشروعه، أو أن يأتى للمساعدة ويستحوذ على تلك الأرض جميعها "فهى متاحة، ومنها ينطلق إلى الأمام حتى جبال كارلوس وجبال نيغروس حيث يوجد الذهب..."

على الأقل كان الرجل تائهاً. وتستمر الرسالة فى سرد محادثاته مع حسن الذى كان يكرر: "فبعد ذلك ليأت مبعوث ويتم أفضل اتفاق معه".

وأحياناً كانت تذكر كلمات التطوانى بالنص: "إذا ما تم ذلك (الاقترب من مضيق جبل طارق)، فسيمتلك كل شىء، وما عليه إلا أن يتكلم مع ذلك البرتغالى"، ويشرح كونتيريراس أن القائد يتكلم هكذا وأنه يفهم القشتالية جيداً، "على الرغم من أنه سيكون أفضل إذا كان" الذى جاء ليعقد اتفاقية معه يعرف العربية (وقال مرة أخرى ليأت الذى سيعقد المعاهدة بعد ذلك أو ليكن السيد برناردينو لأن والده كان يعرف أباه) واستمر الحوار بين المبشر وبين الموريسكى فى محادثة جديرة بأن تدرج فى أفضل أعمال لوبي،(*) إن الحقيقة دائماً تفوق الخيال.

(*) كان الكاتب المسرحى الإشبانى لوبي دى بيغا يسخر من الأخطاء اللغوية التى يرتكبها بعض الموريسكيين حين يتحدثون الإسبانية. (المراجع)

ولنتابع مذكرات الأب كونتريراس ونحاول أن نوجزها لأنها تستلزم فصلاً طويلاً.

وقد عرض القائد ثلاثة خيارات عن طريق الكاهن:

أ) أن يعتبره الإمبراطور من رعاياه.

ب) أن يوفر له قوة يستطيع بها أن يستحوذ على مملكة فاس في غضون شهرين، أو

ج) أن ينقله الإمبراطور إلى الشرق.

ولكى يتم الاتفاق بشكل أفضل فعلى الإمبراطور "أن يأمر السيد برناردينو أن يأتى معه اثنتان أو ثلاث من السفن الحربية".

ويشرح حسن استياءه: "يريد ملكه أن يدمره وأن يذبحه هو وأولاده، لأنه جاء إلى هنا بعد أن طردته زوجته، ولكنه فعل ذلك لأن الملك (الإسباني) قد أعطاه ثلاث وثائق لتنصيبه هنا فى تطوان" ولم يف بذلك واعتقد أنه من الأفضل أن يكون قائدا وليس امرأة.

ويتساءل كونتريراس: "ماذا سنفعل مع بن راشد؟ فأجاب حسن إنه تحت تصرفى وأستطيع أن أفعل به ما أريد" وكرر أنهما سيسلمان المملكة فى غضون شهرين.

وقد اكتشف الكاهن مشروعاً آخر يتعلق بمنجم وبيع الكنوز وسيحدث عن القائد، بل سيجعل القائد يتحدث، فنقل مجموعة الحوارات التى يتمنى قصاصو الموضوعات الموريسكية أن يكتبوها.

من قراءة هذه المذكرة، لا يُعرف ما إذا كان المبرمج مذهباً أم متحمساً، وكذلك ما إذا كان هناك شيء من الصدق فى تأكيدات أم كانت كلها من نسج الخيال.

يقول: "استعدوا للخيرات الكثيرة فسوف يتم ذلك فى غضون شهرين ... حيث إن هناك الكثير من الملوك والأمراء يريدون أن يستحوذوا على مدينة فاس ولم يحققوا ذلك أبداً وسنكون من عداد الذين رووه...".

حتى وصل إلى أن يقول للكاردينال الذى وجهت إليه المذكرة أن يقرضه جواهره على أن يردّها إليه مع الزيادة.

واعترف بأنّه يمتلك العصا التى اكتشف من خلالها الثروات المدفونة "لثلاثة قادة وملك". إنها العصا السحرية التى نحتاج إليها فى أحلامنا. "هيا! هيا! هيا! فلتسرعوا".

والكاهن الطيب الذى استحثّه حسن، وذلك من خلال رسائله ومذكراته، لا يعرف كيف يضيف تلك السرعة على من يرأسهم فى شبه الجزيرة، والذين اتهمهم ضمناً بالتقصير عندما كتب: "لا يوجد هناك من أجابنى على مدى عامين...".

وندرك من خلال هذه العبارة أننا كنا على حق فيما ذكرناه عن الموضوع الذى يعود إلى عام ١٥٤٣ وهى السنة الأولى التى تقلد فيها حسن حكم تطوان.

وكتب إيرناندو دى لا تورى كاهن كاتدرائية إشبيلية فى نهاية إبريل من عام ١٥٤٥ إلى كاردينال طليطلة ينصحه بخطة كونتيريراس.

وبعد ذلك بأيام قليلة، فى ٨ مايو من نفس العام، توجه كاردينال طليطلة إلى قائد ليون مصطحباً معه رسائل ومذكرات كونتيريراس قائلاً له: "رغم أن الأشياء التى قالها لا تستند إلى أدلة قوية"، فإنها يمكن أن تُدرس إذا ما بدا لكم ذلك فى مجلس الحرب، وكتب إلى المبشر فى آخر الأمر "حتى لا يتم البدء فى المحادثات التى لا تناسب وبدون ترتيب أو إعداد بحيث يمكن إتمامها فى الوقت الحاضر" (٢٣).

كان الرد الرسمى هو الذى يضيّع أية فائدة من مبادرات الأب كونتيريراس والقائد حسن أيضاً.

وكان هو نفسه لا يعرف الآراء التى يساندها الإسبان أصحاب المقام الرفيع بخصوص اقتراحات الأب كونتيريراس، ولم يتراجع عنها وكان هو أكبر مؤيد لتحقيقها وذلك من خلال ما يستنتج من كتاباته.

وبعد قليل من مراسلة الكاهن، وجه القائد رسالة قصيرة إلى الأمير فيليبى "أقول من خلال رسالتى هذه إنه كما كان آبائى يخدمون الملوك الكاثوليك، فهكذا أنا فى خدمة جلالتكم وسموكم".

وأرسل إلى إسبينوسا حامل الرسالة كى يخبر الأمير شفاهة بالمقترحات التى تهمه. تلك المقترحات التى سيعود كونتيريراس ويكررها فى رسالة أخرى إلى الأمير فيليبى وهى الرسالة التى صاحبت رسالة القائد، وكانت نفس المقترحات التى تقدمت:

(١) أن يصنعوا له معروفا، (٢) أن يعطوه الأمان، (٣) أن يرسلوه إلى الشرق.

وكلتا الرسالتين بتاريخ ١٧ أغسطس من عام ١٥٤٥ فى تطوان^(٢٤).

الزيارة الأخيرة التى قام بها كونتيريراس إلى تطوان كانت فى العام التالى. ومن المحتمل أن يكون المبشر قد فهم ذلك هكذا بسبب سنته لأن نفس الشئ الذى حاوله مع المنظرى أراد أن يكرره مع خليفته حسن ودعاه لأن يتنصر. ولكن الموريسكى وقف بشدة ضد تلك المطالب مما جعل الكاهن يكف عن ذلك^(٢٥).

ومع ذلك، وطبقاً لسيرة كونتيريراس الذاتية، فقد ظل حسن يساعد كونتيريراس وظلت صداقتهما وقد مال إلى ما هو إسبانى.

وبعد ذلك بثلاث سنوات كتب أحمد حسن إلى الأمير فيليبى معزياً فى وفاة كونتيريراس^(٢٦).

وكان كونتيريراس قد قام بتوديع القائد فى صيف عام ١٥٤٦ مفتدياً فى تلك المناسبة عدداً كبيراً من الأسرى^(٢٧).

وإلى هنا ينتهى الجزء الخاص بالأب كونتيريراس وليس من السهل أن نقيم حداً فاصلاً بين ما هو خيالى وما هو واقعى.

لقد قرأنا "قلة الوثائق" فى خطط كونتيريراس كاردينال طليطلة، ومع ذلك فهناك وثائق أخرى فى تلك الأعوام يبدو أنها تميل إلى آراء مماثلة.

هذا ما يبدو لنا من خلال رسالة دوق مدينة سيدونيا إلى الأمير فيليبي المؤرخة في سانلوكار دي بارميديا في ٢٤ أبريل من عام ١٥٤٨ والتي يطلب منه "أن يأمر بالمشورة إذا ما كان من الأفضل تقديم العون إلى ملك فاس"، ضد الشريف لأنه يخشى أن يستحوذ على فاس وتكون "أندلوثيا مجاورة له" (٢٨).

وقد طلب ملك فاس شخصيا المساعدة من ماكسميليانو ملك النمسا، وقد طلب ذلك أيضا ملك بيليث المحاصر مع أحمد الوطاسي في فاس (٢٩) وبعد ذلك بشهر في ٣ فبراير من عام ١٥٤٩ كتب ملك بيليث إلى كارلوس الخامس منتظرا معونته (٣٠) وقد كتب تاجر من تطوان إلى دوق مدينة سيدونيا في ١١ يناير من عام ١٥٤٩ يحذره من احتلال الشريف لمدينة فاس وأنه يتوقع أنه ستكون هناك كارثة ويقول في إحدى الفقرات: (هاأنا ذا خادم جلالكم وكان أبي كذلك عندما كانت باثا تحت سيطرة المسلمين، اسمه حسن، وهو قائد هذه المدينة، وإذا قُدمت له مساعدة فهذا سيسهم في طرد (الشريف) من المملكة، ففي هذه المملكة ليس هناك من هو أكثر فروسية منه ولا أفضل رأيا منه، وهو سيؤيد فاس، أريد أن أحضر إلى جلالكم كي أقص عليكم الأشياء التي أعرفها عن هذا الرجل، أريد أن أبعد الشريف عن هذه المملكة كما يتمنى المسيحيون ذلك) ويكرر في آخر الرسالة: "وليكن في ذاكرتكم القائد حسن صاحب الدور المهم في أن ينقذ هذا الطاغية إذا ساعده المسيحيون" (٣١).

كما نستطيع أن ندرك ما إذا كانت لدى كونتيريراس بعض الأفكار المدهشة فإنها كانت نابعة من حوار مع التطواني.

وقد حاول حسن بكل الطرق أن يسترعى انتباه البلاط الملكي الإسباني حول شعوره الجيد نحو قشتاله.

ولا يختلف الأمر إذا كان من تولى السلطة في المغرب وطاسيا أو سعديا، فقد قامت مظاهرات ضد الأول وكذلك ضد الثاني بالرغم من أن السعدي هذا بعد أن خرج منتصرا أيده هو وبن راشد (٣٢).

ولكن حتى الآن ما زالت تكثر شكوكه حول أرباب السلطة الجدد. وقد أرسل نفس التاجر من سبته تقريراً آخر فى ٢ فبراير من عام ١٥٤٩ إلى كونت تنديا يخبره بالاستيلاء على مدينة فاس حيث اشترك بن راشد وكتب إلى صديقه حسن معلومات عن ذلك الحدث المهم^(٣٣).

ولكن يلاحظ أنه لما كان بن راشد مندفعاً وكان واحداً من أوائل الذين قاموا مع قواتهم بمهاجمة إحدى بوابات مدينة فاس، فإن حسن الحذر ظل فى تطوان دون أن يشارك فى تلك الحرب الحاسمة.

ولا نشك فى أن كونتيريراس بصفته الخيالية، صمم على تحقيق رغباته التى كانت - بالإضافة إلى ذلك - رغبات غالبية الشعب الإشباني وذلك بأن يستولى على مملكة فاس بدلا من الاستيلاء على ممالك بعيدة.

ولكن ربما كان من المؤكد أن حسن- كباقي الكثير من الموريسكيين المتشوقين لوطن مختلف - شجع تلك الرغبات وساعد على تحقيقها.

وكذلك لا نعرف أى درجة من التعقل ممكن أن تقدمها باقى تقارير كونتيريراس؛ عصاه التى أعطته دلالة على الكنوز، المنجم الذى اكتشفه أحد الأسرى، الحوارات الخاصة مع القائد حسن، بالإضافة لذلك، وأيضاً مع صحتها، فإن بعض التفاصيل التى عرضها لم نقم بتحليلها كى نخرج من نطاق الدراسة الحالية لخليفة المنظرى.

ولم يكن أحمد حسن أول من بهرته عظمة ومكانة الملوك الإشباني فى تلك العصور، ولقد تصرف سيدى على بن راشد الشريف العظيم فى الشمال بطريقة شبيهة مع أنه لم يكن موريسكيا أو أندلسيا.

لقد تركنا بعض الوثائق والمعلومات ذات الأهمية الكبيرة.

وستمدنا سبته بالمعلومات عن جارتها تطوان لأسباب واضحة.

أما نورونيا الذى كان دائماً مستاءً من ست الحرة فلم يصرف نظره عن المشاكل المألوفة حينما تغير حاكم المدينة.

ولقد ورث حسن ثروة ضخمة من جراء عمليات القرصنة وخصص جزءاً كبيراً من طاقاته للقرصنة، ومن هنا فكر أن يجهز سفناً جديدة.

وقد أخبر نورونيا ملكه فى ١٥ يونيو من عام ١٥٤٣ عن هذا الشأن. وقام "حسن" بشراء ستة أسرى من الأتراك، وكان هو نفس اليوم الذى قام فيه بتجهيز سفينتين شراعيتين وثلاثة قوارب وسفينتى استكشاف. وقد قام بغارة على جبل طارق والجزيرة بذلك الأسطول الصغير وأسر أربعة عشر رجلاً. وحين العودة مروا عبر سبتة، نتج عن ذلك الحقد الذى كان يكتنه نورونيا فلم يكن لديه سفن كى يتبعهم فى ذلك الوقت.

وذات مرة فى تطوان كتب حسن إلى حاكم سبتة يحكى له عن غارته طالباً منه فتح الحدود كما كان من ذى قبل وبذلك يمكن سير عملية التجارة بالإضافة إلى تسهيل عمليات الافتداء. فأجاب نورونيا أنه يجب أولاً الاعتذار عن الأعمال الحربية التى وقعت، إذ كانت هناك هدنة موقعة مع ملك مدينة فاس^(٣٤).

وقد تبادل الطرفان الانتصارات والهزائم.

وقد وجه نورونيا رسالة أخرى إلى خوان الثالث فى ٧ أكتوبر من عام ١٥٤٥ يخبره فيها عن بعض النجاحات.

وقد علم ألفونسو أن بن راشد وكذلك حسن لم يكونا فى مقرهما المعتاد بل هما بعيدان، فقرر "الإسراع إلى تطوان" مع قائد القصر الصغير. ووصلت القوات البرتغالية إلى أسوار تطوان حتى بلغت أراضى مقبرة الأندلسيين، حيث كان وما زال "مدفن المنظرى" وذلك على الرغم من قصف مدفعية القسبة.

وقد استفاد نورونيا من عدم الدفاع عن القلعة وكان فى المقدمة الابن الكبير لحسن مع "أربعين فرساً وألف من المشاة..." وهاجموا بنى مدّن حيث كان ملجأ

أسطول القراصنة على مقربة منهم فقاموا فى الحال بحرق ١٧ سفينة وجدها هناك، وقد خرج ابن حسن مع قواته من تطوان ولكنهم هزموا بعد ذلك بعد قتال ضار (٣٥).

إن غياب حسن بسبب وجوده بجانب قوات الشريف لم يكن شيئاً مألوفاً. نعرف أنه سواء كان حسن أم بن راشد لم يكونا على اتفاق مع الشريف (٣٦) وكان حسن يميل إلى الحزب الإسباني، وأحياناً كان يميل إلى الحزب البرتغالي، كما أبلغ عن ذلك تاجر من تطوان فى رسالة وجهها إلى خوان الثالث فى ١٥ مايو من عام ١٥٤٨.

"والقائد حسن بصفته خادماً لجلالتكم، فتح لى الميناء السرى ضد إرادة هذا الشعب" وبالإضافة إلى ذلك فقد دبر دسياسة كى يبعد بن راشد عن حزب الشريف (٣٧).

ومن حين لآخر كان الشريف يدعو قادة المملكة إلى بلاطه الملكى وكان التطوانى يعتذر مرات عديدة لأنه كان يريد فشل الملك الجديد. وفى ١٩ مارس من عام ١٥٤٩ (وصل القائد حسن إلى مدينة فاس قادماً من تطوان) (٣٨).

"chegou a Fez o alcaide Acem, que he o de Tutuao,ao qual o Xarife fuez muita honrra" 13".

وبعد ذلك بشهور قليلة، كتب تاجر آخر وهو بدرو دى إرييرا إلى لويس دى دويرا مراجع جبل طارق تقريراً أقرب إلى الحقيقة: (أعطى الشريف حكم تطوان إلى القائد حسن، و(حسن) ليس راضياً عن ذلك الشريف فهو متجهم وليس على وفاق مع الأندلوثيين) (٣٩) ١٤ وعلاوة على ذلك فلم يكن حسن راضياً عن الشريف الذى كان قد انتزع إيرادات مهمة (٤٠).

والدينا وثائق تدل على وجود حسن على رأس المناصب التطوانية على الأقل حتى عام ١٥٥٧ . وكتب حسن في ٨ أغسطس من عام ١٥٥٣ إلى الأمير فيليبى رسالة مليئة بالاحترام والانتماء الكامل تتعلق بافتداء الأسرى^(٤١).

"سيدي أحمد حسن، قائد تطوان" كما يوقع ربما قد شك في أن الأشراف بدءوا يتفاهمون مع البلاط الإسباني ضد الأتراك. شعر بأنه مهدد وذلك عندما طلب الأمان في الشهور الأولى من عام ١٥٥٤ كى يدخل سبتة هو وممتلكاته^(٤٢).

ولم يحل ذلك دون وقوع مواجهة مسلحة في ربيع ذلك العام مع القائد العام في سبتة والذي لقي حتفه في تلك الأثناء^(٤٣).

ولقد امتدت المحادثات بين الشريف وبين الزعماء الإسبان وكانت تعثرها تقلبات . وقد أوصى أحد مترجمي الزعماء الإسبان من هؤلاء، وهو القائد غونثالو إيرنانديث بإرسال مفوض إلى "السيد المبجل" قائد تطوان في ٦ أكتوبر من عام ١٥٥٦ . فأجابه حسن أنه أرسل الخادم مع "صحبة طيبة"^(٤٤) .

وكذلك لدينا وثيقة رسمية تشهد بوجود حسن في تطوان في نهايات عام ١٥٥٧ . وهي عبارة عن رسالة من حاكم سبتة إلى الملك سباستيان يخبره فيها عن شئون شمال إفريقيا . ويقول بالنسبة إلى تطوان :

Como el rrei de Fez tem sua l?mala fora, e dizem que hee para vir sobre Tetuao, por Acem recolher nele navios de Turquos sem sua licema)^(٤٥)

هل كان ذلك بداية النهاية لحسن؟ نحن لا نعرف ذلك وليست لدينا أية أخبار أخرى عنه . وفي ٦ من مارس من عام ١٥٦٢ لم يكن قائداً لتطوان، حيث ظهر هناك شخص يدعى "سيدي أمون Cid Amun"^(٤٦).

ولا نعرف مصيره النهائي، ولا نعرف مصير عائلته وذريته^(٤٧) .

ولقد اختفت معه حتى من المجتمع الموريسكى، كل آثار عائلة المنظرى الذين ينتمون إلى العائلة بالمصاهرة أو بالتبنى.

إننا نعرف المكان الذى دُفن به مؤسس تطوان، ولكن لا نعرف أى مقبرة لخلفائه أو لأحد من عائلته ولا حتى مكان دفن أحمد حسن الذى حاول لسنوات عدة أن يطيل مجد آبائه.

واليوم أقيم ضريح كبير فوق قبر المنظرى حيث توجد أيضا رفات السياسى التطوانى عبد الخالق توريى. وعلاوة على ذلك وفى نفس المقبرة توجد تلة مرتفعة يوجد بها رفات مئات الغرناطيين ويبدو أن من خلال قبورهم ينظرون إلى البحر الذى أتى بهم من وطنهم المفقود.

تم إلقاء الضوء على فترة طويلة فى حياة تطوان الوليدة وهى منذ عام ١٤٨٥ إلى عام ١٥٦٠ تقريباً.

ولقد امتدت الحياة الغرناطية على الجانب الآخر من مضيق جبل طارق مدة ثلاثة أرباع القرن فى المدينة الإفريقية الشمالية.

إن من قام بتأسيس مدينة تطوان هو أحد الغرناطيين وكان الشعب الغرناطى بكل طبقاته الاجتماعية هو من شكل السكان التطوانيين. يمكننا التحدث عن فترة ميلاد ونمو مدينة تطوان على أنها فى قرن المنظرى أو القرن الغرناطى.

وتطوان هى امتداد أليم لغرناطة فى أراضٍ إفريقية، بذكرىات ثابتة مفعمة بالحنين لنفس الوطن الذى لم يغب أبداً عن عقول وشعور سكانه المشهورين.

الهوامش

- MENESES: Correspondencia Tomo II. Año 1513. (١)
- S.I.H.M.: España 1º 1-79. (٢)
- ARANDA, Gabriel: Vida del V. P. Fernando de Contreras. Sevilla 1692. Pág. 507. (٣)
- ARANDA: Op. cit. Pág. 483. (٤)
- TORRES, Diego de: Historia de los xarifes de Marruecos Sevilla 1586. Cap. 54. (٥)
- Fol. 169.
- ARANDA: Op. cit. Pág. 536. (٦)
- RODRÍGUES. Anaisi II-488. (٧)
- ARANDA: Op. cit., 536. (٨)
- S.I.H.M. Port. 1.a III-293. (٩)
- Id. Id. Id. 536. (١٠)
- Id. Id. Id. 469. (١١)
- S.I.H.M. España. 1.a I-138. (١٢)
- S.I.H.M. Portugal 1.a III Carta 3-4-1451. (١٣)
- Al Wata'iq. Rabat 1976. Págs. 367 y s. (١٤)
- RODRIGUES: Anaisi II-332. (١٥)
- S.I.H.M. Portugal 1.a III. Págs. 509 y s. (١٦)
- S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Págs. 59 y s. (١٧)
- S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Pág. 92. (١٨)
- S.I.H.M. España 1.a I. Pág. 83. (١٩)
- S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Págs. 52 y 79. (٢٠)
- S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Pág. 85. (٢١)
- S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Pág. 105. (٢٢)
- S.I.H.M. España I. Págs. 95 y s. (٢٣)
- ARANDA: Op. cit. Pág. 618. (٢٤)

ARANDA: Op. cit. Pág. 639.	(٢٥)
S.I.H.M. España 1.a I. Págs. 96 a 119 y 126-127.	(٢٦)
ARANDA: Op. cit. Págs. 637 y s.	(٢٧)
S.I.H.M. España 1.a I. Págs. 128.	(٢٨)
S.I.H.M. Esp. L.a I. Págs. 130 y 131.	(٢٩)
S.I.H.M. Esp. I. Págs. 142.	(٣٠)
S.I.H.M. España I. Págs. 135 y s.	(٣١)
S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Pág. 227.	(٣٢)
S.I.H.M. España 1.a I. Pág. 146.	(٣٣)
S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Págs. 128 y s.	(٣٤)
S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Págs. 170 y s.	(٣٥)
S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Pág. 257.	(٣٦)
S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Págs. 268 y s.	(٣٧)
S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Pág. 323.	(٣٨)
S.I.H.M. España 1.a I. Págs. 338 y s.	(٣٩)
S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Págs. 381 y s.	(٤٠)
S.I.H.M. España II. Pág. 98.	(٤١)
S.I.H.M. España II. Pág. 130.	(٤٢)
MASCARENHAS, Jerónimo: Historia de Ceuta Lisboa 1915. Pág. 299 y s.	(٤٣)
S.I.H.M. España II. Pág. 365.	(٤٤)
Portugal 1.a V. Pág. 65.	(٤٥)
S.I.H.M. España 1.a III. Pág. 18.	(٤٦)
(٤٧) نعتقد أن خليفته التالي في بانكا كان القائد "حسن" الذي ذكره برنالدي في كتابه تاريخ الملوك الكاثوليك.	

الفصل التاسع

آثار عائلة المنظرى فى غرناطة

المنظريون الغرناطيون بعد الاحتلال المسيحي

أوضحنا سابقا القرية التي أطلق ابن الخطيب عليها المندار، وهي اليوم بدمار Bedmar، ومن الممكن أن يكون لقب مندرى نسباً عاماً لكل من انحدر من تلك القرية أو هو نسب يقتصر على عائلة مهيمنة على تلك القرية استقرت بعد ذلك في غرناطة.

إن قلة المنظرين الذين عثرنا عليهم، وكذا وجودهم في موقع جغرافي صغير، يجعلنا نفكر في وجود عائلة واحدة تفرقت بعد سقوط مملكة بنى نصر.

ويحكي ديموس Dimos في الفصل الثاني عن الوثائق التي تشير إلى وجود منظريين سابقين على الغزو المسيحي. وبعد ذلك الغزو لدينا أيضاً آثار وثائقية سنحاول أن نعرض لها ولكن دون التأكيد بوضوح على درجة القرابة التي كانت تربط أفراد عائلة المنظرى - الذين وجدناهم - بمؤسس تطوان. ففي بعض الأحيان تكون احتمالاتنا أقوى من احتمالات أخرى على الرغم من أننا نرى أن الجميع ينتمون إلى أصل مشترك.

وسندلي بكل المعلومات التي عثرنا عليها والتي تقتصر في بعض الحالات على سطرين وفي حالات أخرى أفضل يمكن أن نسلك طريقاً أطول، موثقاً كما ينبغي.

ففي عام ١٥٠٥ منح الملك الكاثوليكيان أملاً موقوفة لمساجد قديمة إلى أسقفية غرناطة، وكان من بينها أشجار زيتون في أرض "المنظرى" التي كانت تتبع قرية كوخار القريبة من بوليانس Pulianas^(١).

فى بدايات الثورة الموريسكية العظمى فى البشرات، استعان ماركيز موندخار بأثنين من الموريسكيين من أغنياء الفرسان ممن كان يثق بهما للذهاب إلى البشرات كى يحاولا إخماد التمرد الذى كان قد بدأ. "كان أحدهما يسمى المنظرى". تلك المعلومة التى أوضحها خينيس بيريث دى إيتا يمكن الاعتماد عليها إلى حد ما، وذلك لأن المؤلف قد عايش جزءاً كبيراً من الأحداث التى رواها فى الجزء الثانى من كتابه حيث ذكر تلك المعلومة^(٢).

ويبدو لنا هذا المنظرى مندمجاً إلى حد ما فى المجتمع المسيحى، ويعيش عادة فى العاصمة ولكن كانت له مصالح واتصالات مع أهل البشرات. وعندما وصل الموريسكيان إلى ألبونويلس "وجدوا جماعات كبيرة مسلحة وكان من بينهم موريسكيون كثيرون من غرناطة، كانوا أصدقاء لهما". وقد استطاع المنظرى ورفيقه إلى حد كبير إقناع المتمردين بالتهدة.

ولم يذكر بيريث دى إيتا هذا الفارس الموريسكى مرة أخرى، وفى قنطار -Quen tar، عند إعادة تقسيم ممتلكات الموريسكيين "الذين ثاروا واعتقلوا"، تحرى قاضى اللجنة فرىاس - يساعده ديفو دى خوان ألابيثى وهو موريسكى يبلغ من العمر ٦٥ عاماً وكان من سكان المكان الأصليين، وكذلك بارتولومى دى غوثمان من سكان غرناطة والذى كان خادماً لكنيسة قنطار لأربع سنوات - عن الممتلكات والثروات التى وجدت فى البلدة فوجد "بيتاً كان يعيش فيه منظرى موريسكى، تؤول ملكيته إلى مسيحى قديم اسمه أرمنفول من سكان غرناطة وكان يؤجرها لهذا الموريسكى".

ويلاحظ أنه كان يقطن فى قنطار ١٥٥ عائلة كلهم موريسكيون. ومع ذلك فإن العديد من المسيحيين القدامى كانت لهم ملكيات فى القرية، كانوا يؤجرونها إلى موريسكيين، مثلما الحال مع هذا المنظرى. وقد تمت عملية التحقيق فى قنطار فى ١٧ من مارس من عام ١٥٧٢ ولم يذكر المنظرى بعد ذلك^(٣).

هناك عقد إيجار آخر، فى قرية نيبار Nivar فى ١٦ يناير من عام ١٥٧٢، يرد فيه من بين أسماء الأعلام، اسم منطقة تابولا ديل مندارى، وهى متاخمة لكوغويوس^(٤).

وفى ٢٢ من فبراير من عام ١٥٦٨ أقيم مشهد الإيمان(*) فى غرناطة وقد خرج فيه فرانثيسكو المنظرى إلى جانب أناس آخرين متصالحاً وهو من سكان ألمرية^(٥).

حتى الآن لدينا معلومات عن خمس حالات وجد فيها لقب لعائلة منظرى منذ سقوط المملكة، وفيما عدا حالة ألمرية فإنهم جميعاً من أنحاء العاصمة غرناطة، وهو ما لا يثير الدهشة إذا ما علمنا أن الطبقة العليا والحاكمة لمملكة بنى نصر كانت لها ممتلكات متفرقة ليس فقط فى غوطة غرناطة بل أيضاً فى البلدان أو القرى البعيدة تقريباً عن العاصمة.

إذن لا نشك كثيراً فى انتمائهم إلى عائلة واحدة فقط. على الرغم من أننا يمكن أن نضيف حالة تفيدنا فى دراستنا قد تركناها عمداً لكى نحلها بدقة أكثر، وخاصة أن لدينا وثائق كثيرة وغير منشورة عن هذه الحالة.

والمنظريون الذين سنتناولهم الآن يشكلون عائلة ذات مكانة طيبة، لديهم من الأموال ما يسمح لهم برغد الحياة. وكانت هناك دلائل خارجية على ذلك، لكن قد أنهكتهم ظروف زمانهم التى كانت تقوض ركائز المجتمع الموريسكى وتقيم أسس مجتمع السكان الجدد.

ولم يكن التعايش سهلاً عندما لم يحترم هذا المجتمع المصالح المادية والأخلاقية للمهزومين، ولم يأت المستعمر إلى هناك لأجل ذلك، ولم يأت المنتصر لذلك أيضاً.

إن عائلة المنظرى التى نرى ظروفها الأخيرة كانت تقطن فى قرية أثيكيا، بالقرب من ليكرين ومونديخار حيث أقيم مركز مؤقت لقصر مؤقت لعائلة بنى نصر.

(*) كانت محاكم التفتيش تقيم احتفالاً يستمر يوماً كاملاً يرتدى فيه "المذنبون" عباءات صفراء ويصطف الناس لرؤيتهم فى ميدان كبير، فى ذلك المكان كانت تلقى خطبة تحذر من عواقب الإلحاد ثم يبدأ تطبيق العقوبات الخفيفة وفى النهاية يطبق حكم الإعدام على من صدر بحقهم. (المراجع)

ونذكر أن غالبية طبقة النبلاء المسلمين قد تركت العاصمة حينما احتلها المسيحيون، واتجهوا نحو الجنوب باحثين عن طريق يمكنهم من الهروب.

وقد كتب ثافرا إلى فيرناندو الكاثوليكي في نهايات عام ١٤٩٢ "أن بنى سراج نقلوا نساءهم إلى البشُرَات. وبعد أن قاموا ببيع كل ممتلكاتهم هناك، تهيأوا للخروج في نهاية مارس" (٦).

وفي الواقع فقد انتقل الكثيرون إلى البشُرَات، كخطوة ممهدة لذهابهم إلى "الناحية الأخرى من المضيق" ولم يستطيعوا تحمل التغيير المخيف الذي تعرضوا له والذي كانوا قد تحسبوا له (٧).

ولم يبق في المدينة سوى من هم أكثر خوفاً والمستأمنين خلال السنوات الأولى التي تم فيها تنفيذ اتفاقية التسليم. ولكن الذين بقوا ابتعدوا عن العاصمة وبدأت سريعاً المضغوط من قبل الأشخاص والمؤسسات لاستيعاب المهزومين.

ولم يكن هناك الكثير من المسيحيين الذين يسكنون قرى السلاسل الجبلية، بل كانت الغالبية العظمى من السكان مسلمين، وعندما اضطروهم أن يُعمدوا أو أن يهاجروا كان الموريسكيون القاطنون في مناطق منعزلة عن البشُرَات قادرين على تأدية شعائهم القديمة خفية أكثر من الذين كانوا في مناطق أخرى.

ذاك التسامح أو تلك الراحة كانت تقل تدريجياً مع مرور السنين ومع إقامة بعض المسيحيين القدامى بين المسيحيين الجدد.

إن تأسيس محكمة التفتيش في غرناطة عام ١٥٢٦ يشير إلى حدث مهم بالنسبة إلى تنصير المهزومين واستغلالهم. وحتى ذلك الحين مرت فترة لا يمثل فيها الموريسكيون هدفاً رئيسياً لمحكمة التفتيش، ولكن بدءاً من منتصف القرن وتحديداً في عام ١٥٥٠ كان هناك ٤٧ موريسكياً تم التصالح معهم وقد صودرت ممتلكاتهم في "مشهد الإيمان" (*) في غرناطة. وهذا ليس عدداً كبيراً، ولكن ما هو مهم في تلك العلاقة

(*) لمزيد من المعلومات حول "مشهد الإيمان" راجع مقدمتنا لكتاب "الموريسكيون ومحاكم التفتيش" تأليف غارثيا أرينال، ترجمة خالد عباس، مترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة. (المراجع)

القائمة لهذا المشهد هو معرفة أماكن إقامة المتهمين التي هي من غرناطة ذاتها وحتى أماكن بعيدة مثل أورثي Orce، وأماكن وعرة في السلاسل الجبلية مثل كابلييرا، أو أماكن بعيدة ومعزولة إلى حد ما بحيث يجب الإشارة إلى مكان معروف قريب منها مثل غاتكسين في منطقة روندا.

ذلك يوضح أن الموريسكى لم يعد يستطيع أن يشعر بالأمان في أية أرض سواء كانت بعيدة أم منعزلة، فهناك جاء المستفيد(*) وهو من بنى وطنه وراقب حياته وطمع في أراضيه ومساكنه أو حسد وضعه وكان مستعداً أن يأخذه على حين غرة منه.

هذا دون أن نتحدث عن الأماكن التي يوجد بها ثلاثة أو أربعة أو أكثر من المسيحيين القدامى الذين لديهم ملكيات قليلة وطموح كبير.

وفي تلك التواريخ لم يبق أى ناجٍ من حرب غرناطة. والمنظر الذى توفى مسناً، كما رأينا في الفصل السابق قد مات في عام ١٥٤١. وبالتالي عندما مر النصف الثانى من القرن السادس عشر كان قد مر جيلان على الأقل منذ الاستيلاء على العاصمة. فأفراد الجيل الأول هم الذين كانوا لا يزالون أطفالاً صغاراً أو أنهم قد ولدوا في عهد غرناطة المسيحية، وأفراد الجيل الآخر هم أبناء ذلك الجيل وقد رأوا تدهور حياتهم اليومية باستمرار. ويتفق كلا الجيلين فى شىء واحد، ألا وهو الرغبة الهائلة فى الهرب من تلك البيئة التى تزداد سوءاً يوماً بعد يوم بالنسبة إليهم، وأن يذهبوا "لما وراء النهر" إلى الضفة الأخرى من مضيق جبل طارق.

وكان تنديا يعرف ذلك أكثر من أى شخص آخر فى زمانه، لذلك كتب إلى فيرناندو الكاثوليكي فى ٥ يوليو من عام ١٥١٠: "ولم يكن هناك شىء آخر أكثر من تلك الرغبة القديمة لهؤلاء الأناس الطيبين فى أن يذهبوا إلى الضفة الأخرى من مضيق جبل طارق إذا استطاعوا ذلك"^(٨).

(*) المستفيد هو شخص مرتبط بالكنيسة ويتلقى منها راتباً دورياً. (المراجع)

وهذا تصريح إذا ما اعتبرناه صحيحاً في بدايات القرن، فإنه أكثر صحة في منتصف القرن ذاته.

وسوف تقوم محاكم التفتيش بمعاقبة من يحاول مجرد العبور إلى شمال إفريقيا كما سنرى ذلك الآن. بعد عودة كل المسيحيين بقرار بدءاً من عام ١٥٠٢ كان عبور مضيق جبل طارق يعنى رجوعهم إلى دينهم القديم. وهذا كان التبرير الشكلى، أما التبرير الحقيقى يكمن فى الضغط المتواصل لمجتمع مسيحى طمع فى الثروات التى كان يمتلكها الموريسكيون.

وأفراد عائلة المنظرى فى أثيكياس Acequias هم أناس يعيشون فى رغد من العيش. وقد كشفت لنا ذلك وثيقة فى أرشيف الحمراء توضح ما يُعتقد أنه السلب الأول الذى تعرضت له الثروة الصغيرة لتلك العائلة.

إن الملف الذى يتكون من إحدى عشرة ورقة ونصف من الوثائق مسجل بعنوان "توزيع ممتلكات لورنثو إرنانديث من سكان أثيكياس عام ١٥٥٩" (٩).

ففى الورقة الأولى يتم شرح المعلومات التى ستحرك الملف وتحوى الوضع المؤلم الذى بدأ يعانى به المنظريون. وكتب غارثيا المنظرى، أحد هؤلاء المنظرين وكان من سكان "أثيكيا دل بال دى لكرين" إلى حاكم الحمراء يقص عليه حالته ويطلب منه الإنصاف.

"... ولأن لورنثو إرنانديث قد غاب عن بلدة أثيكيا، فقد ذهب مأمور تسلم قصر الحمراء إلى بيت أخت لى تدعى بياتريث منظرى، وقد أخذ بعض الملابس والمجوهرات التى تخصها وتخصنى من البيت".

إذن فإما أن مأمور التسلم نسب ملكية ذلك إلى لورنثو إيرنانديث، أو أنه اتهم المنظرين بالاشتراك فى عملية العبور إلى الناحية الأخرى من المضيق.

وكانت الممتلكات قد أودعت فى بيت ميغيل دى أنتيكيرا وهو حاجب أثيكياس.

وطبقاً لما استمر في شرحه غارثيا المنظرى في كتابه، فإن تلك الممتلكات "كان قد أخذها مأمور محكمة التفتيش من أمى وأختى وقد اشتريناها من مأمور محكمة التفتيش خلال شهر سبتمبر الماضى من هذا العام".

وكانت سلطة محاكم التفتيش قد زارت تلك العائلة. وكما يوضح في كتابه فإن كلا من أخت وأم غارثيا كانتا "تائبتين" ولم تطلبا الإنصاف فقط، بل طلبتا "إحساناً كبيراً".

ولم يتحدد هنا أو في كل الملف الجرم الواقع من إيسابيل وبياتريث أم وأخت المنظرى. وقد قالتا إنهما أرملتان وذلك في التماس إلى كونت تنديا طلبتا فيه استرداد ملابسهما، وهو التماس أرفقتا به توكيلاً - كُتب في الورقة التالية - وقد أعطت المرأتان التوكيل إلى ديبغو مالدونالدو وهو من سكان أثيكياس وذلك لكى يتصرف باسمهما أمام السيد الكونت. وكما سنرى فإن غارثيا البائس لم يكن حسن الهيئة.

وقد أصدر السيد لويس أورتادوى مندوثاً أمراً في ٣١ يونيو من عام ١٥٦٠ لكى يقوم حاجب أثيكياس - الذى ترك له إرناندوى سيرا الممتلكات المصادرة - برد الممتلكات إلى بياتريث، ولأن المصادرة تمت دون دليل فقد أمر إرناندوى سيرا بأن يدفع إلى بياتريث مبلغ دوقية تعويضاً.

وقد صدر أمر آخر في الثانى من أغسطس وجه مباشرة إلى ميغيل دى أنتيكيرا يقضى بأن يسلم إلى بياتريث منظرى كل الممتلكات التى احتجزها.

"إرناندوى سيرا وهو شخص كلفته بأن يبيع ممتلكات الذين تنصروا حديثاً من هذه المملكة وقد عبروا إلى شمال إفريقيا"، والتى قد أخرجها من منزل بياتريث "قائلاً إنها ممتلكات لورنثو إرنانديث وهو أحد الموريسكيين الذين عبروا إلى شمال إفريقيا".

وفي النهاية تظهر بياتريث بمفردها ولا نعلم مصير أمها إيسابيل التى من الممكن أن تكون قد توفيت. أما أخوها غارثيا فقد تعرض لمشكلة مشابهة في عام ١٥٦٠.

وسوف نرى الملف الآخر الذى يتناول ذلك والذى سيزيد من الأزمة التى مرت بها عائلة المنظرى.

ولكن لا نريد أن نترك ملف الحمراء الغرناطية بدون أن نشير إلى قائمة الملابس والمجوهرات التى اشتملت عليها الورقة العاشرة من الملف والتى تمدنا بمعلومات بالغة الأهمية فى الموضوع الذى يهمنا هنا وهو ما يزيد اعتقادنا فى أنها عائلة ذات وضع فوق المتوسط، فقد كانت هناك ستة قمصان مطرزة، وما يقرب من ستة قطع أقمشة، وثمانية أمتار من النسيج، وأربعة ملاءات، وثمانية وسادات، وقبعتان إحداهما مطرزة بالذهب، وقطعة كبيرة من القماش الحرير الملون، إلخ. ولا نبالغ إذا ما قدرنا قيمة الملابس بما يزيد عن ٥٠٠ دوقية. ولا نعرف قيمة المجوهرات، إن وجدت، حيث لم يتم ذكر أى شئ يتعلق بها^(١٠).

كان همُّ عائلة المنظرى فى ذلك التاريخ من أغسطس عام ١٥٦٠ منصباً حول مصير كل الممتلكات التى كانت لديها، أكثر من اهتمامها باستعادة بعض الملابس التى كانت قيمة لكن يمكن الاستغناء عنها.

والمسألة تأتى من الماضى تقريباً فى عام ١٥٥٩ فعلياً أن نرجع بالذاكرة إلى هذا العام كى نتعرف على وضع تلك العائلة التى سُجّلت فى بعض الوثائق الموجودة فى المحكمة الملكية فى غرناطة.

الوثائق موجودة فى رابطة ذات ثمانى ورقات، تتضمن أولاً وثيقة خاصة بالمزايدة ووثيقة أخرى خاصة بالإيجار الذى تحول إلى بيع.

هذا هو التسلسل الزمنى ولكن ليس بترتيب الأوراق. فإن التأجير موجود فى الورقة الأولى والمزاد يبدأ فى الورقة الثالثة، وكانت الورقة الثانية فارغة ولا يوجد بها إلا اسم "غارثيا خيرون وهو مسيحى جديد"^(١١).

ويوجد فى الورقة الثامنة عدان بأرقام رومانية وعدد آخر بأرقام عربية.

وتقول بداية الورقة ١ :

تأجير ممتلكات المنظرى .

فى أثيكياس، فى ١١ سبتمبر من عام ١٥٥٩ وأمام كاتب العدل والشهود، استأجر غارثيا المنظرى وأخوه ميغيل المنظرى "من أراضى صاحب الجلالة ومن محكمة التفتيش فى غرناطة ومن خوان دى ثارأتى مأمور التسلم، كل العقارات التى صودرت من أندريس المنظرى وزوجته إيسابيل وهما من سكان أثيكياس وهما والدا ميغيل وغارثيا المنظرى".

إن فى هذا هم الأب والأم والأخت مقحمون فى جرم غير معروف، حوكت بسببه المرأتان من قبل محكمة التفتيش وكذلك أندريس دون ذكر العقوبة، وقد صودرت ممتلكاتهم نتيجة لذلك.

ومن الممكن أن يكون السبب قد بدأ فى عام ١٥٥٨ وقد صدر الحكم فى مشهد الإيمان الذى أقيم فى غرناطة فى ١٦ يناير من عام ١٥٥٩^(١٢).

وقد رأينا أن غارثيا المنظرى قد قال إنه اشترى ملابس أمه وأخته اللتين سجنتا فى ذلك التاريخ من سبتمبر عام ١٥٥٩ من مأمور محكمة التفتيش. وهو نفس التاريخ الذى حدث فيه تأجير العقارات الخاصة بوالديه.

نفترض أن أندريس المنظرى قد مات خلال ذلك العام، فربما كان ذلك قبل سبتمبر. وقالت إيسابيل إنها قد تزلت وذلك فى قضية الملابس.

وبهذه الطريقة فإن الأبناء كانوا الشخصيات الرئيسية فى التأجير وفى دفتر المزايدة. ومن المحتمل أن إيسابيل كانت قد توفيت كذلك حيث إننا لا نجد فى الوثائق الأخيرة الخاصة بإعادة ملابسها، فقد ورد فقط اسم بياتريث.

وقد حاول غارثيا وميغيل المنظرى أن يتقذا ما يستطيعانه من ميراث أسلافهما الذى كان - بالإضافة إلى منحل - "عبارة عن منازل وطواحين ويساتين وقطع أراضى

وداليات وكرم زيتون وأشجار توت، وأخذوا من ذلك كله عائداً قدره ١٢ ألف عملة مرابطية سنوياً".

كان ذلك بمثابة البريق الأخير لعائلة غرناطية، وسوف يتم التفصيل في دفتر المزايدة عندما لا يتم الحديث عن تأجير بل عن بيع للممتلكات، فالأراضي الصالحة للرى تزيد عن ٢٧ مارخال(*)، أما الأراضي البائرة فتبلغ سبعة فانيغات، أى ما يقرب من ستة هكتارات. وقد ارتفعت قيمة الممتلكات المصادرة إلى ما يزيد عن مائتى ألف عملة مرابطية موزعة على أثيكياس وبيدمار ونيغويلاس وكاثولاس وإسكوثار. وليس هناك شك فى أن أندريس المنظرى لم يكن مزارعاً ولم ينحدر من فلاحين، وحتى الآن قد استطاع أن يعيش حتى أواخر القرن السادس عشر من إيرادات العقارات التى كانت تشكل بقايا ثروة محولة إلى ممتلكات ريفية كان والداه أو أقاربه قد حاولوا أن يحصلوا عليها عندما تركوا المدينة للمسيحي.

وكان لدى غارثيا وميغيل على الأقل نقود كافية كي يدفعها ويُبقيها على باقى ممتلكات والديهما، وذلك بعد أن حكم عليهما باحتجاز أملاكهما فى غرناطة فى ٢٥ فبراير من عام ١٥٦٠ فى مشهد الإيمان(١٣).

وفى ٣١ يناير من عام ١٥٦١ استعد المُنَادى سيمون إرناندث – "بعدما أتم العديد من الإشهارات لتلك الأملاك، – وأقام مزايدة على الممتلكات".

وكان المسعر ديفغو مالدونادو من سكان القرية، وقد تعرفنا عليه من خلال ما قام به من تقديم قرض للسيدتين بعد الحكم باحتجاز ملابسهما(**).

(*) وحدة قياس تساوى ٥٢٨.٤ متراً مربعاً. (المراجع)

(**) قراءة وثائق القرن السادس عشر تثير الاهتمام فيما يتعلق بالملابس، ويبدو أن الملابس كانت عالية القيمة إلى حد اعتبارها ثروة هائلة. لاحظ أن اتفاقية تسليم غرناطة وملحقاتها تتضمن بنوداً عن الملابس. (المراجع)

وقد ظلت كل الممتلكات تقريباً تحت تصرف المنظرين باستثناء بعض ما يمكن تفسيره على أنه هبات أو تنازل إذا ما عرفنا الظروف الشخصية والزمنية للشخصيات بشكل أفضل. وهكذا، فقد اشترى أحد المتفعين وهو فرانثيسكو دى مولينا بيتين وبستاناً صغيراً مقابل ثمانين دوقية. وقد حصل ديبغو مالدونادو على شجرة زيتون وشجرة توت وشجرة جوز، أما فولخنثيو إرناندث فقد دفع ست دوقيات وريالين مقابل كرمة مساحتها مارخال ونصف. وهناك آخر وهو لورنثو مهلي، دفع خمس عملات مقابل نصف منحل يحتوى على ٦٠ خلية نحل، وفيما عدا المنازل التى تمثل ١٦٪ من المجموع، فإن الباقي ليست له أهمية كبيرة إذا قورن بـ ٥٠٠ دوقية التى عرضها مارتين بيريث مقابل كل تلك الممتلكات فيما عدا المنحل.

والـ ٥٠٠ دوقية تساوى ١٨٧,٥٠٠ مرابطى. أما الممتلكات التى تخص عائلة المنظرى فقد ارتفعت إلى ١٨٢,٢٩٥ مرابطى.

أما الذى دفعه الآخرون فيبلغ ٤١,٤٦٩ مرابطى، وتلك المبالغ الأخيرة التى بلغت ١٨٢,٢٩٥ ، وبذلك يكون المجموع ٢٢٣,٧٦٤ مرابطى، وهى قيمة الأملاك قبل بدء المزاد^(١٤).

ولكى يبقى المنظريون على العقارات العائلية كان عليهم أن يدفعوا ١٨٢,٢٩٥ مرابطى، تعين عليهم أن يدفعوا مبلغاً مماثلاً لكى يحصلوا على ملابس أهم وأختهم، فيصل المجموع إلى ما يقارب ٤٠٠,٠٠٠ مرابطى وهى ما كانت لديهم. ذلك إلى جانب المنازل والبساتين، إلخ. قبل أن تحدد محكمة التفتيش سعرها وهو ما قد ضاعف هذه القائمة للغاية.

قمنا ببعض الحسابات كي نظهر عملياً أن هؤلاء المنظرين كانوا أثرياء، وبالتالي لديهم إمكانيات هائلة، فإنهم ينتمون إلى إحدى أفضل عائلات غرناطة.

لا نريد أن نثبت شيئاً أو أن ننكر شيئاً آخر، نحن نشير فقط بكل بساطة إلى احتمالية. فلكى نثبت شيئاً يتعين أن تكون لدينا وثائق أكثر من مجرد تشابه الأسماء

أو الألقاب العائلية، ولكن استناداً إلى المعلومات المتاحة فقد اقتربنا من الحقيقة أكثر مما قربنا إليها كل من ليون الإفريقي أو مارمول.

وبقى لنا حتى الآن أن نتابع الطريق الأخير للمشكلة الموريسكية، كتمهيد حقيقي لاستئصالها الكامل.

إن ثورة البشرات العظمى في عام ١٥٦٨ هي نتاج لعدم التسامح وللتجاوزات غير القانونية وعمليات الإذلال والتحقيق، قد اندلعت بكل قسوة ووحشية حتى أن عدد ضحاياها قارب ما تسفر عنه حرب أهلية حقيقية. إن حكايات مارمول كارباخال(*) سببت رعباً فظيماً أكثر مما كان يمكن أن تسببه رواية مؤرخ موريسكي.

وبدون احتمالات للنجاح فقد حارب هذا الشعب المهمش بكل قواه من أجل الحصول على حريته في بعض مظاهر الحياة.

عند انتهاء الاقتتال كان قد اختفى ٣٠٪ من السكان الموريسكيين. فقد عوقب بعضهم بالنفى إلى خارج منازلهم، وآخرون قد اختفوا، وآخرون مساوون لهم اختفوا بسبب الحرمان والمرض.

ولقد تلقى موريسكيو وادي لكرين إلى جانب موريسكي غرناطة وغطتها ومالقة الشرقية وآخرين أوامر بالتجمع في ٢٨ أكتوبر من عام ١٥٧٠ وذلك كي يتم ترحيلهم جميعاً إلى قرطبة في الأول من نوفمبر.

ومن هنا سوف ينقسمون ما بين إكستريمادورا وغاليثيا. ولم يتأكد وصول أحد منهم إلى غاليثيا أما في إكستريمادورا فربما وصل أحد من أثيكياس.

وقد رجع قليلون(**) آخرون إلى مملكة غرناطة وتم طردهم منها في عام ١٥٨٤، ولم يرجع أحد من الموريسكيين القدامى إلى أثيكياس.

(*) نأمل أن يتم الانتهاء قريباً من ترجمة هذا الكتاب لكي ينشر ضمن إصدارات المركز القومي للترجمة. (المراجع)

(**) يرى خوليو كارو باروخا أن الموريسكيين الذين عادوا إلى غرناطة كان عددهم كبيراً. (المراجع)

وأصبحت القرى والضيعات والأماكن غير مسكونة، العائلات متفككة، وقد تدمرت الثروات والبساتين فى كامل المنطقة إلى جانب أضرار أخرى لحقت بالمباني والمنشآت التى شكلت مشهداً من الأسى والدمار.

أما بالنسبة إلى أثيكياس فيخبرنا كتاب الممتلكات عن وضع عائلة المنظرى ومصيرها، وكانت هذه الوثيقة هى آخر شهادة لوجود عائلة منظرية فى المملكة الإسلامية القديمة فى غرناطة^(١٥).

وفى تالارا أو لكرين فى ١٥ من يونيو من عام ١٥٧٢ قام ماتشوكا قاضى اللجنة الملكية مع كاتب المحكمة أنطونيو سانشيث بالسؤال عن السكان الذين كانوا فيها وعن الممتلكات التى وجدت فى ذلك المكان، وقد سئل أخوان مسيحيان مسنان وهما ديبغو وخوان سولييث وكانا يقيمان فى وادى لكرين، ولكنهما كانا الوحيديين اللذين بقيا فى أثيكياس من السكان القدامى. وقد صادفنا ديبغو فى حادثتين سابقتين، فهو الذى كان يقدر الرسوم فى مزايدة ممتلكات المنظرين.

"يقولون إنه فى زمن الموريسكيين كان هناك ستة وستون موريسكيا، أما الآن فلا يوجد أحد منهم، وكذلك هذا المكان غير مسكون، حيث إن ذلك المكان وتلك الديار قد دمرت وحرقت بسبب أنه كان هناك حقل دوق سيسا وقد حوصرت تلك البيوت الموجودة لعدة أيام ولهذا فهى غير صالحة للسكنى".

وفضلاً عن ذلك فكل "الأشجار المثمرة قد اضمحلت وتلفت".

ولم يستطع أحد من السكان أن يظل هناك^(١٦).

وقد سجلت هناك ثلاثمائة مارخال تزرع بطريقة الرى ومائة فانيغات بدون رى، وخمسون كرمة "مهملة"، وطريق جميل على النهر، وأفران، وطواحين وساقية تقسم مياهها مع مندوخار Mondujar وتتضح حدود البلدة بعد ذلك.

وفى ٢٥ يناير من عام ١٥٧٤ استولى كاتب المحكمة ألونسو سانشيث على ممتلكات "كانت للموريسكيين المتمردين والمطرودين" - باسم جلالة الملك -.

وفى نفس ذلك الشهر من نفس العام شُكلت "لجنة لتوطين سكان فى منطقة ساقية الوادى Acequia del Valle" مع الأخذ فى الاعتبار أن مجلس إعادة التوطين كان قد جلب ١٦ ساكنًا جديدًا كانوا كلهم من خارج مملكة غرناطة، وكان ينبغي أن يوزع بينهم (٢٠ قطعة أرض تتكون منها الأراضى^(١٧)). كان أحدهم يدعى ديبغو دى فوينتس ينحدر من بايلن كان من نصيبه قطعة ونصف فيهما بيتان كانا لديغو المنظرى^(١٨).

وقد أُعطى ساكن جديد آخر وهو خوان برديوغو منزلا "بجانب القرن الذى كان يحد بيتًا كان لغارثيا المنظرى"^(١٩) وكانت تلك آخر المعلومات الموثقة التى تعرف عن المنظرين فى شبه الجزيرة.

إن أى سؤال حول مصير غارثيا وميغيل فى ظل تلك المواجهة العنيفة بين حضارتين إحداهما فى أوجها بينما كانت الأخرى فى عصر انحطاطها يظل بدون إجابة. وقد كان لكليهما أسباب كافية للانضمام إلى الثوار والقتال معهم حتى النهاية.

وما لا نعرفه هو ما إذا كانوا قد سقطوا فى تلك العملية أو أنهم استطاعوا الهروب إلى شمال إفريقيا، أو أنهم عاشوا فى حالة من السوء وناهوا بعد ذلك فى المنفى فى إحدى القرى الموريسكية الكثيرة التى عاشوا فيها فى إكستريمادورا حتى تم طردهم النهائى.

إن الإشارة إلى المنظرين فى كتاب حصر الممتلكات فى أثيكيا هى مثل الشاهد على قبر مدفون فيه وفات أحد الأسماء التى ترمز إلى الجهد الإشباني المبذول على جانبي المضيق، وفى هذه الحالة التى نحن بصددنا ترمز إلى مآثر بعض الفرناطيين فى أراضٍ إفريقية.

الهوامش

- VILLANUEVA RICO, M.a del Carmen: Híabices de la ciudad de Granada. Madrid (١) 1961. Pág. 324.
- PÉREZ DE HITA, Ginés: "Guerras civiles de Granada". B.A.E. Madrid 1963. Pág. (٢) 596.
- R(eal) CH(ancilleria) de G(ranada): Libro de Apeos de Quéntar. (٣)
- GUERRERO LAFUENTE. M.a Dolores: Nívar. Granada 1986. Pág. 48. (٤)
- GARCÍA FUENTES, José M.A: La Inquisición en Granada en el siglo XVI. (٥)
- Granada 1981. Pág. 78. (٦)
- C.O.D.O.I.N.: Xi. Pág. 503. (٧)
- C.O.D.O.I.N.: Xi. Pág. 525. (٨)
- MENESES: -Correspondencia- II. Pág. 41. (٩)
- Archivo de la Alhambra: L-34- 13. (١٠)
- MARTÍNEZ RUIZ, Juan: Inventarios de bienes moriscos del reino de Granada (١١)
- (siglo XVI). Madrid 1971. Págs. 250-251.

١ - لا تعرف فائدة هذه الورقة هنا مع هذا الاسم.

- La Inquisición en Granada\ Pág. 16. (١٢)
- La Inquisición en Granada\ Pág. 24. (١٣)
- R.CH.G.: Cabina 201. Legajo 5.191. Pieza 11. (١٤)
- R.CH.G.: Libro (de) A(peos) (de) A(cequias). (١٥)
- R.CH.G.: Libro A.A. Fols. 15 y 15, vt.o (١٦)
- R.CH.G.: Libro A.A. Fols. 3 y 3 vt.o. (١٧)
- R.CH.G.: Libro A.A. Fol. 21. (١٨)
- R.CH.G.: Libro A.A. Fol. 59. (١٩)

الفصل العاشر

آثار المنظري في تطوان

أهمية المنظرى فى تاريخ عصره

كانت حرب غرناطة ١٤٨٢-١٤٩٢ مزيجاً من حرب فى العصور الوسطى وحرب حديثة، لا يزال الجنود المسلحون والرماة يؤدون دوراً مهماً، وكانت هناك أيضاً بطولات من الفروسية، وقد قامت القلاع بدور كذلك وإن لم يكن حاسماً إلا أنه كان عائقاً أمام تقدم خاطف أو قرار متعجل، وكان الحرس الملكى يفوق جيشاً نظامياً.

وبالعكس فقد بدأ يظهر فى التنظيم العسكرى المسيحى محاكاة لجيش حديث وقيادة عسكرية وخاصة المدفعية بدرجة غير مسبقة حتى ذلك الحين، هذا التقدم- فى معظم الحالات- حسم النزاع لصالح من يملك القوة وهو فيرناندو الكاثولىكى.

إن تطور الأسلحة النارية وإدراك أهميتها جعلت أنه كلما استسلمت حاميات عسكرية بشكل سلمى فإن الملك فيرناندو يأذن لهم فى أن يعبروا إلى ما وراء النهر مع كل أسلحتهم وجيادهم إذا ما كانوا فرساناً، ولكن دائماً كان يستثنى البارود والأسلحة النارية.

وكان الغرناطيون المنفيون وفى مقدمتهم المنظرى يشكلون فى الأصل مجموعة صغيرة من الفرسان المسلحين جيداً ولكن دون مدفعية، وكانت خططهم وتسليحهم يسمح لهم بالصمود أمام هجمات السكان الأصليين، الذين كانوا يحاولون منع استيطان الغرناطيين فى أراضيهم، وكل من الأسطورة والتاريخ قد رصدوا هذا العداء الغربى للغرناطيين.

تقول الأسطورة: "إنه ذات يوم، عندما شُيدت الأسوار وفى وقت جلوس العمال لتناول الطعام عرض لهم سيدى المنظرى الغرض من بنائها وبدهشة بالغة لاحظوا أنه

كان بجانبه رجل كان كل جزء منه يُشع ضوءاً وريقاً. المنظرى الذى كان متعجباً من ذلك الشخص غير المعروف، سأله: من أنت يا سيدى؟ فأجابه: أنا نبيك، رسول الله. حينذاك سجد كل المستمعين أمام محمد، وقاموا بإجلاله بطريقة واحدة وتضرعوا داعين من أجل المدينة الوليدة، مستشفعين بمكانته العظيمة القريبة من الإله القدير أن يعيش الشعب فى سعادة وسلام. فأجابهم النبی: أنا أجيبكم وأضمن لكم أنه عندما يعيش الناس سعداء وفى سَكينة إلى مستوى الركبة سوف تُرى مدينتكم تلك فى سعادة غامرة حتى العنق، أما عندما تتجشم البشرية عناء المصائب والتعب حتى العنق فسوف يستبد بكم القلق حتى الركبة" (١) .

وفى مسرح العمليات الأكثر واقعية حيث يقيمون فى المنحدر المغربى الشمالى يوجد ممثلون آخرون وإحداثيات أخرى مختلفة عن التى كانوا يؤدونها فى غوطة غرناطة وفى جبال البشرات. وكان البعض مؤيدين وكان البعض الآخر معارضين.

وكان المؤيدون هم السلطة المركزية الوطاسية وكذلك السلطة المحلية التى كان يمثلها سيدى على بن راشد وهو قائد محارب من نوى الشجاعة الجديرة بالذكر ومن أقارب الأشراف أو المسلمين النبلاء من شمال المغرب.

أما المعارضون، فبالإضافة إلى المعارضة الإقليمية والتى هُزمت بمساعدة بن راشد، كان هناك أفراد آخرون محليون، يعدون الأعداء الأكثر خطراً يماثلون فى خطرهم أولئك الذين تركوا فى شبه الجزيرة. نحن نشير بكل وضوح إلى البرتغاليين الذين احتلوا الحدود منذ بدايات القرن الخامس عشر. وهى بُؤرٌ حقيقية فى أرض غير آمنة، محاربون متمرسون ذوو مهارات فى الغارات وحريصون على التوسع والاكتفاء الذاتى.

فى مواجهة هؤلاء المحاربين البرتغاليين فإن المحاربين المنظرين كانوا تقريباً فى نفس الظروف ومع أنهم كانوا يفتقرون إلى المدفعية، فعندما خرج البرتغاليون من حمى دفاعاتهم المحصنة والمزودة بالمدافع، كان الطرفان يتساويان ويتعرضان لمصاعب فى

أرض مكشوفة لا تعوضها الانتصارات التي تمت ولا سلوى التشبث خلف أسوار
وخنادق مواقعهم الحصينة.

ونؤكد أنه قبل الوجود الغرناطي في الشمال المغربي، كانت هناك خفة وطلاقة
وسهولة لدى الحاميات العسكرية المسيحية كي تتحرك وتجبر المسلمين على دفع الجزية
وتحول عدداً كبيراً من السكان المقيمين في مناطق واسعة من الأراضي التي يشملها
منعطف شمال المغرب إلى "مسلمى المصالحة".

وقد هُوجمت تطوان ودُمرت في عام ١٤٣٧، وشكلت نقطة انطلاق أو نقطة توقف
للغارات التي تعمقت داخل البلاد عند أخماس Ajmas على مشارف الشاون.

ومن جانب آخر، فقد سار محاربو أصيلة وطنجة حتى بوابات القصر الكبير وربما
فكروا للحظة في أن يحتلوه وكذلك الأمر بالنسبة إلى العرائش.

إنه من الواضح أن البرتغال كانت تسعى إلى إقامة محمية في مملكة فاس بادية
من الشمال حتى الجنوب، وهو نفس الشيء الذي حاولته بعد ذلك من الجنوب حتى
الشمال.

وسريعاً فقد اعتمدت في الشمال على كل مخارج البحر للدولة الشمال إفريقية،
وقد مثل ذلك حصاراً اقتصادياً على مملكة فاس (بينما كان ميزة استراتيجية كبيرة
بالنسبة إلى البرتغال)، فمن مواقعهم الحصينة بدأ البرتغاليون في التوسع دون أدنى
مقاومة.

ولم يكن السكان الأصليون مسلحين، بل كانوا يحاربون في أكثر الأحيان
بالعصى وبالحجارة إلى جانب افتقارهم إلى التنظيم وإلى القادة.

فكان الفلاحون المغاربة فريسة سهلة، ليس فقط بالنسبة إلى من يريد تحصين
"الحدود"، بل بالنسبة إلى من يبحث عن سيطرة دائمة وعامة على البلاد.

كان ملك فاس على فترات متباعدة يدفع بجيشه نحو الشمال فى محاولة للهجوم على إحدى القلاع، أصيلة أو طنجة أو القصر الكبير، ولكن كان بلا جدوى، فلم تكن لديه موارد بشرية ولا مادية لتحقيق ذلك، على العكس كانت تلك الحملات تُغضب السكان بشدة فقد كانت تمثل كارثة بالنسبة إليهم، من هنا كان الحماس القليل فى التعاون والرغبة فى أن ترجع تلك الحشود المسلحة كى تغزو قرى وضياع تدمرها كلها(*).

ولقد استمرت تلك الأحوال إلى فترة طويلة من الزمن. لم تتمكن البرتغال من حسم الموقف لصالحها بشكل كامل.

وهناك عامل خاص سيكون ضدها وهو قلة عدد قواتها إلى جانب كثرة الحملات، فمِنذ أن احتُلت سبتة عام ١٤١٥ وحتى احتلال أصيلة وطنجة عام ١٤٧١ مر أكثر من نصف قرن وقعت فى منتصفه الهزيمة الساحقة أمام طنجة فى عام ١٤٣٧، وهو ما غطى على احتلال تطوان فى نفس العام.

إذن، فهكذا لم تحل تماماً المسألة العسكرية حيث اشتدت مقاومة السكان بداية من عام ١٤٧١ وظهر اثنان من القادة أو من الزعماء المحاربين: بن راشد المغربى والمنظرى الغرناطى، وعلاوة على ذلك فقد بدأت هجرة غرناطية كبيرة جدا شكلت الفرق العسكرية الأكثر أهمية والتي سوف يعتمد عليها كلا الزعيمين.

ولم يكن الجانب العسكرى فقط هو الذى شهد انقلاباً مهما لدى وصول المنظرى، بل حدثت ظاهرة اجتماعية كاملة بسبب الحشود الضخمة من المنفيين، وهؤلاء لم يكونوا فلاحين بائسين من العصور الوسطى مغمورين فى بنية أقل من البنية الإقطاعية، بل كانوا فى غالبيتهم من الطبقة البرجوازية والميسورة واعتادوا مستوى

(*) عدم حماس السكان أدى إلى عدم تعاونهم مع الحملات، وعدم التعاون كان يؤدي إلى رغبة القوات فى معاودة الهجوم، (المراجع)

آخر من الحياة وقد ظلوا يقاومون الاندماج فى المجتمع المغربى لمدة طويلة من الوقت. وقد انعزلوا عن المحيط بهم عندما استطاعوا ذلك، وتجمعوا فيما بينهم واستفادوا من الظروف فى ذلك الحين ونجحوا فى أن يشكلوا نواة مواطنين، مثلما فى الشمال، وأن يقيموا خلال فترة طويلة من الزمن مدناً بثت فيهم رياح الاستقلال أو على الأقل التمتع بحكم ذاتى.

كانت تلك هى حالة تطوان الغرناطية تماماً أو حالة الشاون التى أسهم الغرناطيون فى تكوينها.

هذه الظاهرة الغرناطية من إنشاء المدن فى غاية الأهمية وستكون لها نتائج على المدى القصير أو المتوسط أو البعيد. وسريعاً، فقد تعطل تصحر الأراضى المغربية الشمالية التى كانت تعتمد على المدن التى كانت تحت أيدى السكان الأصليين.

وتوجد بورتان جديدتان لحضارتين متمدنتين سوف تقاومان كل الهجمات والشدائد وستظلان حتى اليوم.

وهو عامل إيجابى فى تاريخ البلاد يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار.

هناك عامل إيجابى آخر شكله الذين تجمعوا لرفض الغازى المسيحى وسوف يقاومون بحماس وبروح انتقام مرعبة. وسوف يقوم الغرناطيون بمنع الفلاحين المغاربة من أن يعقدوا سلاماً مع البرتغاليين وأن يتاجروا معهم. ولم يستمر السكان الريفيون فى وداعتهم وعدم مبالاتهم إزاء ما لا يمكن تجنبه ولا مقاومته من القوى المضادة. وقد تبدد الحلم البرتغالى فى إقامة محمية دائمة إذا تم احتلال مملكة فاس فى المستقبل.

منذ وصول المهاجرين لم يعد هناك سلام فى شمال المغرب.

وعلى المدى المتوسط سوف تكون هناك عواقب أخرى ليست أقل حسماً. وسوف يشكل الغرناطيون خيرة قوات السلطان، وكذلك الزعماء الرئيسيين وحكام الأراضى، وفى لحظة حاسمة سيكون المحاربون الأندلسيون المنضمون إلى الجيش المغربى هم

العامل المحدد فى هزيمة الملك السيد سيباستيان فى معركة القصر الكبير، وهو نهاية حلم كان يداعبه لفترة طويلة.

وكان المؤرخون يتساءلون أحياناً لماذا لم يستطع المنفيون الغرناطيون الكثيرون - الذين كان المنظرى يمثل فيهم رمزاً دلالياً - أن يوقفوا امتداد العصر الوسيط المغربى الذى أصاب البلاد بالشلل لعدة قرون.

وطبقاً للبعض، فإن احتلال الواجهات الساحلية للمغرب جعل المغرب يظل على هامش التيارات التجارية والفكرية الكبيرة التى أشاعت الحيوية فى العصر الحديث فى أوروبا.

أما البعض الآخر فيعتبرون على العكس، فهذه الهجرة قد عرقلت التطور الطبيعى للمجتمع المغربى وأثرت فيه سلباً.

ولنضع حداً لتلك التبريرات التى يمكن أن تُعرض، ولا ينبغي أن يُنسى فى المقام الأول ثقل السكان المغاربة فى تلك الهجرة الأجنبية الضخمة، وفى المقام الثانى فإن أولئك المهاجرين (لم يكونوا يحملون فى طياتهم بذرة الحداثة التى كان يمكن أن تكون عامل جذب، فالحضارة الغرناطية كانت أيضاً مصابة بالشلل).

آثار المنظرى فى تطوان:

ليس من الصعب أن نجد ذكريات للمنظرى فى المدينة التطوانية القديمة. إن نواة السكان التى تطورت المدينة من خلالها كى تستقبل مهاجرين كثيرين، نجدها حول ما يسمى برج أو قلعة المنظرى.



إحدى زوايا حصنى المنظرى

زاوية قصر- قلعة المنظرى .

وكانت تنقصنا المستندات والوثائق، فقد عثرنا على أحجار وطوب، والمذكرات المجموعة فى الرسائل والأخبار كلها بصفة عامة فى أرشيفات أجنبية(*) .

وربما كانت هناك سيرة لتاريخ القديسين أو أسطورة ذات طابع دينى تتضمن أخباراً مغربية وخاصة فى فترة العصور الوسطى. وينبغى أن نعرض ما كتبه مؤلفون أجانب من أمور ينكرها السكان المحليون غالباً.

ولكى نتعرف على نطاق المدينة الأصلية التى أسسها المنظرى بشكل مثالى، فكما عرضنا فى أحد الفصول السابقة، سنعتمد على ثلاثة كتاب معاصرين للمنظرى: ليون الإفريقى، القائد غايتان Gaitan ، وبعد ذلك بقليل يوسف الفاسى ومارمول.

إن بوابات السور التى يتحدث عنها الفاسى وضعها المؤرخ داود فى المواضع التالية للمدينة:

"كانت إحدى تلك البوابات فى الجزء الشمالى الشرقى للمدينة، وهى ما تعرف باسم باب السفلى Sefli، وذلك لأن مخرجها يؤدى إلى سهل منخفض للمدينة وينتهى عند شواطئ البحر. ونفهم أن مكان تلك البوابة هو القوس الموجود عند شارع سلوقية بجوار سيدى السعيدى، بينها وبين أحياء المسجد الكبير والمطمار Metamar . وكانت البوابة الثانية بجانب الزاوية النصرارية وصولاً إلى الفندق المعروف بفندق النجار. أما بالنسبة إلى البوابة الثالثة فكانت فى الجزء الغربى للمدينة. ويعتقد الغالبية أنها كانت بين شارع السياجين والخرّازين فى القوس المعروف بقوس السيفين" (٢) .

ولم تصل أى من تلك البوابات إلينا فى صورة بوابة. ومع ذلك فنعتقد أنه فى زمن المنظرى قد تغير بعض منها عند توسعة وزيادة المدينة. وبطبيعة الحال ليست كذلك كما

(*) لا نمل الحديث عن نقص الوثائق العربية فيما يتعلق بالقرون الماضية، نأمل أن تكون قضايانا المعاصرة أفضل حالا من هذه الناحية. (المراجع)

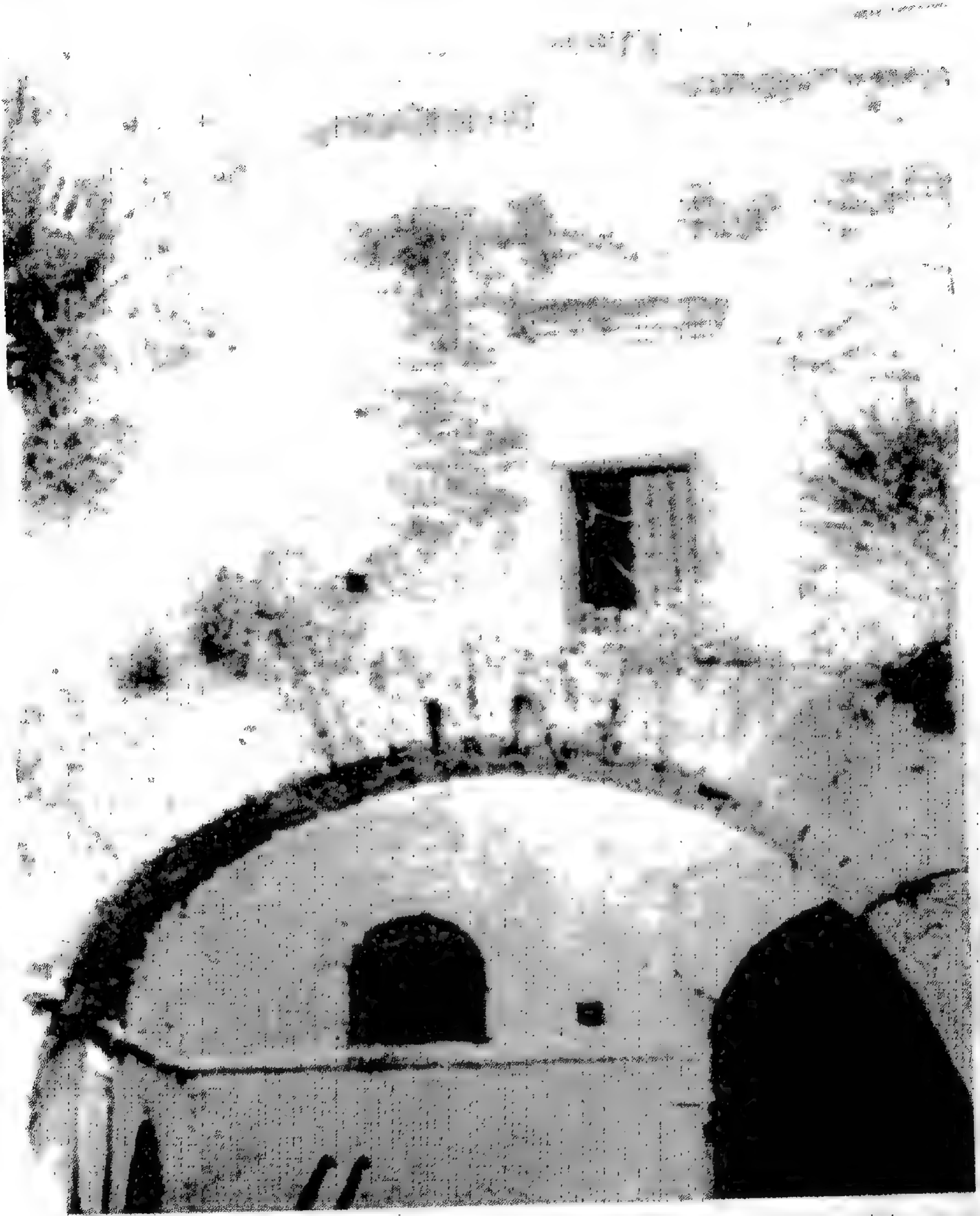
نعرفها الآن ولكن نعرفها تقريباً فى مكانها الحالى. وتشتمل البوابة الأولى على ضريح سيدى السعيدى وعلى أحد الأحياء الذى أصبح مستشفى الأشراف فيما بعد، وهو غير موجود اليوم.

وتفتح البوابة الثانية على طريق تطوان- سبتة القديم وعلى المقابر أو باب سبتة أو باب المقابر فى هذه الأيام.

وأخيراً نعتقد أن البوابة الثالثة من الممكن أن تكون باب الشريعة Xariaa أو بوابة المشوار Mexuar كما يسميها البعض وهى قريبة جداً من جامع القصبة أو من مسجد المنظرى ومن الأبراج والأسوار القديمة التى تم الاحتفاظ بها.



بوابة سبتة أو باب المقابر داخل المدينة القديمة.



قوس قديم فى المدينة الغرناطية القديمة.

ويفتح باب المقابر أو بوابة سبتة على طريق تطوان القديم المؤدى إلى سبتة وبالكاد يمكن الخروج منه، ويوجد إلى اليسار المقبرة الأكثر قدماً والتي ترتفع أراضيها حتى تبلغ القصبة في المدينة وقد أنشأها المنظري كذلك.

ويمكن الوصول اليوم إلى باب سبتة مباشرة وقد أعيد ترميمه. كان باباً طريقه منحني، ومن المحتمل أنه كان الباب الأكثر أهمية في السور المحاط بالجدران. وكان على أسوأ أعداء الغرناطيين وهم المحاربون البرتغاليون من سبتة أن يصلوا إلى هناك، ومن خلال هذا الباب يخرج المقاتلون التطوانيون كي يهاجموا حقول سبتة.

كان هذا الباب بالتالي يشكل أحد أطراف طريق سبتة - تطوان القديم، وهذا الطريق يوجد حتى الآن ويمر ببساتين في الجزء من أعلى، وعلى يسار الطريق الحالي لا تزال هناك بعض الأجزاء المعبدة بالحجارة وهي تشبه بقايا طريق روماني، وقد نسب بعض المؤلفين ذلك إلى العصر الروماني (٣).

وتحاط الناحية الشمالية لهذا الطريق بالمقابر، في أوله مقابر المسلمين وبعد ذلك بمسافة كبيرة توجد مقابر اليهود أو مقبرة قشتالة على ربوة.

وتعود القباب أو المصليات الصغيرة إلى عصر المنظري وهي خاصة بمدافن أفراد عائلة بنى نصر الملكية. القباب التطوانية متناثرة على طول الربوة القريبة من بوابة سبتة وهي شبيهة بمقابر بنى مرين في مدينة فاس. وكل هذه المقابر تابعة من الفن الجنازى الذى تطور فى شمال إفريقيا، وربما كان هذا هو شكل الضريح الأكثر قدماً فى الغرب ثم بُنى فيما بعد فى مملكة غرناطة الإسلامية.

يتكون المدفن من قبة نصف كروية مرفوعة فوق أرض مربعة من خلال قاعدة أسطوانية ذات ثمانية أضلاع.

ولا تتجاوز قاعدة المربع أربعة أو خمسة أمتار من الجانب المربع بصفة عامة
مفتوح من ناحية واحدة مع قوس على شكل حدوة الفرس. وللقبة أحياناً قوسان على
هيئة حدوة الفرس من الجانبين^(٤).



أحد أضرحة النبلاء الغرناطيين العديدة في مقابر تطوان القديمة ويوجد الضريح الخاص بالمنظري
في الجزء الأسفل من هذه الربوة.

وهى مبنية من الطوب ومن الحجارة وتنتهى الحوائط بشرفات مزخرفة ذات درجتين.

والبوابة أحيانا تكون على شكل قوس طرفاه مستقيمان يكونان مستطيلا فى الجزء الأسفل.

وبعض المقابر ليس لها الشكل المربع ولا القبة التقليدية، بل تشبه بوابة كبيرة مفتوحة على كوة لها قبة ذات أعمدة أسطوانية. ومن المحتمل أن بناء تلك الأضرحة كان بعد بناء الأضرحة الأخرى ذات القاعدة المربعة والقبة.



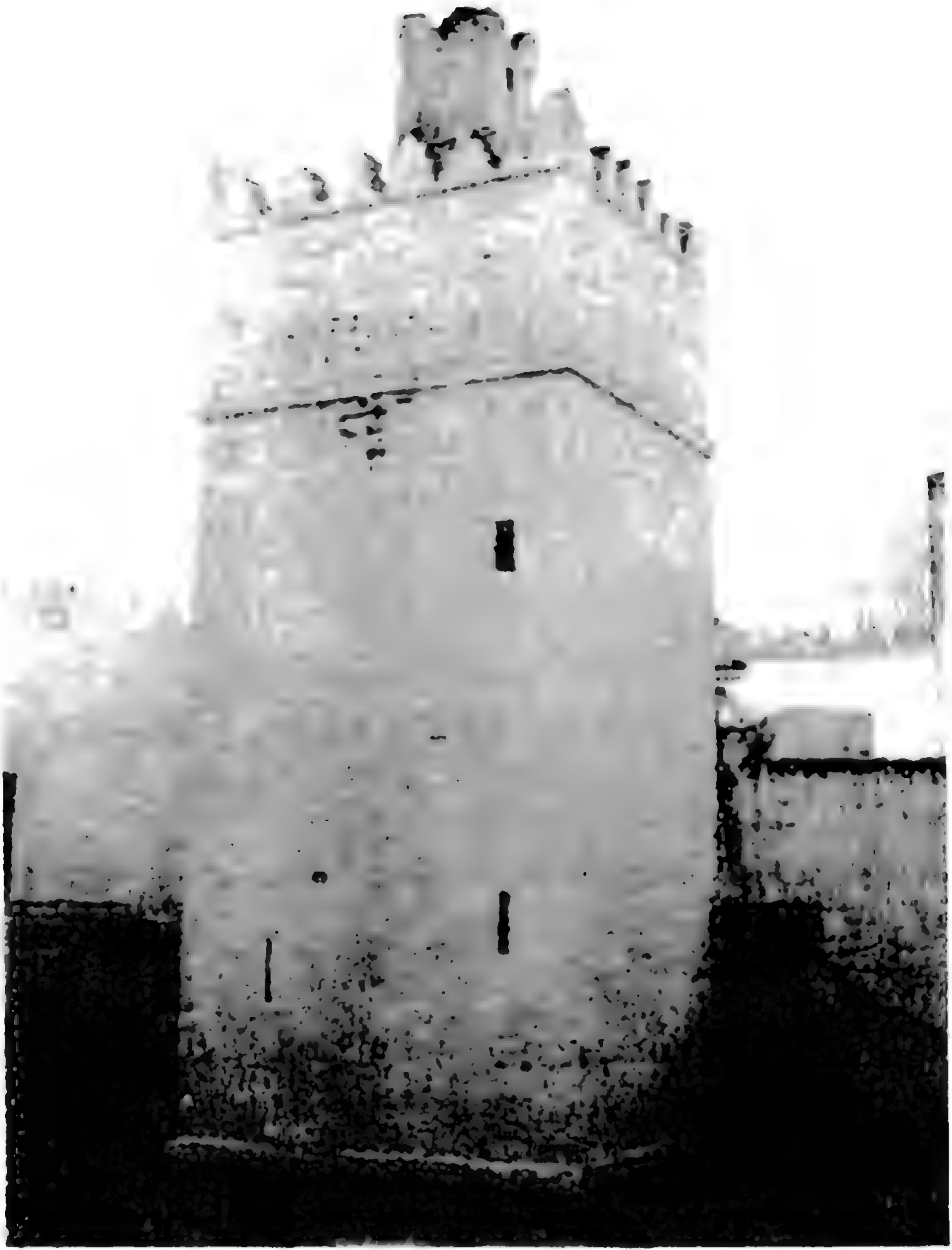
باب الرموز أو باب الهلال، وهو بوابة
على امتداد تحصينات المنظرى نحو وادى نهر المرتيل.

إن القباب التطوانية والتي تعد أحد النماذج الأكثر إمتاعاً وأهمية في عصر المنظرى قد اختفت بعدما أصيبت كلها بالضرر الشديد تحت عامل الزمن والإهمال البشرى.

يقول داود "إن أول ما شُيِّد كان حى البلاد وخصوصاً الجزء الموجود بين مسجد القصبة، والمسجد الكبير وبين مسجد الرابطة"^(٥).

وطبقاً لإسكيرى Esquirey فإن المطرودين قد بنوا منازلهم خلال السنوات الأولى وأقاموا بجانبها حدائق كما كان الناس يفعلون فى ذاك العصر، ولكن نسي الناس بعد ذلك تلك العادة بسبب قلة الأراضى حيث زاد عدد السكان قبل بناء الأحياء الجديدة.

يقول داود إن جامع القصبة كان المسجد الرئيسى، وبالإضافة إليه كان جامع الرابطة ينتمى إلى زمن مؤسس تطوان، وطبقاً لإسكيرى Esquirey فقد أمرت امرأة غرناطية معاصرة للمنظرى ببنائه وكذلك أمرت ببناء جامع السوق الفوقى.



منذنة مسجد الرابطة التي أمرت امرأة غرناطية في عصر المنطري ببنائها.

هذه المساجد الثلاثة إلى جانب جامع لالا فريجة في تيبين Tabbin في خارج المدينة كانت تشكل في بادئ الأمر الأماكن الدينية بالنسبة إلى المهاجرين. وكان مسجد سيدي مصباح حينذاك خارج المدينة وكان مجرد ضريح لأحد العُباد المبجلين وهو عبارة عن صومعة أو مصلى صغير يعود أيضا إلى فترة التأسيس.

وهناك بعض المنشآت الأخرى من فترة التأسيس الباقية حتى الآن أو يُذكر أنها من عصر المنطري وهي: الحمام الذي كان يحمل اسمه ويعرف باسم حمام الستيتو el stitu، والفرن الذي كان على مقربة من جامع القصبية، ومداخل كثير من منازل حي البلاد وبعض الأقواس المشيدة بأحجار ضخمة ومن بينها القوس الذي يفصل جامع القصبية عن باب المقصورة وقوس آخر في منتصف الشارع الممتد بين شارع مطمار Metamar وبين مسجد بن صالح الساجد as-Sajit وقوس آخر في الشارع الصغير الذي يسمى شارع زمعان Zamaan .

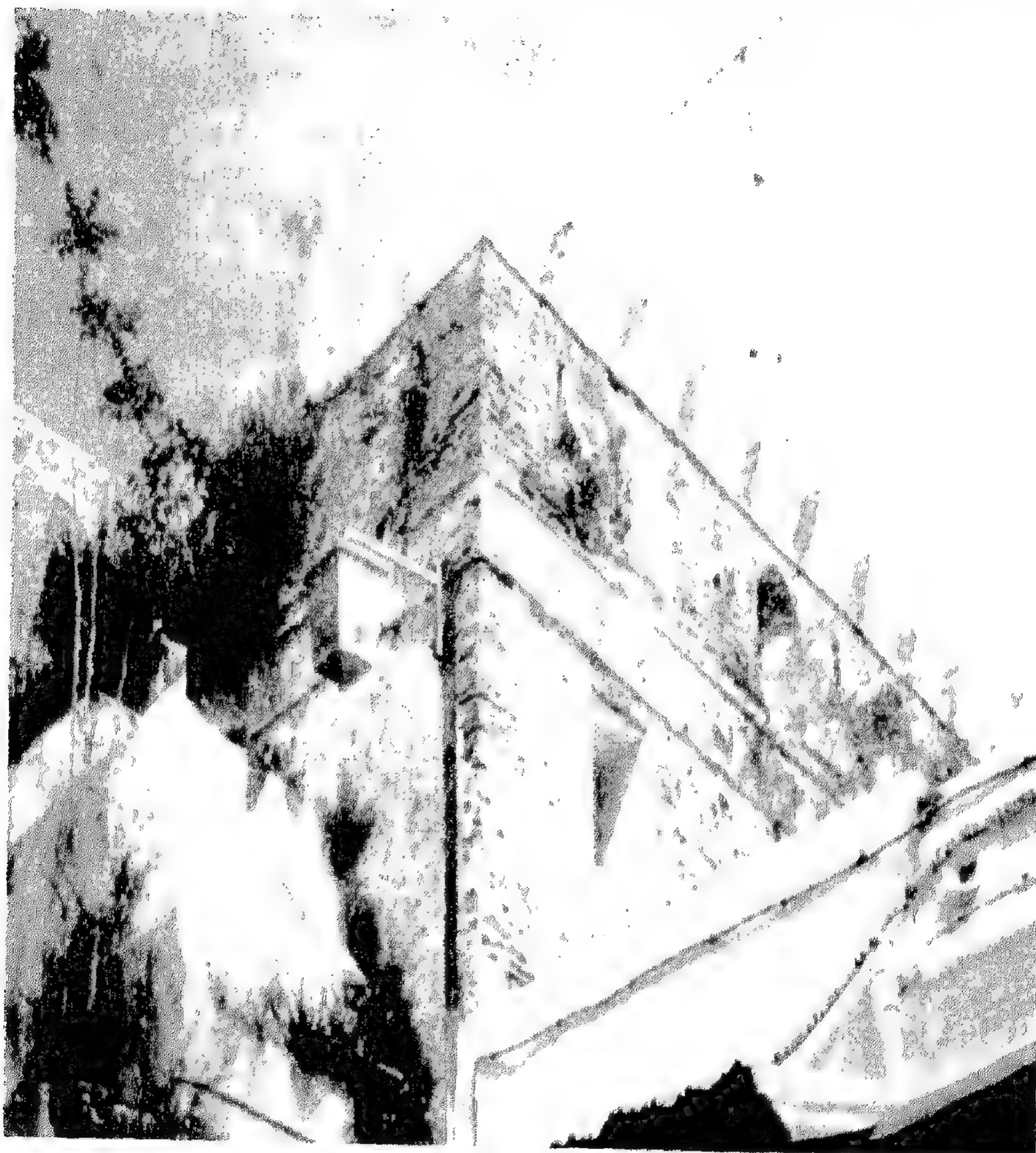
"وعموماً فكما هو معروف، فالشوراع والأزقة التي كانت توجد في تلك المنطقة كلها لم يتغير مظهرها منذ أن أقامها الأندلسيون".

ويذكر إسكيري، الذي توفي في منتصف القرن الماضي، أنه عُرف في زمانه البيت الذي بناه المنطري للسكنى العائلية وكان يسمى بيت السك أو بيت العملة وهو قريب من سوق السمك.

وقد نسب إلى المنطري إنشاء المحكمة الشرعية التي يقول داود إنها كانت في نفس المكان في عام ١٩٣٥ (٦) .

وانطلاقاً من الوصف الموجز الذي قدمه القاسي فقد أراد داود إعادة إنشاء سور المدينة القديمة الذي كان منذ التأسيس الغرناطي عندما أسسها الغرناطيون.

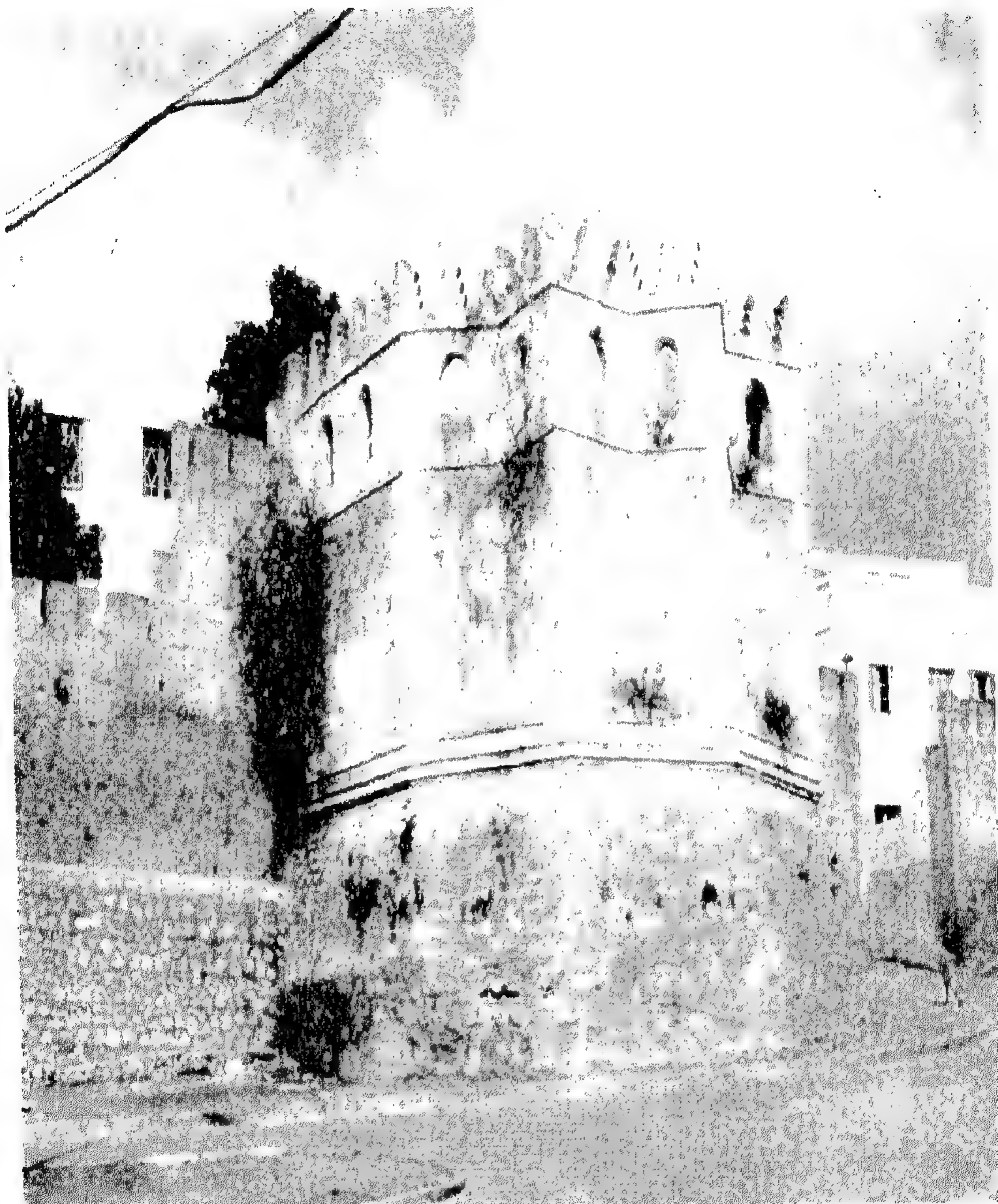
وقد أُريد إنشاءه بحيث تحده القلعة في إحدى الزوايا، وهذه الزاوية هي الركن الجنوبي الغربي للأسوار "هي الحصن الذي وصل إلى أيامنا هذه في الزاوية الجنوبية لسوق السمك القديم وهو الذي يظهر في شارع الساقية الفوقية".



برج محصن على مقربة من قلعة المنظرى.

والقلعة أو البرج تشكل بكل أبراجها وأسوارها واحدة من أفضل ذكريات الفن الحربى للمدينة التى أنشئت حديثاً. ومن مميزات هذا الفن الذى أتى من شبه الجزيرة تلك الزوايا المزينة بشرائط من الطوب الكبير التى تشكل إطارات لألواح من الحجارة غير المصقولة، ويستخدم الطوب كذلك لتزيين فراغات المدفعية بأقواس مغلقة ذات فصوص تشكل قوساً على شكل حدوة الفرس، ومرام للسهام متدرجة مشربة بطابع عام لقلعة لا تخلو من جمال وهو على طراز القوطيين الأواخر فى شبه الجزيرة، والتى بالتأكيد عرفها الموريسكيون المؤسسون لتطوان الجديدة.

والمنحدر القوى للقاعدة فى كثير من الأبراج وكذا شكلها المتعدد الزوايا، والمهمشة أحياناً، تذكرنا بالقللاع البرتغالية التى أنشئت فى ذلك الوقت فى كل الشمال المغربى. ويذكر لنا المؤرخون المغاربة أن المنظرى قد استخدم كل العبيد المسيحيين الذين قُبض عليهم فى إعادة بناء الأبراج والأسوار، وينبغى أن نشير إلى أنه كان من بينهم الكثيرون من البرتغاليين الذين وقعوا تحت يديه خلال المواجهات الحربية المتتالية فى المنطقة.



صورة لإحدى زوايا السور المحصن،
وهي تنتمي بالتأكيد إلى السنوات الأخيرة من حكم المنظري.

وكان السور متجهاً من برج المنظرى أو من الزاوية الجنوبية الغربية نحو الشمال حتى ميدان الغرسة الكبيرة Garsa el Quibira، وذلك كي يصل إلى قوس الصفارين Sefayin، الذى كان يفصل المدينة القديمة عن الغرسة الكبيرة التى كانت أرضاً زراعية بلا بناء كما يشير اسمها.

لا يزال السور يتجه نحو الشمال حتى جبل درسة إلى أن يصل إلى المقبرة، ومن هنا يلتف نحو الشرق حتى يصل إلى قرب باب الأموات الحالى (باب الجياف) Bab al Yiaf. وبعد ذلك يتحول نحو الجنوب حتى يصل إلى زاوية سيدى ابن الفقيه، وفى النهاية يتجه نحو شارع الساقية الفوقية وبرج المنظرى^(٧).

وقد حاولنا أن نتابع الطريق الذى رسمه داود فى خريطة صممها للمدينة فى عام ١٨٦٠ حيث أعاد إنشاء مستطيل يمثل جزءاً خامساً أو سادساً للأرض التى سيشغلها المهاجرون الجدد فيما بعد، فشكوا تجمعات كبيرة فى الغرب والجنوب من هذا السور.



برج دفاعی کبیر وسط الأسوار من عهد المنظری.



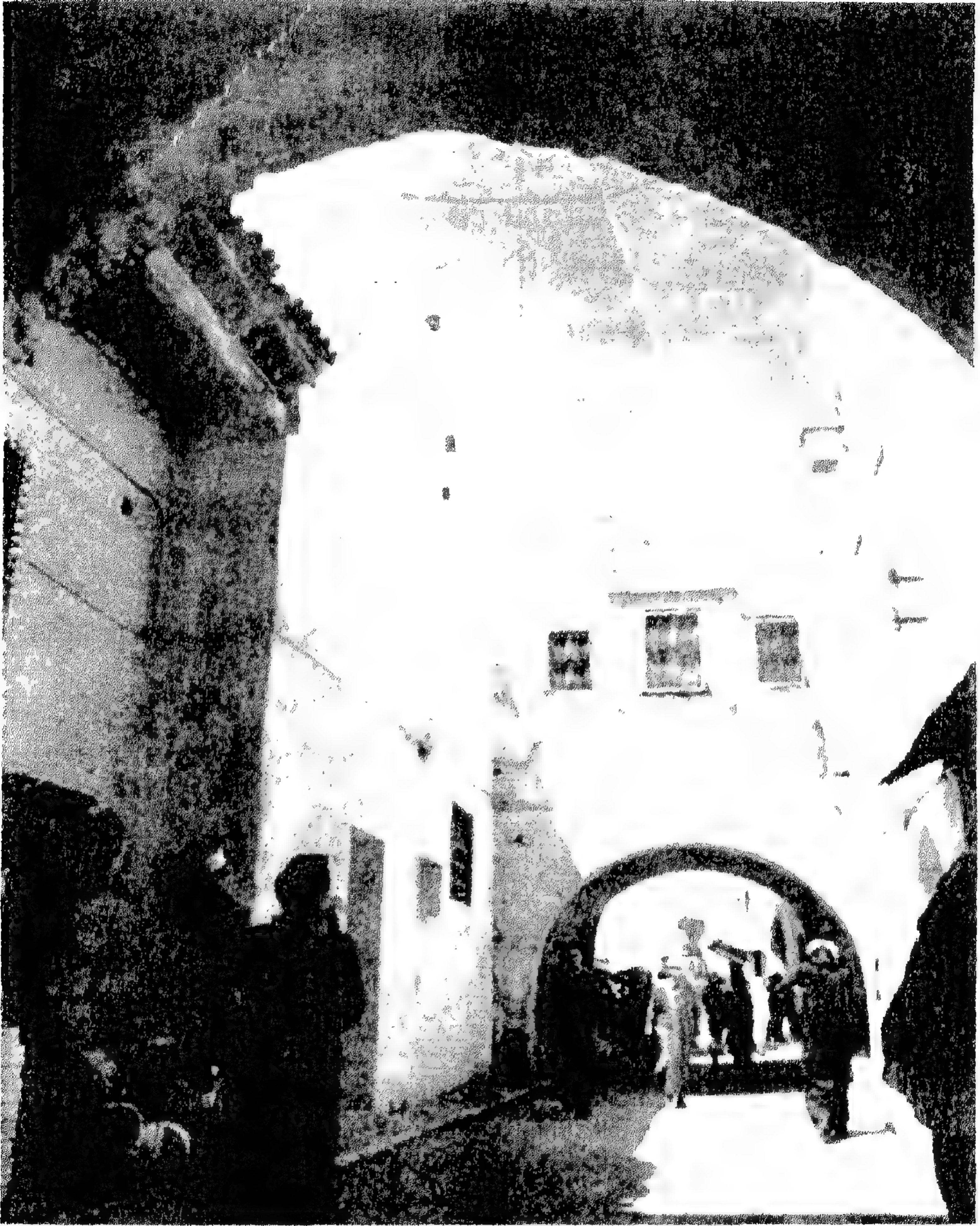
تحصينات المنظرى القرية من القلعة.

وكان هناك خارج السور مسجدان، هما مسجد تيبين ومسجد مصباح أشرنا إليهما سابقا، وسيشكل كل واحد منهما حياً مستقلاً وسيتم توسيع الأسوار نحو الجنوب.

والأسوار فوق المنحدر الصخري لحي أنجرة Anyaris الذى أسسه تيبين، فيها أجزاء تبدو مدجنة أكثر من المحيط الأصلي(*) ومن المفترض أن تكون قد أنشئت فى حياة المنظرى الذى أدرك موجات الهجرة الكبيرة التى أدت إلى توسيع السور الأصلي للمدينة.

لذلك يجب أن نعتبر أن إعادة بناء المدينة قد مرت بمرحلتين أو أكثر؛ ذلك النصف قرن من حكم المنظرى، استغرق الربع الأول من القرن فى تحصين منطقة صغيرة يعيش بها سكان قليلون يقيمون فى بيوت واسعة محاطة بالحدائق وبها ثلاثة أو أربعة مساجد كافية لعدد السكان. ويتميز الربع الثانى من القرن بإنشاء بنايات كثيرة للمعيشة، وبقلة الأراضى، وبالكثير من الأحياء القديمة مع إقامة العديد من الأسوار والمساجد الكبيرة التى أنشئت من أجل العبادة.

(*) يتحدث هنا عن الأثر الفرناطى فى الأسوار ، وكلمة "مدجن" صفة للمسلم الذى يقيم فى الممالك المسيحية فى إسبانيا ، وتطلق كذلك على فنونهم المعمارية وغيرها. (المراجع)



فى حياة المنظرى كان لا بد من توسعة الأحياء القديمة بسبب هجرة الغرناطيين الكبيرة، وإقامة أحياء
أخرى جديدة مثل حي العيون Ayun .

من المحتمل أن تكون القصبية قد أنشئت فى الفترة الثانية فوق جبل درسة، إذ أن الفاسى ينسبها كما نعرف إلى المنظرى. وعلى مدى التاريخ كانت القصبية قد رمت وأعيد ترميمها وهدمت وأعيد إنشاؤها وكانت تربط الزاوية الشمالية الغربية للأسوار، وكانت تمثل فى نهايات القرن الماضى المظهر التالى:

"تسيطر القصبية على المدينة بارتفاع يبلغ أربعين متراً. وقد أنشئت على طرف مصطبة فى جبل درسة على ارتفاع يبلغ ثلث ارتفاع الجبل تقريباً على هيئة هضبة مائلة قليلاً وطولها مائة متر. وفى الواجهة شكل ذو أربعة أضلاع غير متناسق تماماً ويحميه برجان صغيران كان أحدهما فى الغرب ذو خمسة أضلاع يحتوى كل منها على فتحات للرماية، والآخر ناحية الشرق ذو أضلاع وفتحات. وفى الجنوب مقابل تلك الأبراج توجد سريتا مدفعية فى البرجين، كل منهما على شكل مربع . وكانت الأبراج والحصون قليلة الارتفاع حيث تمثل نصف طولها الكلى تقريباً، وقاعدتها مسطحة ومتسعة وهو ما يجعلها قوية جداً ويثبتها على الأرض.



كان المنظرى قد بدأ إنشاء القسبة التطوانية أيضا
فى أواخر سنوات حكمه.

وفى الوقت نفسه تعطى الشكل مظهراً كثيفاً ومتيناً خاصاً به ورائع المنظر، وكان السور ذا شرفات وبه فتحات للرماة، تمر من برج لآخر، ومن حصن لآخر وهكذا حتى ينتهى سور القلعة" (٨) .

ومما لا شك فيه أن القلعة كان قد أعيد بناؤها لأنه فى عصر مارمُول فى النصف الثانى من القرن السادس عشر كانت هذه القصبه - التى تمثل جزءاً كبيراً من السور المحصن - ذات منظر يُرثى له.

ويظهر وصف مارمُول بوضوح أنه لدى البدء فى توسعة المدينة لم تكن لدى الأسوار الجديدة المظهر والمتانة التى كانت تميز الأسوار القديمة.

ويتحدث مارمول كذلك عن الخنادق التى يؤكد وجودها شهود كثيرون لكنه وجدها قد رُدِمَتْ ولم تعد تؤدى وظيفتها الأساسية.

ومن هنا وطبقاً له: " فإن مدينة تطوان لم تكن قوية، لا من حيث الموقع ولا من حيث العمارة، وذلك لأن أسوار الحاجز كانت منخفضة جداً وكانت من الطوب اللبن وكان كل خندق مليئاً بالتراب، ويمكن الوصول إلى السور عبر أجزاء كثيرة وكذلك من خلال ناحية الباب الكبير وباب المقابر التى كانت عبارة عن مقبرة للمسلمين. وكانت موضوعة على هضبة وكانت هناك فى أقصى الارتفاع فى الجزء الشمالى قلعة صغيرة، تسمى قلعة الديب castil de adibes، تحيط بها الحواجز الطوبية. وفى الجزء الخارجى من باب القلعة حيث يمكن النزول إلى ضاحية المدينة كان هناك حصن ذو ثلاث طوابى عالية ردمها التراب..." (٩) .

ولا نعرف ما إذا كان النظام الدفاعى قد بدأ فى التدهور فى حياة المنظرى أو فى عهد خلفائه، ولكن ما هو واضح جلى أن هناك مجموعة أصلية أكثر صلابة وقاعدية من تلك التى رآها مارمُول حيث يتحدث عن خنادق قد رُدِمَتْ، وعن أسوار منخفضة من الأرض وعن حوائط من الطوب اللبن.

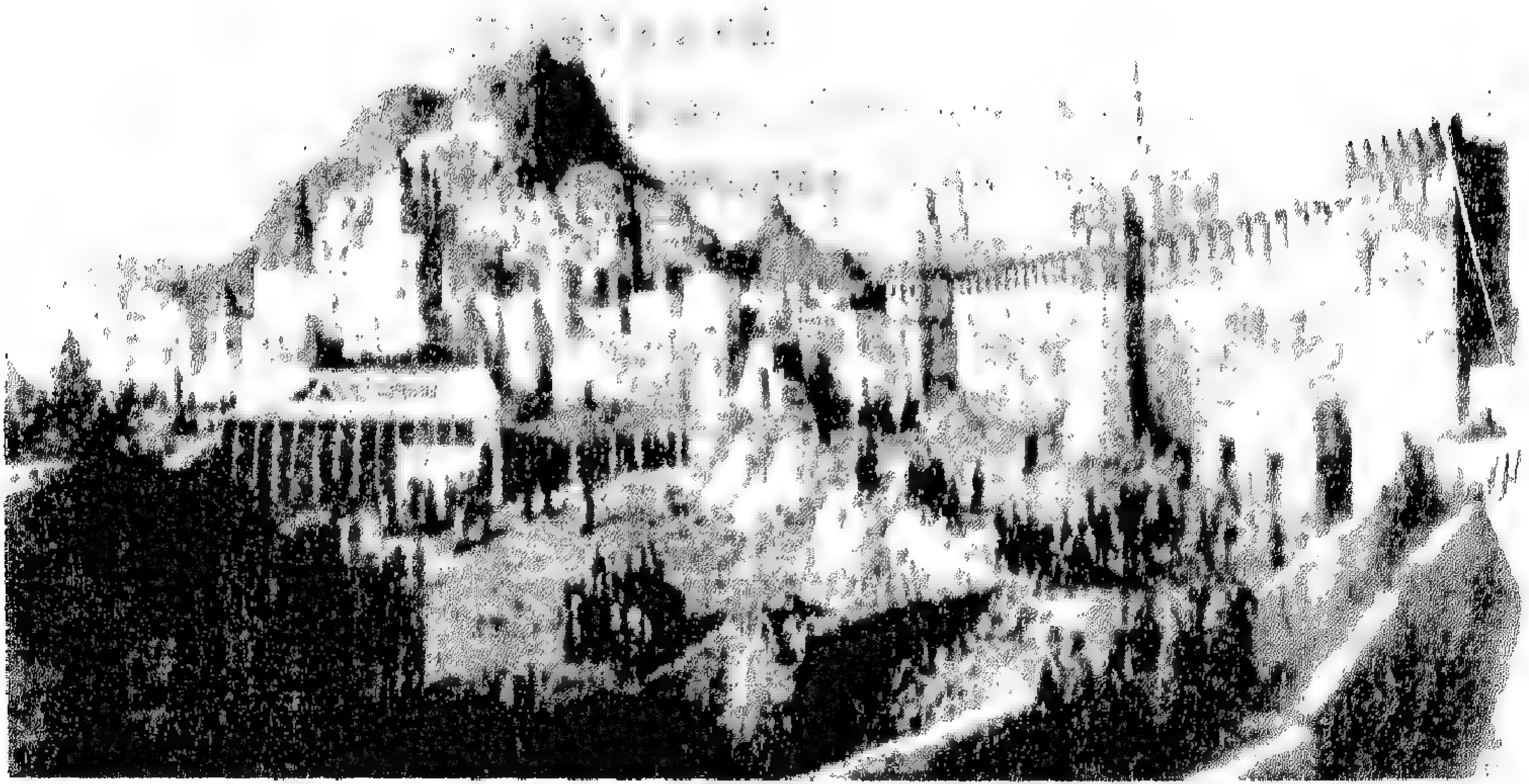
ويقول التراث، كما فى الشاون إنه عندما كان يتم إنشاء أحد الأحياء الجديدة كان على سكان ذلك الحى أن يقيموا أسواره ويربطوها بأسوار الحى القديم المحيط به.

وهكذا، اعتماداً على الجهود الخاصة التى لم تكن خبيرة بهذه الأعمال، فلا يدهشنا أن الحوائط كانت تشبه قوالب طوب المزارع أكثر من كونها أسواراً دفاعية.

قلع ومساجد، أسوار ومعابد، هى كل ما بقى لنا من هؤلاء الغرناطيين التطوانيين الأوائل. فالمطلب الحربى والمطلب الدينى هما عمودان يشكّلان حياة المطرودين. والدفاع عن النفس ضد المحيط العدائى الجديد حيث استقر بهم المقام، أما بالنسبة إلى المطلب الدينى فليس ضرورياً التشديد على القيمة الأخلاقية التى كانت تمثل للمهاجرين إقامة شعائر الدين الذى اضطّروهم أن يفقدوا روابط أخرى عميقة، ولكنها أقل صلابة من عقائدهم ذات الأهمية الكبرى.

وظلت تلك الأجزاء الكاملة من الأسوار والأبراج الرئيسية والأعمال الأخرى الصغيرة فى المدينة القديمة لبضعة قرون، بل استمرت حتى يومنا هذا. ويكفى أن نذكر أنه حتى الآن تحتفظ ذاكرة التطوانيين القدامى بصورة فدان Feddan القديمة أو الساحة خارج المدينة التى تحولت إلى نقطة الانطلاق لما سُمى الحى الجديد، نواة مدينة تطوان الحالية.

حسناً إذن، إن هذا "الفدان" أو ساحة الحسن الثانى الحالى، كان مكاناً واسعاً محاطاً مباشرة بأسوار المنظرى وبقلعته، وهذا يمكن أن يظهر من خلال صورة لحرب عام ١٨٦٠ (١٠).



أبراج وأسوار فى الجزء الغربى من المدينة عام ١٨٦٠ .
(المكتبة العامة والوثائق فى تطوان).

كذلك يوجد فى "فدان" توسعة المدينة نحو الغرب ويحتفظ كل الجزء الغربى تقريباً بتحصيناته، ويتضح فى الصورة ثلاثة أبراج ومستطيلان ومضلع آخر فى المنتصف.

وتوجد نفس الأبراج والأسوار إلى اليوم ولكنها تختفى وراء بنايات أخرى، على الرغم من أنه يمكن رؤيتها من جهات مختلفة من المدينة.

أما بالنسبة إلى المباني الدينية، فقد أعيد زخرفتها وبناؤها ولم يكن ذلك بشكل مناسب دائماً ومن الصعب التأكيد على بنيتها الأولى. ولنذكر أنه مع الاحتلال الإسباني فى عام ١٨٦٠ تحول الكثير من تلك الأماكن إلى استخدامات مختلفة كإسطبلات للدواب أو مسارح على سبيل المثال.

ومن المحتمل أن تكون المآذن فقط هى التى ترشدنا لكى نعرف التسلسل الزمنى الدقيق لبعض المساجد مثل مسجد الرابطة أو مسجد لالا فريجة Lal-la Friya .

ومن خلال ما تم طرحه يتضح وجود آثار وبقايا كل أنواع البناء المتناثرة هنا وهناك فى بعض الأماكن مما يجعلنا نفكر فى وجود أثر غرناطى فى نفس فكرة إعادة بناء تطوان.

وبالإضافة إلى ذلك، فمعرفة الطبقات الاجتماعية والاقتصادية التى كانت موجودة فى المغرب فى تلك الحقبة التاريخية، يُظهر للعيان أنه إذا كان هناك عنصر بشرى قادر على إنشاء مدن فى تلك البلاد فى نهايات القرن الخامس عشر، فهذا العنصر البشرى لا يمكن أن يكون سوى المهاجرين الغرناطيين حيث كانت حشودهم الأولى مكونة من طبقات اجتماعية لأوساط حضرية غزاها المسيحيون فيما بعد.

ولقد جلب الغرناطيون هذه الطريقة للحياة المغربية فى تلك الفترة التى يمكن تحديدها فى نفس قرن غرناطة فى المغرب، إن لم يكن قبل ذلك بكثير منذ القرن الثالث عشر وبعد ذلك بفترة وحتى القرن السابع عشر، بحيث يمكن أن تعتبر المغرب امتداداً أخيراً للأندلس بشكل عام ولغرناطة بشكل خاص.

الهوامش

- (١) أسطورة جمعها Clemente Cerdeira من Esquirey في مقال حول نفس الموضوع في مجلة Hispa- no-africana . يناير ١٩٢٣ ، العام الثاني ، العدد الأول ، ص: ١٨ .
- (٢) DAWD: Pág. 92.
- (٣) CASTELLANOS, Manuel: Historia de Marruecos. Tánger 1898. Nota 1. Pág. 40.
- (٤) MARCIAS, GEORGE: L'Architecture musulmane d'Occident. París 1954. Págs. 299 a 301.
- (٥) DAWD: Pág. 93.
- (٦) DAWD: Pág. 94.
- (٧) DAWD: Pág. 91.
- (٨) JOLY, A.: "Tetouan". Archives Marocaines. V. 1905. Págs. 250 y s.
- (٩) MÁRMOL CARVAJAL, Luis del: Libro 4. de la Descripción general de Affrica del reino de Fez" Granada 1573, Fol. 131 Vt.o.
- (١٠) محفوظ في القسم الخاص به في المكتبة العامة والأرشيفات في تطوان.

ملحق وثائقي رقم : ١

الانهيار الحقيقي لمدينة تطوان

الأطلال التي أعاد إنشائها الغرناطي أبو الحسن على المنظري لم تكن هي الأطلال التي تركها القشتاليون من قوات إنريكي الثالث في عام ١٤٠٠ .

وعلى افتراض أن تلك الحملة قد تمت فمن الممكن جدا أن تكون تطوان التي ظنوا أنهم هدموها لم تكن سوى منطقة أهلة بالسكان قريبة من البحر ومن نهر المرتيل حيث تأوى سفن القرصنة وربما في منحنيات النهر بالقرب من بني معدان.

ولم تلحق بمدينة أو قلعة تطوان في أسفل جبل درسة أي ضرر من جراء حملة عام ١٤٠٠ . هذا إذا كانت الحملة قد تمت أصلاً.

يدل على ذلك الأخبار الكثيرة عن تطوان ومحاربيها الذين كانوا على الحدود في صراع مع الحامية العسكرية البرتغالية لمدينة سبته، حيث تروى كل التواريخ الإخبارية البرتغالية في ذلك العصر المعارك الحربية منذ احتلال مدينة سبته عام ١٤١٥ وعلى مدى القرن الخامس عشر حتى عام ١٤٣٧ .

وقد حدث الانهيار الحقيقي لمدينة تطوان في ربيع عام ١٤٣٧ وذلك على أيدي البرتغاليين في مدينة سبته بأمر من السيد دوارتي دي مينيسيس ابن السيد بدرو القائد العام للموقع.

إن سيرة السيد دوارتي الذاتية والتي جمعها إنييس دي أثورارا - Eanes de Azu- rara بأمر من ملك البرتغال ألفونسو الخامس الذي احتل القصر الصغير وأصيلة

وطنجة، تحتوى على العديد من المآثر الحربية منها الاستيلاء على مدينة تطوان وهى المدينة التى دمروا فيها منازل وبوابات وكل ما لم يستطيعوا حمله معهم.

وقد أمر السيد دوارتى بنفسه أن يهدموا ويحرقوا كل ما يستطيعون الحصول عليه.

ولم يعد التطوانيون إلى المكان بعدما تركه البرتغاليون ولم يحاولوا بناء المدينة من جديد.

وقد ظلت المدينة غير أهلة بالسكان حتى أعاد الغرناطيون بناءها فى عام ١٤٨٥ أو ١٤٨٤، وهذا معناه أن المدينة ظلت أطلالاً ما يقارب من نصف قرن. إذن فقد ولدت تطوان غرناطية فى مرحلتها النهائية كمدينة فى شمال المغرب.

وهناك مظهر آخر يجب أن يؤخذ فى الاعتبار: سواء أحدثت حملة الأسطول القشتالى فى عام ١٤٠٠ أم لا ، فقد اختفت القرصنة فى نهر المرتيل لأننا لا نجد أى نشاط بحرى فى الشواطئ التطوانية حتى أعاد التطوانيون إنشاء مدينة تطوان وأنعشوا ملاحه القرصنة.

وبالتالى فإن الغرناطيين المؤسسين للأساطيل الجديدة فى ناحية تطوان هم الذين تصدوا للملاحه المسيحية فى جنوب نهر البوران، وفى مضيق جبل طارق وعلى الساحل الأطلنطى حتى مصب نهر لوكوس Lucus فى العرائش.

وكانت هناك فى الأخبار البرتغالية فى ذلك العصر صدئى ليس فقط عن الأندلوثيين الذين قدموا مع المنظرى وخاصة الجنود الغرناطيون المهرة، بل أيضا عن القوارب الاستكشافية لأسطول المنظرى بشكل عام.

وقد عاد قراصنة تطوان للشهرة مرة أخرى، وسوف تواجه المملكة الإسبانية قرناً بعد آخر المنحدرين من المهاجرين الغرناطيين الأوائل.

وحتى لا نخرج من نطاق هذه الدراسة فلن نذكر الدور المهم الذي قام به المهاجرون الغرناطيون ليس فقط في تأسيس تطوان، بل في التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي للمغرب في ذلك الحين.

وسنورد نسخة مصورة من إحدى صفحات الجزء الخاص "بأخبار السيد دوارتي دي مينيسيس" لغوميس إيانس دي أثورارا وقد أعيد طبعها في لشبونة في عام ١٧٩٢ وهي تتحدث عن الانهيار الحقيقي لمدينة تطوان.

نحسب أن المؤرخين الإسبان من الآن فصاعداً لن يعلقوا على أخبار تدمير مدينة تطوان على أيدي الأسطول القشتالي لإنريكي الثالث في عام ١٤٠٠ .

Suponemos que, en adelante, los historiadores españoles, no comentarán ligeramente la noticia de la destrucción de Tetuán por la escuadra Castellana de Enrique III en 1400.

DO CONDE D. DUARTE DE MENEZES. 79

fronteiros, leixando porém dous pera se certificarem melhor. E como Dom Duarte chegou, e elles sentiraõ a soma da gente, acabaraõ de crer que todo o feito era sobre aquella sua Villa, e alli se trigarom muito mais pera avisar os fronteiros; ca outra gente nom havia já hi, ca tanto que foraõ certos da passagem dos Infantes, se partirom do lugar tomando esse prove fato que tinhaõ, espalharomse pera essa serra. Mas se os moradores tiverom temõr d'estar nõ lugar, nem os fronteiros nom quizerom ser mais ardidos quẽ elles, ca tanto que os dous de pee chegarom com a certidom da gente que era, assi tomarom isso de que se mais doyaõ, e ou o metiaõ per esses matos; ou o levavaõ ante si, e partiromse do lugar deixando dous homens dentro que fechaßam as portas, e tambem pera lhe fazer sinal, se per ventura os Christãos nom fossẽm sobre aquelle lugar. Chegou Dom Duarte ácerca da Villa, e os dous Mouros lançaramse per cordas fora do muro, leixando as portas fechadas, e os nossos como chegarom huns a quebrar aquellas çarraduras, e outros apoer escadas de maõ sobre os muros, e como nom tinhaõ contrairo ligeiramente cobraraõ o que queriaõ, e tanto que se viraõ dentro começarom de destruir as casas, e portas, e essas outras cousas que nom eraõ pera elles levar, e que aos Mouros aodiante poderia aproveitar. E vendo Dom Duarte como nom tinha hi açalmo pera ter assi aquella fortalleza; houve acordo com esses Fidalgos de mandar derribar os portaes, e destruir todo o al que podessem, e que se tornassem pera a Cidade, como de feito fizeram. E alli mandou Dom Duarte a seu primo Dom Fernando de Menezes que alli era, que apartasse duzentos de cavallo, e que se fosse pello campo afundo, porque se alguem de Benamade acodisse, que os empachasse, e elle com a outra gente encaminhou pera o porto, e despois que o leixou guardado foisse ao mar, onde ficavom as fustas, e esteve ataa que embarcou a gente de pee, e desí esperou Dom Fernando. E como quer que se os Mouros juntaßem pellas serras, taõ atimorizados estavaõ já

ملحق وثائقي رقم : ٢

زوجة المنظرى الغرناطية

هناك موضوع ناقشه العديد من الكتاب المغاربة المهتمين به، وهو تاريخ وصول المنظرى إلى المغرب.

والكل يعتمد تقريباً على تأكيد ليون الإفريقي الذي اعتبر أن وصول المنظرى كان متزامناً مع وصول الملك أبي عبد الله إلى مدينة فاس.

وبما أن تأسيس أو إعادة بناء مدينة تطوان على أيدي الغرناطيين المطرودين ربما قد حدث قبل تلك التواريخ – طبقاً لتلك المصادر المغربية – فإن هناك اختلافاً فيما بين الكتاب، حيث يؤكد البعض منهم أن الغرناطيين هم الذين أسسوا مدينة تطوان، لكن ليس بأمر من المنظرى ولكن بأمر من سيدى على بن راشد مؤسس الشاون.

وبالعوض الآخر لم يستطع أن يحل المشكلة المتعلقة بالتواريخ ووقع فى غموض تاريخ العصور الأولى لمدينة تطوان.

أما نحن فنؤكد على حدثين أساسيين:

أولاً: أن المنظرى كان قد هاجر إلى المغرب قبل الملك أبي عبد الله بكثير، وثانياً: زعامته المؤكدة للمهاجرين وكذا إعادة بناء مدينة تطوان.

والمعلومة التالية متعلقة بكلا الحدثين وهى متعلقة بزواج فاطمة من قائد تطوان.

فعلى الرغم من أن بعض المؤرخين قد ذكرها، فلم ينسب أحد منهم ذلك للمنظرى وبالتالي لم يبرز أحد منهم أثر هذه الواقعة فى تأسيس تطوان ووجود مؤسسها.

ومن الممكن أن يؤرخ الحدث في عام ١٤٩٠، عندما كان ماركيز موندوخار القائد العام للحدود الغرناطية - وكان مقره في ألكالا لا ريال - وقد ذكر الحدث في إحدى المخطوطات غير المنشورة الموجودة في أكاديمية التاريخ Academia de la Historia وهذه المخطوطة تذكر القائد وكذلك الزوجة وتولى أهمية لمدينة تطوان والمنظري وخاصة من ناحية التسلسل الزمني وسنعرض نسخة مصورة منها. وكذلك فهناك من يبالغ في قيمة الناحية العاطفية: مدينة تطوان هي استمرار لغرناطة حتى في الجذور النصرانية لكلا المدينتين.

والمخطوطة مذكورة في الملاحظة الهامشية رقم (١) من الفصل الثالث من هذا الكتاب.

275
aditio en magistramo e demas que resulto en
Beneficio publico, y en memoria de sus servi-
cios, como en su lugar reconocemos. Escribe pues
Sablando de Conde: dandole aviso un soldado que don *Alcala f. 50.*
diaz arauca se hauido Suo de Granada donde estava
cauado que facia una Mora noble, sobrina de
Alaide de Abencomrissa, y parienta del Rey chico
havia de salir de la Ciudad que la llevaban a Ber-
veia a celebrar sus bodas con el Alaide de ietu-
an, y con ella algunos Moros de guerra, que asi lo
havia este soldado entendido, que fue cauido de
Abencomrissa, y emendado la lengua. e Reporrio el
Conde de Sevilla algunos escuderos de Cavallos
que ala ligera y sin detenerse camassen avista de
Granada acercandose por todas partes como lo
havian por si acaso dexan con ellos: y que si avien
un solo un fin de por embaxasen en
comarlos que mandamos y havia mandado

ملحق وثائقي رقم : ٣

وفاة المنظرى

مما لا شك فيه أننا نتناول هنا أحد أكثر الموضوعات نقاشاً وغموضاً عن سيرة المنظرى الذاتية: وهو تاريخ وفاته.

إن غالبية الكتاب المغاربة يؤكدون عدم علمهم بذلك ويتأرجحون بين تواريخ متباينة بشكل كبير مثل ١٤٩٥ أو ١٥٠٥ .

وذلك الاختلاف ينعكس على تاريخ تأسيس مدينة تطوان وعلى السنوات المتتالية لإعادة بنائها ونموها وكذلك على حكم قادتها وحكامها الأول.

إلى هذه الدرجة وصل غموض المؤرخين لدرجة أن المؤرخين الأكثر دقة في أيامنا هذه اخترعوا شخصيات تاريخية جديدة وتحديثوا عن روابط أسرية لا وجود لها وتحديثوا عن منظرى ثان ومنظرى ثالث وحتى عن منظرى رابع.

والحقيقة أنه لم يكن هناك سوى منظرى واحد، وكان طول سنوات عمره - الذى كشف عنه ليون الإفريقى وأكد عليه الأب كونتريراس - هو السبب فى ذلك الغموض وفى الأخطاء التى سجلتها كتب الأخبار المغربية التى تناولت تاريخ المدينة، ومن الطبيعى أنه كان لذلك أثر على السياق العام لتاريخ المغرب.

ويبدو لنا أنه من المهم أن نوضح هذه المسألة التى تفترض تكرار الاتصالات الأخيرة للأب كونتريراس مع المنظرى فى تطوان.

إن الشهادة التي يقدمها غابرييل دي أراندا لا تسبب أية شكوك، وذلك بالنسبة إلى هوية القائد الغرناطي والسنوات التي ذكرت.

إن المنظرى الذى كان يتعامل معه كونتيريراس هو القائد العجوز الضرير الذى ذكره ليون الإفريقى. وطول عمره هو الذى يفسر حكم ست الحرة باسمه ولماذا لم تتزوج هذه السيدة المبجلة قبل ذلك من السلطان الوطاسى، على سبيل المثال فى الأوقات السعيدة زمن أخيها مولاى إبراهيم.

وبالقدر ذاته تشرح لنا تلك السنوات الطويلة من عمره صمت الكتب الإخبارية البرتغالية. ففى المقام الأول أنه لم يُذكر شىء حول موته لأنه لم يصل أى شىء يتعلق بذلك، وفى المقام الثانى أن هناك توقفاً لنشاطه الحربى، حيث إنه لم يظهر فى ميادين الحروب لشمال المغرب لفترة لا تقل عن عشرين عاماً قبل تاريخ وفاته.

وتلك التواريخ تدعونا إلى دراسة الشهور الأخيرة من حياة القائد الغرناطي.

فى أواخر سبتمبر من عام ١٥٤٠ وصل التاجر خوان دي إيريرا إلى تطوان وهو صديق للأب كونتيريراس الذى كلفه بجمع الصدقات والنفور المخصصة للأسرى. وكان إيريرا يحمل الأموال اللازمة لتنفيذ عملية الافتداء التى اتفق عليها الراهب. وقد حاول أن يخرج الأب كونتيريراس من تطوان وأن يصطحبه إلى مدينة سبتة حيث كان الأسرى ينتظرونه كى يبحر معهم، وهو الشىء الذى تم فى نوفمبر وقد وصلوا إلى إشبيلية فى ديسمبر.

بالتالى كانت المحادثات الأخيرة لكونتيريراس مع المنظرى فى شهر نوفمبر من عام ١٥٤٠، وكان الراهب يبلغ ٧٠ عاماً وكان الغرناطي يبلغ ٨٥ عاماً. وهذا الاختلاف فى الأعمار تجذب إليه الانتباه إحدى فقرات محادثات الراهب مع القائد الغرناطي. وفى أواخر أبريل أو فى مستهل شهر مايو من عام ١٥٤١ رجع الأب كونتيريراس ليدخل إلى تطوان وعلم بوفاة المنظرى هناك.

إذن فقد كانت وفاته فى ديسمبر من عام ١٥٤٠ أو فى الثلاثة أشهر ونصف الأولى من عام ١٥٤١ .

إنها فترة غير محددة لكنها أيضا موجزة جدا ولا تغير من الأحداث الشخصية والزمنية الجديدة التى تعرض للتاريخ التطوانى، وهو ترتيب حاولنا توضيحه بشكل عام فى صلب هذا الكتاب.

بهذا نكشف الستار ونلقى الضوء على تاريخ القرن الذى عاش فيه المنظرى وهو القرن الغرناطى من تأسيس المدينة، وتطوان هى مدينة تحتفظ بجذورها الإسلامية الإسبانية حتى يومنا هذا.

وسنعرض نسخاً مصورة لصفحات كتاب الأب غابرييل أراندا التى تذكر تعاملات الأب كونتريراس مع القائد التطوانى أو التى تشير إليه(*) . وترقيم الصفحات غير متتابع بسبب حذف ما ليس مهم.

ويستنتج من النص التاريخ الحقيقى لوفاة المنظرى.

وهذه النسخ المصورة(**) مأخوذة من النسخة الأصلية الموجودة فى المكتبة الوطنية.

إنه لشيء غريب العثور على كتاب الأب أراندا. بل إن هناك بالمكتبة طبعات مختلفة لهذا الكتاب إحداها منتقصة.

ونحن نستخدم نسخة غابرييل أراندا التى تبدو أنها النسخة الأصلية الكاملة، ومقدمتها الرئيسية تقول: "حياة/ عبدُ الله/ أحد الرهبان/ الأب المبجل/ فيرناندو/ دى

(*) نحن بدورنا ندعو إلى ترجمة هذا الكتاب الذى يلقى مزيداً من الضوء على جانب مهم من التاريخ المغربى، (المراجع)

(**) كنا نتمنى أن نترجم الصفحات المصورة لكن الصورة باهتة فى كثير من الفقرات مما يجعل الترجمة غير ذات جدوى. (المراجع)

كونتريراس/ من مدينة إشبيلية/ من رهبانية القديس/ بدرو/ مكتوب/ بأمر من
الراهب راعي/ هذه الكنيسة المقدسة / التي تقدم الكتاب وتعرضه/ تحت حمى الملك
العظيم/ لإسبانيا/ كارلوس الثاني الذي لا يقهر/ كتب الأب غابرييل دي أراندا/
المنتمى إلى جمعية يسوع/ طبعت على نفقة وتحت رعاية / الكنيسة المقدسة/ عام
١٦٩٢/".

وقد تابع الأب كونتريراس زيارته إلى مدينة تطوان بعد وفاة المنظرى بعدة
سنوات، وقد شارك في بعض الأحداث المهمة وكتب أخباراً ومذكرات للبلاط الملكي
الإسباني بجانب عمله التبشيري وبجانب عمليات الافتداء.

وكان علينا أن نشير إليه في هذا الكتاب عند دراسة الخلفاء الذين أعقبوا المنظرى
وكان من بينهم القائد حسن.

وتوجد وثائق في الأرشيفات الإسبانية تخص كلاً من الأب كونتريراس والقائد
حسن وقد تناولنا بعضها.

con sus exhortaciones fervorosas, que hasta oy en dia se conservan memorias debidas à su piedad.

El detenerse tanto tiempo à vista del Reyno de Fez, y no intentar en otra parte el rescate, creo aver sido por que la limosna que llevaba, iba consignada para redimir cautivos que estuviessen en el Reyno de Fez: pues tres queros de maravedis que D. Fadrique Enriquez de Ribera Marquès de Tarifa diò en Sevilla al V. P. para este viage en nombre de vn Cavallero de Castilla, eran con estas calidades: *Que se avian de emplear en redimir cautivos que estuviessen en la ciudad de Fez, y no en otra tierra de Africa: que los cautivos fuesen de los que no estuviessen alguna otra ayuda para su rescate: y que no se diessè por cada uno de ellos mas que la limosna acostumbrada:* y bien se conoce, atendiendo à la primera condicion, que tanto caudal no podia emplear el V. P. sino haziendo la Redencion en Fez: y como huviesse publicado en Sevilla en el tiempo que estuvo detenido, que su primera salida avia de ser à Fez, muchos que tenian algunos cautivos propios en Tetuan, le dieron limosnas

competentes para que los rescataste.

Razones todas que le hizieron esperar en Ceuta modo como entrar en Fez, y passar por la detencion à que le obligaba la inquietud de aquel Reyno; que ya mas sossegado, diò passo al V. P. para poder entrar en el ya por los fines de 39: y aunque con la incomodidad del invierno, ponerse en Tetuan à pie con no poco trabajo. Sintieron los de Ceuta la partida lo que se dexa ver de quien tanto por sus virtudes amaban; pero consolaronse con que avia de bolver por alli, y que siempre que huviesse de passar à Fez, avia de hazer escala en Ceuta, y tendrian la dicha de gozar de su amable compania y trato Angelical.

Entrò en Tetuan el V. P. ya la segunda vez; donde fue recebido de los cautivos con aquel consuelo que engendra vna segura esperanza de salir de vn cautiverio: y de los Moros; con grande estimacion, adquirida por su buen obrar, y por las maravillas y prodigios que contaban de el; en especial el *Alcaide Almandari*, que aunque Moro, avia nacido en España, y tenia à los Espa-

Papeles
de Anton
de Agaca
Comandante
del Mar-
ques, co-
pados en
el lib. III.
de la obra
y por Ar-
que de
Mora
1295.

noles buena voluntad, le hizo todo buen passage: y sabiendo, que avia de hazer Redencion en Tetuan, y que por esto le convenia reconocer los cautivos que en las mazmorras se hallaban, dió orden à los Guardianes de ellas, para que todas las vezes que el Papaz Contreras quisiessè visitar los cautivos, le franqueassèn la entrada.

Y pórque se conozca lo que los cautivos padecen, y quan grande era la mortificación del V. P. de entrar en sitios tan horrorosos à la vista, como pestilentes al olfato: me es fuerça contar como ellas son, valiendome para esto de lo que en varios libros se refiere y de lo que yo mismo he oído à muchos Padres Redentores, y de lo que en especial en la Cronica de la Religion de la Santissima Trinidad Descalça escribe su Autor, que à menos autoridad se hiziera increíble que con hombres se pudiesse usar tal rigor.

Tres estados debaxo de tierra (dize) tienen las mazmorras, que son à manera de silos con segües al rededor, y en lo alto una limbrera, con una reja. Deslos silos ó calabozos ay algunos q se comunican por unos transitos angostos: no

entra en ellos ayre ni Sol, ni se puede ver el Cielo, y apenas la luz. La ultima destas mazmorras sirve también de carcel para los Moros facinorosos (buena compañía para alivio de sus trabajos) la inmundicia es notable por la continua asistencia de tantos hombres: el tufo y mal olor intolerable. Certificóme uno de los Padres Redentores, que de aver estado un rato con los cautivos, salió casi sin sentido.

Esta es la habitacion de aquellos pobres Christianos, los segües los aposentos: la cama una esterilla: desuados, abrojjados con cadenas, y grillos, argollas, y otras crueles prisiones: entre las quales ay unas barras de hierro gruesas y largas, q llaman Alcandazas, asidas las estremidades à dos cadenas: en estas les obligan à poner los pies apartado el uno de el otro una para el verano, por ser la tierra muy calida, y aver mucha gente en tan estrecha morada, se abrasan de calor. En este lugar ayeno de consuelo, mas inhumano de lo que se le ha significado, están los cautivos de dia y de noche, si no es que se obligan à trabajar: entonces los sacan tarde y los buelven temprano, y el tiempo que andan fuera, traen una cadena al pie: aun enfermos no mejoran de vi-

vivienda, ni tienen diferente comodidad; en tan rigurosa carcel passan sus enfermedades, y mueren sin Sacramentos como unas bestias, con tanto desconuelo, que no se puede explicar, ni entender, cediendo en aquellos barbaros la codicia, con ser muy grande, á su crueldad.

Todas estas estancias tan horrorosas á la vista, tan molestas á los sentidos, penetraba la caridad del V. P. sin que dexasse cautivo á quien no viesse, ni esclavo que no tratasse: y creo, que con padecer tanta fatiga en el cuerpo, era aun mayor la que padecia en su animo: pues los trabajos q̃ los miserables le referian, eran tan sin consuelo, que le traspasaba el corazon el oírlos, y le obligaba las mas vezes á acompañarlos con sus lagrimas. Eran los cautivos tantos, que de ordinario passaban de 300. los que en aquellos oscuros calabozos se encerraban: y aviendolos el V. P. de oír á cada vno de por sí, bien se dexa entender seria esto obra de muchos dias, y para tomarla muy despacio; y donde aun de passo era intolerable el estar, q̃ mortificación seria el assistir dias enteros, y muchas vezes las noches entre aquella horrura, è indezible asco?

O mazmorras de Tetuan, testigos de la caridad mas fervorosa que puede imaginarse: si como tuvisteis la suerte de ver tantas virtudes, como en Varon tan Apolítico notasteis, nos pudierades informar de ellas! Y como hablarais mas deste siervo de Dios, que pudieran dezir de sus monges las cuevas de la Tebayda! Pero lo que entre aquellas mudas paredes se oculta, lo publica el discurso, lo infiere la razon, y enalça hasta el Cielo la fama, acreditando de manera la memoria del siervo de Dios, que no ay Moro el mas barbaro, que en llegando á hablar del Padre Contreras, no diga que era vn grande amigo de Dios y Hombre Santo.

Visitadas las mazmorras, reconoció, que por la falta de Ministros Sacerdotes, y por el continuo y mal exemplo de los Moros, estaban los pobres cautivos tan mal parados en lo que tocaba á sus almas, como maltratados en sus cuerpos: y así tratò con el *Alcayde Almandari* le diessé permiso para celebrar Missa en la casa en que vivia, y que viniesen á ella los cautivos á recebir los Sacramentos, confesandolos poco á poco el V. P. y administrandolos

Ppp

doles

CAPITULO XIII.

*ENTRA EL VENERABLE PADRE EN TETUAN,
donde es recebido con universal gozo asside los cautivos como
de los Moros: correspondeje con el Rey de Fez
por escrito, y con el Rey de Portugal.*

POr fines de el mes de Abril ò por entrada de Mayo (à lo que se cree) entrò el V. P. año de 41. en Tetuan, siendo esta su tercera ida al Reyno de Fez, y sexta Missiõ à la Africa: y si hasta alli avia sido Tetuan teatro de su fervor, desde este tiempo podemos dezir fue lugar de sus mayores prodigios, y donde campearon sus obras mas admirables. Allí le vieron, no Redetor caritativo, mas cautivo empeñado por conseguir à sus hermanos libertad, siendo mas de tres años los que vivió en rehenes, sugero al trato que le quisiessen hazer porque sus proximos no fuesen maltratados: los successos declaran en adelante quien fue el V. P. entre Moros, pues cinco años de vivienda entre infieles, no bastaron para que su caridad en redimir cautivos se enubiasse.

Apenas pues llegó à Tetuan, quando saliendo todos los cautivos (que ocupados

en sus labores, andaban sueltos) à echarse à sus pies y recibir su bendicion, comenzaron à dar gracias à Dios por tan gran bien como les embiaba, diziendo à voces en su llegada lo que los Infantes de Jerusalem cantaban al Redentor del mundo en su entrada en aquella Santa Ciudad: *Bendito sea el que viene en el nombre de el Señor: bien venido el que nos trae la libertad: bien llegado el que nos ha de redimir y rescatar de tan miserable servidumbre: gracias al Señor que oyó nuestros gemidos, y que atendió à nuestro llanto, y embió quien pudo romper nuestras cadenas, y librarnos de tantos males.*

Con estas exclamaciones era recebido en los Puertos Africanos, segun las Informaciones q en Sevilla, Ceuta y otras partes se hiziron. (O Emperadores Romanos, si esto vierades, como os corrierais de las vanas pompas de vuestros triunfos, cuya grandeza poniais en llevar

*Informaciones
de los Puertos
de el V. P.*

cau-

cargados de cadenas atados à vuestros carròs à los que cõ violencia àviais rendido! Pero la grandeza del triunfo de el siervo de Dios consistia en libertar y quitar las prisiones à los que avia oprimido la tirania. Allà la purpura servia de magestuoso adorno al que triunfaba: pero aqui vn pobre Sacerdote vestido de vn tosco buriel, triunfa sin adorno, porque le adorna la caridad, tela tan preciosa que de las del corazon se forma. Allà sò juzgaban las personas sin rendir los animos: pero el siervo de Dios aprisionaba los animos con amor, y libertaba las personas con caridad: tanto excede la virtud Christiana al valor Gentilico, y tan otros son los fueros de Dios que los del mundo.

Preslo passò la alegre nueva de su venida a las horrorosas mazmorras de Tetuan: y aquellas paredes hechas à ver tistes y lamentables semblantes de los miserables cautivos, vieron en ellos vna extraordinaria alegria, porque juzgando cada vno, que en el V.P. le venia todo su remedio, saltaban de gozo sin que les estorvasse el peso de las cadenas, y a mas ligeras con la esperança firme que avian concebido de

su nueva libertad. Los Moros se alegraban tambien, como el mercader que dessea vender, con ver llena su tienda de los muchos que vienen à comprar: pues como sabian por la experiencia, que en rescatar el siervo de Dios cautivos, no tenia limite su caridad, ninguno avia que no pensasse vender sus esclavos en aquella ocasion; con que su llegada en todos causaba vn incomparable gozo.

No le tuvo el V.P. tan cumplido como pensaba, cõ sus cautivos, por la nueva que le dieron de aver muerto el Alcayde: pues con el desseo que tenia de su bien, apenas llegó à Tetuan, quando luego preguntó por él, y sabiendo avia fallecido, llorò su perdicion, y el mal logro de sus fatigas, y cuidado que avia puesto por su reduccion. Pero sirviòle el favor que le avia hecho, de que vn nieto suyo llamado *Mogor*, que se avia apoderado de la Alcaydia, continuasse en favorecerle, qual pudiera su abuelo si estuviera vivo: de la misma suerte le portò la muger viuda de *Almandani*, regalándole y haciendo de él no menor estimacion que su marido, q la virtud del V.P. era tal, que le hazia estimar de todos.

Manuel
2. p. 1.º
Historia
de Africa
cap. 41.
fol. 151.

Y

ملحق وثائقي رقم : ٤

أملاك المنظرين الغرناطيين

يمكننا أن نتأمل وجهتي نظر تاريخيتين متعلقتين بعائلة المنظرى الغرناطية. إنها وثائق سابقة على حرب غرناطة ١٤٨٢-٩٢، ونعدها سائلة بالنسبة إلى دراسة تلك العائلة، ولدينا في هذا الصدد، على وجه الخصوص، الوثائق العربية الغرناطية التي نشرها سيكو دي لوثينا Seco de Lucena . إنها وثائق لاحقة على نهاية الإسلام الإسباني، تبرز من بينها الوثائق التي وجدناها في المحكمة الملكية العليا وفي قصر الحمراء الغرناطيّين، والتي تتحدث عن عائلة محددة، قبل وبعد ثورة البشيرات الكبرى، مع اختفائها المادي النهائي.

مع ذلك، ينبغي أن نسجل أنه لم يمكن العثور في أي وثيقة على الرباط الجوهري الذي يربط أياً من المنظرين المذكورين بمؤسس تطوان.

في ظل وجهة النظر هذه نتأمل افتراضين: أحدهما يذهب إلى وجود فرع عائلي ممتد ذي جذع مشترك للمنظرين. والثاني يرى أن اللقب كان نسباً لقرية المنظر القديمة، وهي بدمار حالياً.

لا نستطيع حالياً سوى أن نضع تكهنات، مع أن ظنوننا تتجه نحو الافتراض الأول.

توجد في المحكمة العليا الوثائق الأساسية عن المصير الأخير لعائلة المنظرى في أثيكياس. إيجار أملاك المنظرى ودفتر المزايدات الخاص بالممتلكات الأصلية لأندريس

المنظرى وزوجته. وتنتهى المغامرة فى كتاب حصر أراضى أثيكياس، حيث يُذكر اللقب،
لآخر مرة، كذكرى.

من المحتمل أن أندريس المنظرى توفى فى نفس هذا العام، ١٥٥٩، المؤرخ فيه
الإيجار، لأنه فى شهر ديسمبر من هذا العام تظهر زوجته إيسابيل فى وثائق قصر
الحمراء كأرملة. من الممكن أن يكون أندريس المنظرى قد عرف غرناطة بنى نصر، وهو
ما يجعله مستودعاً للضعف والإحباطات الناشئة عن عدم تنفيذ اتفاقيات الاستسلام
وخاصة لو كان ينتمى لطبقة النبلاء.

هل سيكون لديه أخبار عن نجاح عملية استقرار قريبه على الضفة الأخرى
للمضيق؟. ليس هناك أى شك فى ذلك، لأن علاقات الموريسكيين على هذا الجانب وعلى
الجانب الآخر كانت مستمرة بشكلٍ كافٍ. لا يدعو إلى الاستغراب، بالتالى، أنه هو
وأبناؤه حاولوا العبور إلى شمال إفريقيا.

إن المحاولة وحدها لم تكن فقط مثيرة للمشاكل بل خطيرة ومشئومة فى عواقبها.
عند تدخل محاكم التفتيش كان يحدث، على أقل تقدير، مصادرة الممتلكات.

لا نعلم بأية آلية يتم الانتقال هنا من التأجير إلى بيع هذه الممتلكات بعد مرور
سنتين، وهو البيع الذى يحضره المنطريان، والذى تتحول من خلاله المصادرة، فى
الحقيقة، إلى غرامة كبيرة أو اغتصاب، إلى جانب التحويلات الكبيرة التى تصبح فى
أيادى هؤلاء وأولئك.

إن السعر النهائى بمبلغ خمسمائة دوقية يعطينا مقياساً تقريبياً لرأسمال
المنظرين.

نستطيع أن نتناول، على سبيل الإشارة بعض أسعار التقييم: بيتان مع حديقة
صغيرة بمبلغ ثمانين دوقية؛ قطعة أرض تبلغ مساحتها ثلاثة ونصف مارخال بها تسع
أشجار زيتون وثلاث أشجار توت بمبلغ أربع وثلاثين دوقية.

تُعد الوثيقة كلها ذات أهمية كبيرة، ليس فقط بالنسبة إلى هدفنا الحالى المتمثل فى أن نجد فى غرناطة بقايا من عائلة المنظرى يمكن أن يكونوا على علاقة بمن أعاد إنشاء تطوان، بل أيضا من أجل دراسة وملاحظة بيانات غاية فى الأهمية بالنسبة إلى التاريخ المفصل، الذى يُعد دعامة للتاريخ الكبير.

من الخمسين اسماً تقريباً الذين يظهرون فى الوثيقة، يوجد بالكاد أربعة أو خمسة يمكن اعتبارهم مسيحيين قدامى.

باستثناء مسئول محكمة التفتيش، خوان دى ثاراتى؛ والمفتش العام، بيريث دى أروستيفى؛ والكاتب، ديفغو نابارو؛ ومارتين بيريث، الذى ربما كان مراقباً للمحكمة، فإنه، لا يكاد يوجد مسيحيون قدماء سوى ماركوس دياث وفرانثيسكو دى مولينا، وديفغو وبدرى مالدونادو ولا نجرؤ على زيادة القائمة؛ الباقون موريسكيون.

لم يكن المستفيد يقيم فى أثيكياس؛ ونظن أن حامل البكالوريا أيضاً لم يكن يقيم فيها، ويتبقى لنا - كمسيحيين وحيدى قديمين كانا يعيشان مع موريسكيين - الأخوان مالدونادو، إن احتمال الخطأ قليل جداً.

ديفغو مالدونادو هو الوحيد الذى يظهر فى التوزيع، بعد الحرب وطرد «المسيحيين الجدد»، إنه رمز حزين لمأساة زعزعت حتى جنود سكان المملكة الغرناطية القديمة.

يشتمل دفتر الإيجار ودفتر المزايدات على خصائص تُذكر أيضاً بالقوانين الإسلامية والمسيحية. إن وجود شجيرة الزيتون (ورقة ٣ ظهر) وشجيرة التوت (ورقة ه) أو الجوز (ورقة ٧) كثلاثة أمثلة مختلفة، فى أراضى ملاك مختلفين، تذكرنا بحالات مدونة سحنون، وهو كتاب أساسى من أجل تطبيق المذهب المالكى فى الإسلام الإشبانى.

فى الورقة ١ يأتى ذكر قوانين قشتالية تحاول أن تحل محل القوانين الغرناطية الأصلية.

هناك قوانين أخرى تبدو لنا مشتركة مع النظامين القضائيين. يتعهد الأخوان منظري بأن يفلحا ويعتنيا جيداً بالعقار الذى يستأجرانه وإن لم يقوموا بذلك على هذا النحو فإن بيت المال سوف يقوم بتنفيذ ذلك على حسابهما. بالإضافة إلى ذلك هما لا يستطيعان التخلي عن العقار وإلا عوقبا بدفع الريع عن العقار الخالى. إن ذلك من فكرة اعتبار الأرض مالا عاما .

مع ذلك تتحول المنافسة إلى منافسة رمزية فى معظم الحالات، إذ يقوم الأخوان منظري بدفع قيمة المواد المسعرة بمقدار دوقية واحدة وحتى ريال واحد فى حالة معينة (ورقة رقمه وهظهر).

فى حالات أخرى يخسر الأخوان منظري، المنافسة أو يتنازلان ، كما يحدث فى شأن البيوت التى تصبح فى حوزة المستفيد فرانشيسكو دى مولينا، أو الأشجار التى تصبح فى أيدي ديينغو مالدوناو أو مناحل العسل التى تصير فى أيدي الماحلي. لكن من الناحية الكلية فإن ما يذهب إلى أيادي الغير يصل إلى ٤٦٩ر٤١ ريال مرابطى، فى مقابل مبلغ ١٨٢ر٢٩٥ تبقى فى حوزة المنظرين. ويبدو لنا أنه حتى مبلغ الـ ٣٠.٠٠٠ ريال مرابطى قيمة بيوت المستفيد قد تم بيعها فى المزاد بشيء من الضغط، على الأقل نفسياً، حيث إن الأخوين استمرا يعيشان فيها حتى الحرب، وحولوا ملكيتها هكذا إلى ربح دائم لصالح المستفيد.

من عام ١٥٦١ إلى ١٥٦٨ لا نعلم ما هو المكان ولا النشاط الحالى لغارثيا وميغيل منظري، لو كان لديهما نشاط، كذلك لا نعلم شيئاً عن أمهما إيسابيل وأختهما بياتريث، اللتين تظهران فى وثائق قصر الحمراء. إن الصمت يخيم على هذه العائلة، مثل لوحة مقبرة سوف يكتب نقوشها كتاب حصر أراضى أثيكياس، عندما يتذكر «البيت الذى كان».

مع ذلك فالدراسة اللغوية لهذا النوع من الوثائق التى قام بها بإحكام صديقى العزيز الأستاذ خوان مارتينيس رويث، لا يمكن منافستها. إنتى أستند إلى دراسته بعنوان "جرد أملاك الموريسكيين فى مملكة غرناطة (القرن السادس عشر)"، وأشكره من كل قلبى على المساعدة التى قدمها لى.

نسخ وثيقة المحكمة العليا بشأن تأجير أملاك أندريس المنظري،
ودفتر المزايدات .

تأجير أملاك المنظري :

فى منطقة أتيكيا دل بايى دى إلكين، بتاريخ الحادى عشر من شهر سبتمبر من عام ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، فى حضورى أنا الكاتب والشهود الذين أذكرهم كتابة، غارثيا المنظري وأخوه ميغيل المنظري كمدينين أساسيين، وميغيل دى أنتيكيرا المأمور القضائى ودييغو دى إسكوبار، من سكان المكان المذكور، كضامنين لهما وأساسيين فى السداد بدون إجراء تحقيق ولا عمل أى إجراء آخر ضد الأشخاص الأساسيين، والأربعة جميعهم وبالإجماع وبصوت شخص واحد وكل واحد منهم، بالأصالة عن نفسه وعنهم يتنازلون عن قانون... والاستفادة من التقسيم وكل القوانين الأخرى، والامتيازات(*) والحقوق التى يتوجب أن يتنازل عنها الذين يلتزمون بالإجماع، كما قررنا فى الوثيقة أننا نأخذ الربح الذى يودع فى خزانة الدولة الخاص بصاحب الجلالة من محكمة التفتيش بقضاء غرناطة ومن خوان ثاراتى، الذى يتلقى منها باسمه كل الثروة الخاصة بالممتلكات الأصلية المفروض عليها الحراسة والتابعة لأندريس المنظري وإيسابيل زوجته، من سكان منطقة أتيكيا المذكورة، والدا المذكورين ميغيل وغارثيا المنظري، فيما عدا المنحل الذى يشتمل على بيوت وطواحين وبساتين وهى أراضى وأشجار عنب وأشجار زيتون وأشجار توت لمدة عامين أوليين تاليين يبدأ من الأول من سبتمبر المقبل من هذا العام الحالى من تاريخ هذه الوثيقة، بسعر اثنتى عشرة

(*) النص الإشباني فى الوثيقة الأصلية غير واضح، وربما كانت الفقرات غير الواضحة ناتجة عن سوء حالة الوثيقة وعدم استطاعة قراءتها بشكل جيد. عموما فإن ما يهم المؤلف - وبهمننا أيضا - هو تتبع آثار عائلة المنظري فى إسبانيا بعد سقوط غرناطة ورحيل أحد أفرادها وهو مؤسس تطوان . (المراجع)

عملة مرابطية لكل واحدة منها والتي نلتزم بتقديمها ودفعها مودعة في غرناطة لحسابه، في نهاية شهر أكتوبر من كل عام من العامين المذكورين وإلا عوقبوا بدفع الضعف بشرط أنه خلال فترة الإيجار هذه تُباع الممتلكات الخاصة بالحراسة المذكورة والتي لا يزال يتعين على المذكورين أن يفيوا بهذا الإيجار بشرط أن يتوجب عليهم أن يلتزموا بفلاحة وعلاج أشجار الزيتون المذكورة والأراضي وأشجار التوت وأشجار العنب من كل ما ينبغي، وإن لم يفعلوا ذلك هكذا فإن ممثل خزانة الدولة يمكن أن يأمر بالفلاحة على نفقته وبما ينفقه يستطيع أن يحاكمهم وأن يلتزموا بعدم ترك الأملاك المذكورة وإلا عوقبوا بدفع الربح عن العقار الخالي ومن أجل ذلك أجبروا أشخاصهم على التنازل عن ممتلكاتهم للعدالة، وتخلوا عن القوانين ومن أجل ذلك أوقع هذه الوثيقة حيث الشهود هم بالتاسار غارثيا الذي كان مترجماً لهذه الوثيقة وحامل البكالوريا ماركوس دياث، في حضور بيريث دي أورستيغي، المفتش العام وكشاهد من المكان بالتاسار غارثيا.

تأجير الممتلكات فيما عدا المنحل بسعر اثني عشر ألف بيعت

الممتلكات الأصلية في يناير من عام ١٥٦١ .

بالأسلوب الذي يتفق مع هذا الإيجار يتعين تحصيل سنة.

أمامي أنا

دييغوتابارو

٢٠٠٠

٥١٥٠

٣٥٦٢

٠٥٦٢

١١٢٧٥

٣٠٠٠

٥١٥٠

٣٢٧٥

٠٥٦٠

٠٠٨٥

(جزء ممسوح)

٢٠٧٤

٢٩٩٣

٢٥٥١

١٢٠٧

٢٣٠٣

١٦٦٧

١٥٥٠

١٤١٦٢

٤٧٣٤

١٩٩٣.

١.٩٢٥

١١٧.٢

٤٦٤٢

٨.٤٤١

٥٨٩٧

٧٤٥٤٤

٢٩٢٦٤

٤٥٢٨.

٢٤٥٥٢

٣٩.

٣٥٦٢

٦٤٨

٢٩٢٦٣

المنحل بالثمانية مضارب

بيان الحراس

قدرة الحراس

أثيكيا دل بايى

دفتر المزادات

أندريس المنظرى وزوجته

فى منطقة أثيكيا دل بايى، فى الثامن من شهر سبتمبر من عام ١٥٥٩ بصوت مارتين دى كويار، المنادى، تم عمل المزاد على الممتلكات الآتية (بين هذا السطر والسطر الذى يليه يوجد النص الذى تم إدخاله): وبعد ذلك فى منطقة أثيكيا فى الحادى والثلاثين من شهر يناير من عام ١٥٦١ بصوت سيمون إيرنانديث، المنادى، بعد قيامه بالمناداة كثيراً على هذه الأملاك، كتنبيه، وبعد ذلك بدأ المزاد، وتمت المزايدة على الممتلكات الأصلية التالية والمعلنة تباعاً على الأشخاص وبالأسعار التالية، فى ظل الشروط العامة. (ينتهى هنا النص الذى تم إدخاله)

بيوت واقعة فى منطقة أثيكيا مع بيت آخر مجاور له (كذا) ويحد كلا البيتين بيت لورينثو بالومينو وبيت أندريس دى نابوليس، فى هذا اليوم حضر ديبغو مالدونادو، من سكان أثيكيا وعرض هذه البيوت بمبلغ ٧٢ دوقية. الشاهدان غارثيا المنظرى وأخوه نافسا بدوقية واحدة، وعرض فرانثيسكو دى مولينا فى مقابل تلك البيوت، مع الحديقة الصغيرة الواقعة خلفها مبلغ ٨٠ دوقية، ولعدم وجود منافس أكبر رسا عليه المزاد بمبلغ الثمانين دوقية المذكورة، الشهود المذكورون.

أنهى المزاد

Pasado ٣٠٠٠٠

فرانثيسكو دى مولينا

طاحونة للخبز بجوار الطريق والبيوت، فى هذا اليوم حضر ديبغو مالدونادو وعرضها بمبلغ ٣٨ دوقية. الشاهدان المذكوران، غارثيا وأخوه، رفعوا المبلغ بمقدار دوقية واحدة. هاتان الطاحونتان تباعان معاً. هناك طاحونة أخرى للخبز فوق الطاحونة

المذكورة. فى هذا اليوم حضر ديبغو مالدونادو وعرض الطاحونة المذكورة بمبلغ ٣٨
دوقية. الشاهدان المذكوران، غارثيا وأخوه رفعا المبلغ بمقدار دوقية واحدة، عرضا ٧٨
دوقية مقابل هاتين الطاحونتين، غارثيا وأخوه ميغيل منظرى، وتم التنبيه بإنهاء المزاد
ولأنه لم يوجد شخص يتنافس بأكثر من ذلك فقد رسا المزاد على المذكورين غارثيا
وميغيل منظرى، الشهود المذكورون.

أنهى المزاد

٢٩٢٥٠ pasado

غارثيا منظرى

ميغيل منظرى

شجيرة زيتون فى أرض وكيل الدولة فى ضيعة الطاحونة.

فى هذا اليوم حضر ديبغو مالدونادو وعرض الشجرة المذكورة بمبلغ دوقية واحدة،
الشاهدان المالدونادو، بسبب عدم وجود منافس رسا المزاد على ديبغو مالدونادو،
الشهود المذكورون

أنهى المزاد

٣٧٥ Pasado

ديبغو مالدونادو

قطعة أرض تبلغ مساحتها ٢ مارخال فى ضيعة الماريام يحدها الطريق وأرض
غارثيا خيمينيث وواقعة أمام شجرة زيتون، المذكور ديبغو مالدونادو عرض مبلغ ٣٢
دوقية فى مقابلها، الشاهدان المذكوران غارثيا منظرى وأخوه ميغيل المنظرى رفعا
المبلغ بمقدار دوقية واحدة ثم قالوا إن مبلغ الـ ٣٤ دوقية، أقول ٣٤ دوقية، ٣٥ دوقية
عرضها خوان دى سولير، الشهود المذكورون، ٣٦ دوقية عرضها ميغيل منظرى،
الشهود المذكورون.

ونظراً لعدم وجود منافس رسا المزاد على ميغيل المنظرى، الشهود المذكورون.

• أنهى المزاد

Pasado ١٢٥٠٠

ميغيل المنظرى

قطعة أرض أخرى مساحتها مارخال واحد وبها ثلاث أشجار زيتون فى قرية الدار مجاورة للطريق وأوقاف الكنيسة. فى هذا اليوم حضر ديبغو مالدونادو وعرضها بمبلغ ١٦ دوقية، الشهود المذكورون . المذكوران غارثيا وميغيل عرضا ١٧ دوقية ولأنه لم يوجد منافس رسا المزاد على المذكورين غارثيا المنظرى وشقيقه، الشهود المذكورون.

أنهى المزاد

Pasado ٦٣٧٥

غارثيا منظرى

قطعة أرض أخرى مساحتها ٣٥ (ثلاثة ونصف) مارخال بها شجرة زيتون فى قرية هانداك القصر، تحدها أرض خوان أرايث دى دوركال، ويوجد فى هذه الأرض ثلاث أشجار توت. هذا اليوم حضر ديبغو دى مالدونادو ووضعها بمبلغ ٥٦ دوقية، وعرض المذكوران غارثيا وميغيل ٥٧ دوقية فى مقابلها ورسا المزاد عليهما بمبلغ ٥٧، الشهود المذكورون.

أنهى المزاد

Pasado ٢١٣٧٥

غارثيا المنظرى

وميغيل أخوه

قطعة أرض أخرى مساحتها ٣ مارخال بها أشجار زيتون وأشجار توت عند نهر هذا المكان، يحدها الطريق وأرض عبدون، يوجد فى هذه الأرض ست أشجار زيتون وخمس أشجار توت واشتتا عشرة شجرة تين، فى هذا اليوم حضر ديبغو مالدونادو وقدرها بمبلغ ٢٨ دوقية، الشهود المذكورون، وعرض المذكوران غارثيا وميغيل مبلغ ٣٠ دوقية، وتم التنبيه بقل المزاد ولأنه لم يوجد منافس رسا المزاد على المذكورين.

أنهى المزاد

Pasado ١١٢٥٠

ميغيل منظرى

و أخوه غارثي

حديقة مساحتها مارخال واحد أكثر قليلاً أو أقل قليلاً، بجوار البيوت، عند قرية ديغار فى بيثمار، مجاورة لبيوت خوان عبدون وبيوت زكريا دى مولينا وديبغو دى ألما، يوجد فى هذه الحديقة أربع أشجار زيتون، وثلاث أشجار توت وأشجار فواكه أخرى صغيرة.

فى هذا اليوم حضر ديبغو مالدونادو وقدر ثمن تلك الحديقة بمبلغ ١٧ دوقية، الشهود المذكورون، وعرض المذكوران غارثيا وميغيل المنظرى ١٨ دوقية، رسا المزاد على المذكورين، الشهود المذكورون.

أنهى المزاد

Pasado ٦٧٥٠

ميغيل المنظرى

وأخوه غارثيا

قطعة أرض للزراعة الجافة مساحتها فانيغا واحدة للزراعة فى السلسلة الجبلية، فى قرية الحالكى، مجاورة لأرض خوان أراى والطريق.

فى هذا اليوم حضر المذكور دىيغو مالدونادو وعرضها بمبلغ دوقية واحدة، الشهود المذكورون، وعرض المذكوران غارثيا وميغيل ١٣ ريالاً ونظراً لعدم وجود منافس رسا المزاد عليهما بمبلغ الثلاثة عشر ريالاً، الشهود المذكورون.

أنهى المزاد

Pasado ٤٤٢

المذكوران

قطعة أرض أخرى للزراعة الجافة فى السلسلة الجبلية، مساحتها نصف فانيغا، تحدها أرض خوان الهنداك وخوان المارينى، تقع عند مجرى المارخاكسات، فى هذا اليوم حضر المذكور دىيغو مالدونادو وعرضها بمبلغ دوقية واحدة، الشهود المذكورون، وعرض غارثيا وميغيل مبلغ اثنى عشر ريالاً فى مقابلها، ورسا المزاد عليهما.

Pasado ٤٠٨

رسا المزاد على

المذكورين

قطعة أرض للزراعة الجافة تبلغ مساحتها ٢ فانيغا صالحة للزراعة فى إيسكوثار، تحدها أرض الـ أبلى والطريق، واقعة فى قرية الخيبي.

فى هذا اليوم حضر المذكور دىيغو مالدونادو وقدرها بخمس دوقيات، الشاهدان المذكوران: غارثيا المنظرى وميغيل المنظرى، عرضا فى مقابلها ست دوقيات ولعدم وجود منافس رسا عليهما المزاد، الشهود المذكورون.

رسا المزاد على

Pasado ٢٢٥٠

المذكورين

قطعة أرض أخرى فى مزرعة إيسكوثار المذكورة مساحتها ٢ فانيغا أخريين يحدها الطريق. فى هذا اليوم حضر المذكور ديبغو مالدونادو وقدرها بست دوقيات، الشهود المذكورون، وقد عرض الأخوان المذكوران ست دوقيات وريالاً واحداً مقابلها ورسا عليهما المزا، الشهود المذكورون.

رسا المزا على

Pasado ٢٢٨٤

المذكورين

قطعة أرض تبلغ مساحتها ٢ مارخال فى قرية لاس إيراس، يحدها بيت المصدف ومسطح أرضى لدراسة المحاصيل، يوجد فى هذه الأرض شجرة توت وشجرتا كرز صغيرتان، فى ذلك اليوم حضر المذكور ديبغو مالدونادو وعرض الأرض المذكورة بمبلغ ٣٨ دوقية، الشهود المذكورون، وقد رسا المزا على المذكورين، بالمبالغ المذكورة، بعد ذلك وىموافقة الأطراف نافس المذكوران غارثيا وميغيل بمبلغ ٣٨ دوقية وريالين، الشهود المذكورون.

رسا المزا على

المذكورين

Pasado ١٤٣١٨

قطعة أرض أخرى مساحتها ٣ مارخال بها ثمانية أو تسعة شجيرات زيتون، فى قرية الرميل، تحدها أرض إيثبولا وخوان دى باييثا، فى هذا اليوم حضر المذكور ديبغو مالدونادو وعرض الأرض المذكورة بمبلغ ٣٣ دوقية، الشهود المذكورون، عرض غارثيا المنظرى وأخوه ميغيل مقابل هذه الأرض مبلغ ٣٤ دوقية ورسا المزا عليهما، الشهود المذكورون.

رسا المزاد على

المذكورين

Pasado ١٢٧٥٠

قطعة أرض أخرى مساحتها ٢ مارخال فى مزرعة البينا المتاخمة لمزرعة لورينثو
ال لونتشى والطريق، يوجد فى هذه الأرض سبع أشجار زيتون صغيرة. فى هذا اليوم
حضر ديبغو مالدونادو وعرضها بمبلغ ١٦ دوقية، الشهود المذكورون. عرض غارثيا
المنظرى، وميغيل المنظرى مبلغ ١٨ دوقية ثمناً لها. وقد رسا المزاد عليهما، الشهود
المذكورون.

رسا المزاد على

المذكورين

Pasado ٦٧٥٠

أرض مزروعة بأشجار العنب مساحتها مارخال ونصف المارخال فى قرية البينا
المذكورة، تحدها أرض خوان أرايث والممشى.
فى هذا اليوم حضر ديبغو مالدونادو وعرضها بمبلغ ست دوقيات وريال واحد،
الشهود المذكورون،

وقد عرض ميغيل وأخوه غارثيا المنظرى مبلغ ست دوقيات وريالاً واحداً فى
مقابلها ورسا المزاد عليهما، الشهود المذكورون.

رسا المزاد على

المذكورين

Pasado ٢٢٨٤

شجيرة زيتون فى المارخى فى أرض ميغيل سيمان. فى هذا اليوم حضر ديبغو
مالدونادو وعرضها بمبلغ ٣٥ دوقية، الشهود المذكورون. رسا المزاد على المذكور

دييغو مالدونادو، الشهود المذكورون. أقول إنه أرسى المزاى بمبلغ ٣٥ روقية وريال على غارثيا وميغيل المنظرى.

رسا المزاى

على المذكورين Pasado ١٣٤٦

شجيرة توت فى ضيعة كانتودا، فى أرض أندريس كاستيأنو.

حضر فى هذا اليوم دييغو مالدونادو وعرضها بمبلغ ١٢ روقية، الشهود المذكورون. وقد عرض غارثيا المنظرى وأخوه ميغيل ١٣ روقية. رسا المزاى عليهما، الشهود المذكورون.

رسا المزاى على

المذكورين Pasado ٤٨٧٥

قطعة أرض مساحتها أكبر أو أقل بقليل من مارخال واحد عند مجرى النهر متاخمة لأرض خوان عبدون وأرض دومينغو نصير. محاطة بأشجار الحور. فى هذا اليوم حضر دييغو مالدونادو وعرض تلك الأرض بمبلغ ست روقيات. عرض غارثيا المنظرى وأخوه ميغيل سبع روقيات. رسا المزاى عليهما، الشهود المذكورون.

رسا المزاى على

المذكورين Pasado ٢٦٢٥

قطعة أرض أخرى تبلغ مساحتها مارخال آخر بها أشجار توت وأشجار زيتون وتقع ناحية النهر، متاخمة لأرض خوان عبد الرازق، وأرض غارثيا عبدون، وهما يشتملان على ست أشجار زيتون وثلاث أشجار توت.

فى هذا اليوم حضر ديبغو مالدونادو وعرض الأرض المذكورة والشجيرات بمبلغ اثنتى عشرة دوقية، والشهود المذكورون غارثيا المنظرى وشقيقه ميغيل عرضا ثلاث عشرة دوقية وقد رسا المزاد عليهما، الشهود المذكورون.

رسا المزاد على

المذكورين

٤٨٧٥

أرض للرئ مساحتها نصف فانيغا للزراعة فى السلسلة الجبلية متاخمة لأرض إسكوبار وأرض رامون إيرتاندث. تقع فى قرية فادينا خيركا.

فى هذا اليوم حضر ديبغو مالدونادو وعرض الأرض المذكورة بمبلغ دوقيتين، الشهود المذكورون؛ عرض المذكوران غارثيا المنظرى وأخوه ميغيل دوقيتين وريالاً واحد ونظراً لعدم وجود منافس أكبر رسا المزاد عليه، الشهود المذكورون.

رسا المزاد على

المذكورين

٧٨٤

قطعة أرض أخرى للزراعة الجافة مساحتها فانيغا فى منطقة سيلا المتاخمة.

فى هذا اليوم حضر ديبغو مالدونادو وعرض الأرض المذكورة بمبلغ دوقيتين، الشهود المذكورون، وقد عرض غارثيا المنظرى وشقيقه مبلغ ٢٣ ريالاً ولأنه لم يكن هناك منافس أكبر رسا المزاد عليهما، الشهود المذكورون.

رسا المزاد على

المذكورين

٧٨٢

قطعة من بستان مساحتها مارخال واحد بها أشجار زيتون وأشجار توت وأشجار تفاح، يحدها الطريق وأرض السيد الغينى وأرض ديبغو كاستيأنو وبستان

أندريس المنظرى، يوجد فى هذا البستان شجرتا زيتون وشجرتا توت صغيرتان وأشجار مثمرة أخرى. فى هذا اليوم حضر ديبغو مالدونادو وعرض البستان المذكور بعشر دوقيات، الشهود المذكورون.

فى هذا اليوم حضر المذكور غارثيا المنظرى (وردت هكذا) وعرض مبلغ عشر دوقيات وريالاً واحداً فى مقابل البستان المذكور وقد رسا المزاد على المذكورين لعدم وجود منافس أكبر، الشهود المذكورون.

رسا المزاد على

المذكورين

٣٧٨٤

نصف منحل فى منطقة كاثولاس، مناصفة مع الماخيلي من قرية لاس البونيويلاس والتي تشتمل كلها على ستين خلية.

فى الثامن من سبتمبر من عام ١٥٥٩، عرض لورينثو ماهلى مقابل نصف المنحل هذا مبلغ ١٣ دوقية، وعرض حامل البكالوريا ماركوس دياث مبلغ ١٤ دوقية، وعرض لورينثو ماهلى ١٥ دوقية ونظراً لعدم وجود منافس أكبر أغلق المزاد على المذكور لورينثو ماهلى بمبلغ الخمس عشرة دوقية المذكورة، الشهود: حامل البكالوريا ماركوس/ أغلق المزاد على دياث بيريث دى أورثيغى

أغلق المزاد على

دياث بيريث دى أورثيغى

Pasad

٥٦٢٥

منحل عند نهر خيكسات به مائتا خلية، تشتمل على مائة وست خلايا قديمة ونصف الخلايا الجديدة متزايدة هذا العام.

أرض للرى فى ضيعة الموهاتشار مساحتها ٢ مارخال، متاخمة لأوقاف الكنيسة وأرض لويس دى موييا والطريق.

فى هذا اليوم حضر ١ نكور ديفو مالدونادو وعرض قطعة الأرض المذكورة بمبلغ ٣٦ دوقية، الشهود المذكورون. وقد عرض غارثيا المنظرى وأخوه ميغيل مبلغ ٣٧ دوقية. ونظراً لعدم وجود منافس أكبر أُغلق المزاد عليهما، بمبلغ سبع وثلاثين دوقية المذكورة، الشهود المذكورون.

أُغلق المزاد على

المذكورين

١٣٨٧٥

قطعة أرض مساحتها ٢ مارخال فى قرية أنداك الشيمى، يحدها أرض زكريا دى مولينا وديفو نضير.

فى هذا اليوم حضر ديفو مالدونادو وعرض العقار المذكور بمبلغ أربعين دوقية، الشهود المذكورون.

فى هذا اليوم عرض غارثيا المنظرى وشقيقه مبلغ أربعين دوقية ونظراً لعدم وجود منافس أكبر أُغلق المزاد عليهما، الشهود المذكورون.

أُغلق المزاد على المذكورين

١٥٠٠٠

قطعة أرض أخرى بها أشجار عنب مساحتها أكبر من مارخال بها شجيرة أو شجيرتان توت عند ضفة النهر يحدها أرض لورينثو بالومينو وآخرون (كلمة آخرون مشطوبة) ديفو إيرنانديث.

فى هذا اليوم حضر ديفو مالدونادو وعرض تلك الكرمة بمبلغ ثلاث دوقيات، الشهود المذكورون. وقد عرض غارثيا المنظرى وشقيقه ميغيل مبلغ أربع دوقيات ونظراً لعدم وجود منافس أكبر أُغلق المزاد عليهما، الشهود المذكورون.

أُغلق المزاد على المذكورين

١٥٠٠٠

كرمة فى قرية التشيتى فى دائرة البونيول تحدها أرض خوان البُشراتى والطريق وأرض أحد أفراد عائلة دوركال وتبلغ مساحتها ٤ بيونادا.

فى هذا اليوم حضر المذكور ديبغو مالدونادو وعرض تلك الكرمة بمبلغ ٧ دوقيات،
الشهود المذكورون.

المذكوران غارثيا المنظرى (وردت هكذا) وأخوه ميغيل، عرضا فى مقابلها سبع
دوقيات وريالاً واحداً وأُغلق المزاد عليهما، الشهود المذكورون.

أُغلق المزاد على

المذكورين

٢٦٥٩

كرمة أخرى تصل مساحتها إلى نحو مارخال ونصف فى دائرة نيغيلاس، تحدها
أرض خوان دى مونتى قريو وأرض لويس دل كاستيُو.

فى هذا اليوم حضر المذكور ديبغو مالدونادو وعرض الكرمة المذكورة بمبلغ ست
دوقيات، الشهود المذكورون.

فى هذا اليوم عرض فولخنثيو إرنانديث مبلغ ست دوقيات وريالين ونظراً لعدم
وجود منافس أكبر أُغلق المزاد عليه، الشهود المذكورون.

فولخنثيو إرنانديث

إرساء المزاد

على المبلغ المذكور

enajenada

٢٣١٨

كرمة أخرى مساحتها مارخال واحد فى قرية أثيكيا، بجوار النهر تحدها أرض
لورينثو إرنانديث ويحوزها غارثيا باستور.

شجرة توت عند النهر فى كرمة البشراتى، جار نيغلاس.

فى هذا اليوم حضر ديبغو مالدونادو وعرض تلك الأرض بمبلغ دوقيتين، الشهود
المذكورون، عرض غارثيا المنظرى وميغيل المنظرى ثلاث دوقيتات، فى هذا اليوم عرض
خوان دى سولير ثلاث دوقيتات وريالاً واحداً فى مقابلها، الشهود المذكورون، ثم عرض
ميغيل المنظرى وأخوه غارثيا ثلاث دوقيتات وريالين، ثم عرض بدرو مالدونادو ثلاث
دوقيتات ونصف (هذا الاسم يظهر فوق اسم غارثيا المنظرى، المشطوب) وأغلق المزاد،
الشهود المذكورون.

شجيرة توت أخرى فى أرض المرينى،

تحدها أرض غارثيا خيمينيث الكانا.

رسا المزاد على

بدرو مالدونادو

١٣١٢

فى هذا اليوم حضر ديبغو مالدونادو وعرض شجيرة التوت المذكورة بمبلغ ثلاث
دوقيتات، الشهود المذكورون.

ونظراً لعدم وجود منافس رسا عليه المزاد، الشهود المذكورون.

١١٢٥

(الخمسة سطور التالية مشطوبة)

رسا المزاد على

غارثيا المنظرى

(مشطوب)

وأخيه (مشطوب)

دييغو مالدونادو ،

قطعة من بستان تقع خلف المنازل المصادرة متاخمة لأرض أندريس دى نابوليس ولورنيثو بالومينو. هذا البستان يُعد مثل فناء للبيوت المسجلة ضمن هذه المصادرة وهكذا تدخل ضمن بيع تلك البيوت، ولهذا السبب تم طرح هذه الحصة (كل ما سبق مشطوب).

قطعة صغيرة أخرى من بستان أسفل أرض مسطحة سفلية مساحتها نصف مارخال، متاخمة لأرض غارثيا كاستيأنوس.

فى هذا اليوم المذكور حضر دييغو مالدونادو وعرضها بمبلغ نصف دوقية، الشهود المذكورون، وعرض غارثيا المنظرى ستة ريالات ورسا عليه المزاد.

أُغلق المزاد على

المبلغ المذكور

٢٠٤

شجرة لوز بالقرب من الطاحونة الأولى للمذكور أندريس المنظرى، فى ناحية الطاحونة ومتاخمة لها.

فى هذا اليوم حضر المذكور دييغو مالدونادو وعرض شجرة اللوز المذكورة بمبلغ دوقية واحدة، الشهود المذكورون، فرانتيسكو دى مولينا، المستفيد، عرض مبلغ دوقية ونصف الدوقية مقابلها.

فورخنتيُو إرناندث عرض ثمانية عشر ريالاً؛ عرض ديبغو مالدونادو تسعة عشر ريالاً؛ عرض غارثيا وأندرس المنظري مبلغ عشرين ريالاً ... ديبغو مالدونادو عرض واحداً وعشرين ريالاً ورسا عليه المزاد، الشهود المذكورون.

رسا المزاد

على ديبغو مالدونادو

٧١٤

(التالى مشطوب)

شجيرة توت فى أرض غارثيا خيمينيث خلف منزل لورنثو دى كونتشى، شجرة التوت هذه هى المعلن عنها آنفاً، حيث يُقال شجرة توت صغيرة فى أرض المارينى، متاخمة لأرض غارثيا خيمينيث ألكانا.

شجرتا توت صغيرتان فى ناحية أنداك القصر مستقرتان فى أرض ناحية الأنداك.

(كل ما سبق مشطوب)

فى أتيكيا، فى ذلك اليوم عرض مارتين بيريث كل هذه الأملاك فيما عدا المنحل بمبلغ خمسمائة دوقية.

يتعين رؤية الثمار.

١٨٠

١٥٣

٥٩

١٠٢

٦٠

٣٧

٤٥

٧٤

٧

٧١٨

٥٥٠

١٦٨

(على ما يبدو هناك خطأ في الجمع)

ملحق وثائقي رقم ٥

نهاية عائلة

نقدم هنا الأجزاء الخاصة بكتاب وثائق وحصر أملاك في منطقة أثيكياس Acequias التي نعتبرها مهمة من أجل إتمام دراستنا.

إن شروط التوطين هي شروط عامة لكل المملكة وشروط خاصة بالنسبة إلى منطقة أثيكياس.

الأسر التي تم توطينها حديثاً والأنصبة التي تخص كلاً منها. ومن هنا نقفز للورقة ١٥، الخاصة باستقصاء الأملاك الموجودة، وفيها فقرات رهيبية تتضمن: منازل منهارة ومحرقة وغير قابلة للسكن؛ وتوجد فقرات أخرى ليست أقل دلالة في الورقة التالية: جذوع أشجار توت مقطوعة، وأشجار فواكه فاسدة وطواحين بن لا تطحن، ومعاصر زيت منهارة وفاسدة.

إن الحرب تركت آثارها هنا، ربما بشكل أكثر كثافة منه في أماكن أخرى. لا يوجد أي أثر لموريسكيين.

يُقال فقط عند التوزيع إن هذه الدار أو هذه الأملاك كانت تنتمي إلى..... واسم مالكاها القديم، الموريسكي بالطبع.

في الورقة ٢١ يأتي ذكر ديبغو المنطري؛ وفي الورقة ٥٩ يُذكر غارثيا المنطري. هذا هو كل شيء.

aug 14

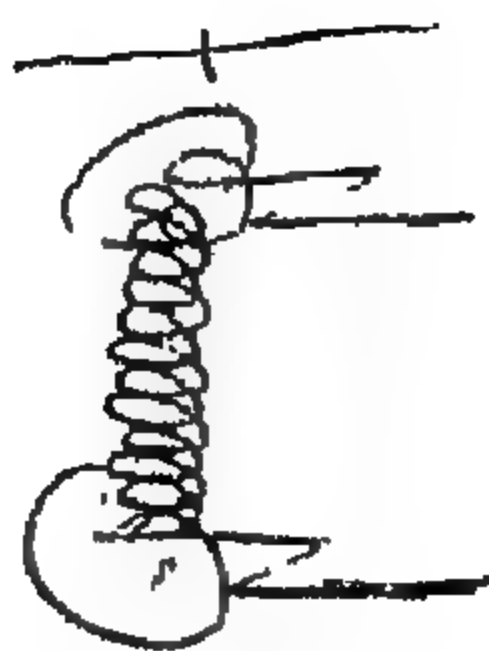
Ad censurę pęktu. qęstcluga z
paga. ęs. Dęczyseię. 7t mdaanod
cozzedędę pzię dęgen dęleant.
Gadelantę 7t


[illegible]

ARCHIVO DE LA
REAL BIBLIOTECARIA
Ensign
Sección Histórica
Libro n.º H. 3580

ARCHIVO DE LA
R. CHANCILLERIA
Cabinas... 5a
Sección... A. mas
Legajo... 1
Plaza n.º... 2

И. Вердичи



 Resolución de la hacienda. que cupo y pertenece por
el partito. á Juan Verdugo. y ynuvo. 2500000. de
lugares de sequiá desee. que en el lugar de Juan
de Medina en la suerte. original.

V. nacassa. creste sp. ligar dea
 equia. quee. lacassa. quee. dea
 equi ardeq. exati. Zimto. de equi
 line. de cassa. quee. de equi
 mandazi. ansee. arto. de quee
 de tenese. de equi. cassa.

N he l t a n z g i q u e r e g i z o d e l o s
 q u e r t o s q u i n t o d e a s c a s a s . l e c u s o
 e a s u e t e . l a t o r z a . d e s e t e n a n z q u e r e
 g i z o . e n u n o s q u e r t o s . e n t r e e l q u e d a c o s
 q u e t i e n e n d o s m a r z a s o s p i n e d i a s
 t a n q u i n t o s . a l i n d o n . a n e l a c o q u i a .
 p r i n d a l e c o n s u e t e d e f a n a s o
 d e m e d i n a e o q u a n m o n t a s o t i e
 n e n d e n t r o l o s i s m o z a l e s . q u e s e e
 d a n t a s a d o s . p a r t e s d e m a r z a
 d y m a s . u n o p a r t e . q u e s e l e d a b a
 n i t a s d e . p o r q u e l a o t a m i t a s
 e s d e e a v a n t a p a r t e q u a n d e m e d i
 n a . l o a d e a n t e d i n o m a e d o r i d o

✓ 2 nestranza di mero que se
fizo. en el lago de sagaz que se
fazia en la linda con el camino
que sube de sagaz. En nestranza
de cupo. En la parte quarta que se
fizo. En mero de sagaz. que se
fazia en la linda con el camino que sube

نسخ للأوراق الخاصة بكتاب وثائق وحصر ممتلكات منطقة أثيكياس، والمصير النهائي للأمالك الموريسكية والتي من بينها أملاك الإخوة منظرى.

أثيكياس

لجنة تسكين منطقة

أثيكياس دل بايى.

الضرائب الدائمة التى تدفعها

هذه القرية هى ستة عشر ريالاً

كل سنة اعتباراً من أول يناير

من عام ٧٤ فصاعداً

بايى

أثيكيا

الملك فيليبى، بفضل الرب ملك قشتالة وليون وأراغون وجزيرتى صقلية وأورشاليم ونابارا وغرناطة وطليلة وفالنسيا وقرطبة وكورسيغا دى مورثيا وخاين وكونت فلانديس وتيرول.

إليكم يا ألونسو سانشيث، كاتبنا والذى أمرنا أن تتولوا أمر ضرائب قرى البشرات ودائرتها، نعلم أنكم تأخذون فى الاعتبار ما يناسب مصلحتنا بأن تُعمر قرى مملكة غرناطة التى أصبحت خالية وغير مأهولة لأننا أخرجنا منها الموريسكيين الذين كانوا يعيشون فى تلك المملكة، بسبب ثورتهم وانتفاضتهم، وخاصة الذين كانوا يعيشون فى البشرات، الجبلية والبحرية، وذلك من أجل مصلحة رعايانا وأبناء بلدنا، رأينا من المناسب أن نطلب أن يذهب أى أشخاص من خارج مملكة غرناطة تلك إلى

ذلك المكان ويسكنون أماكن البشرات، الجبلية والبحرية يتم منحهم ملكية البيوت والأراضي والكروم والحدائق والمزارع الموجودة فيها والتي كان الموريسكيون يمتلكونها ويحوزون دوائرها والتي أصبحت ملكاً لنا وتتنمى إلينا بسبب الجرم الذي ارتكبه، بشرط أن يعطوا ويسددوا لنا عن كل بيت من البيوت المذكورة في الأماكن المذكورة ريالاً واحداً بشكل دائم، في كل عام، وبالنسبة إلى الأراضي والحدائق والمزارع، عُشر قيمة الفواكه، التي كانوا سيدفعونها عن نفس الفواكه وقت أن أخذوها باستثناء أشجار التوت والزيتون، لأنه بالنسبة إليها فإن العشر سنوات الأولى التي تبدأ في يناير سنة ٧٢ فصاعداً يتعين أن يكون مقدار الضرائب عنها الخمس، واعتباراً من نهاية الفترة فصاعداً تكون الضريبة الثلث فقط للأبد، بحيث إنه فيما يخص أشجار التوت، يتعين أن يكون الدفع بقيمة عملتهم نفسها. وعن طريق أعضاء مجلسنا الكائن في مدينة غرناطة أمرنا بأن تعمر قرية أثيكيا التابعة لمدينة غرناطة، بست عشرة أسرة، وهم المدرجون في المذكرة وقائمة التوزيع المرفقة بها ومن أجل أن يمنح ويسلم إلى السكان وفقاً لما أمرنا به، بيوت ذلك المكان والأماكن التي كان يملكها الموريسكيون الذين كانوا يعيشون في منطقة أثيكيا تلك، على أن يلتزم السكان ممن تم توطيئهم حديثاً بالحفاظ على كل ما هو مذكور والالتزام بالشروط التي وضعها أعضاء المجلس من أجل الإعمار المذكور، وأن يُوزع كل ذلك حسب الأوامر وبالأسلوب المنصوص عليه في قائمة التوزيع والتعليمات والشروط المرفقة معها، الموقعة من قبل خوان رودريغيث دي بيافويرتي مالدونادو، عضو المجلس ومن قبل فيرناندو دي كاسترو، كاتب الأعمال الخاصة بخزانتنا. ولأن الحصر والتحديد الخاصين بالمكان المذكور وبالأماكن الخاصة به قام بهما وبأمر منا السيد ماتشوكا، وهو الذي يسلمكم بصفة أصلية هذه الورقة. لذا ينبغي أن تبينوا عن طريقه للسكان المذكورين الحدود، وأن تُحدد المياه الموجودة في المكان وكذلك الإرشاد عنها وعن الأماكن التي كان يملكها ويحوزها المسيحيون القدامى والكنائس في ذلك المكان، والتي لا يتعين تقسيمها، حتى لا تُباع هذه

الأموال، وبعد أن نظر أعضاء المجلس الملكى هذا الأمر تقرر أن نرسل إليكم فى هذا الموضوع المذكور ما رأيناه مناسباً، إننا نأمركم بعد أن تسلم إليكم هذه الرسالة أن تذهبوا إلى تلك القرية بأثيكيا وتقوموا بالعمل على تنفيذ ما ورد فيها، وبعد ذلك أن تعطوا إلى السكان ملكية ذلك المكان والأموال التى كان يمتلكها ويحوزها فيه أولئك الموريسكيون الذين كانوا يقطنون ذلك المكان لكى يوزعها السكان فيما بينهم طبقاً لقائمة التوزيع المذكورة، نأمر بأن تكونوا موجودين طوال الوقت المناسب حتى توزيع الأنصبة وتقسيم الأملاك وأن تقوموا بتقسيمها وتوزيعها بالشكل والأسلوب والكمية المنصوص عليها فى قائمة التوزيع المذكورة، وتسلموا ملكيتها إلى سكان ذلك المكان، بكل البيوت والأملاك، بالأمر والشكل الوارد فى قائمة التوزيع وبالشروط الخاصة بالتوطين المذكور بحيث تتوافر فى التوزيع المذكور كل المساواة والقبول، وبحيث لا يستطيع أحد أن يتذمر أو يشكو إذ يجب أن يحصل كل شخص على حصته من كل نوع وصنف من الأملاك المشار إليها فى قائمة التوزيع المذكورة وأن تحصلوا من كل السكان على وثيقة يلتزمون فيها بأن يدفعوا لنا بشكل دائم فى كل عام، ستة عشر ريالاً عن الستة عشر بيتاً التى يتعين أن تقتصر عليها بيوت القرية المذكورة، ويقررون بكل ما يخص كل واحد منهم وما يتوجب على كل واحد منهم دفعه عن الفواكه التى يأخذونها، الجزء الذى يتعين أن يدفعوه لنا بالأمر والشكل المنصوص عليهما، وأن يعطونا ويدفعوا إلينا كل مرة يتعين عليهم فيها التنازل إلى الغير عن أى من البيوت المذكورة، جزءاً من خمسين من المبلغ فى مقابل التنازل. كل ذلك من أجل أن يعترف كل منهم بسيادة كل شخص على الأملاك المذكورة وإلزامهم كذلك بالحفظ والوفاء بالشروط الخاصة بالتوطين والتى يتعين أن تكون معلنة. وسوف تعملون كذلك على أن يقوم السكان المذكورون بإعداد سجل تكتب فيه الأشياء التى حصل عليها كل واحد منهم والتى هم ملزمون بدفع الضرائب عنها وحصص الكروم وأشجار الزيتون ومزارع أخرى وهكذا يكون قد تم إعلامهم أن نقل الملكية الذى يتم بشكل آخر سيكون لاغياً

وبعد أن يتم الحصر المذكور والتحديد، يتم وضع العلامات والأنصبة والتوزيع والملكية، مختوما بخاتمنا وموقعاً باسمكم ترسلونه إلى مجلسنا من أجل أن ينظر فيه ويقرر ما يناسب مصلحتنا. وإذا كان السيد ماتشوكا لم يقم بقياس وتحديد في منطقة أثيكيا تلك - بعض من ممتلكات الموريسكيين التي كان يتوجب عليه أن يتخذ وضعاً حيالها، فاطلبوا أنتم منه ذلك، فأنتم تعرفون وتتفهمون الأشياء التي يملكونها وهكذا بالقياس والتحديد، تقيسونها وتحددونها وتعدون تقريراً عنها لكي يُعرف ويُفهم ما هو معطى. كُتِبَت هذه الرسالة في غرناطة في السادس عشر من شهر يناير من عام ١٥٧٤. أنا فيرناندو دى كاسترو، كاتب مجلس صاحب الجلالة، وقعتها وختمتها، بأمره، وفقاً لأعضاء مجلس خزانته / أمين الدولة دىغوى دى توريس ريخيسترادا، دىغوى دى توريس، السيد بدرو دى ديثا أريبالو دى ثواثو، خوان رودريغيث دى بيافويرتى.

الأمر والشكل اللذان يتعين اتخاذهما في تعمير قرية أثيكيا دل بايى دى ليكرين والسكان الذين يتعين وجودهم فيها والأنصبة التي يجب عملها من البيوت والمزارع بالمنطقة المذكورة ودائرتها، وكيفية المنح والتوزيع الآتى: يجب أن يوجد في ذلك المكان ست عشرة أسرة، دون كاهن ولا سادن، لأن هناك تقريراً بأن المستفيد له نصيب في منطقة مونديخار، حيث يعمل كاهناً لها أيضاً، وبما أن له نصيباً في قرية، فليس من الممكن أن يكون له نصيب في قرية أخرى. ولأنه لا يوجد كاهن، لا يتعين وجود سادن، وأن يكونوا جميعاً من خارج مملكة غرناطة، الذين كانوا يعيشون بشكل معتاد في ذلك المكان، مع بيوتهم، المأهولة بالزوجات والأبناء. يجب عمل حصر لكل البيوت وأماكنها بالقرية المذكورة، ستة عشر مسكناً وهو العدد الذي تقتصر عليه كل البيوت التي كانت موجودة في زمن الموريسكيين، والتي يتوجب توزيعها بالأمر المنصوص عليه في فصل الشروط الذي يتعلق بهذا الشأن. ينبغي عمل عشرين نصيباً من كل نوع وصنف من الأملاك التي كان يملكها ويحوزها في ذلك المكان أولئك الموريسكيون، وأن تكون تلك

الأنصبة كبيرة وينبغي توزيعها وتقسيمها بين السكان المتعين وجودهم في المكان المذكور وينبغي أن يأخذ كل واحد منهم الأنصبة التي وزعت عليه بالشكل والطريقة الآتية:

فرانثيسكو دي ميدينا، من سكان كانبيو دي أريناس، ثلاثة أنصبة من كل نوع وصنف من الأملاك.

خوان دي ميدينا، من سكان كانبيو المذكورة، نصيبان.

خوان خيمينيس، من سكان لوكي، نصيبان.

دييغو كاليرو، من سكان كانبيو دي أريناس، نصيب واحد.

بارتولومي لوبيث، من سكان كانبيو المذكورة، نصيب واحد.

دييغو دي فوينتيس، من سكان بايلين، نصيب واحد.

دييغو دي باديال، من سكان الكالا لا ريال، نصيب واحد.

مور. غارثيا، من سكان طليطلة، نصيب واحد.

خوان مونتيرو، من سكان لا غوارديا، نصيب واحد.

فرانثيسكو مارتينيث، من سكان كانييل إي البار، نصيب واحد.

فرانثيسكو مارتينيث، من سكان بايثا، نصيب واحد.

بدر مارتينيث، من سكان دي أوييدا، نصيب واحد.

خوان غوميث، من سكان وهران Oran نصيب واحد.

مارتين دي أراندا، من سكان لوكي، نصيب واحد.

اثنان من السكان يكونان من خارج المملكة ومفيدين للسكان والذين يعينهما
ألونسو سانشيث، لكل منهما نصيب واحد.

ينبغي عمل التوزيع والتمليك والتسليم إلى السكان حسب ما هو منصوص عليه
بالأمر والشكل الموضح به، دون حذف أو تغيير أى شىء فيه.

صدر فى غرناطة فى السادس عشر من يناير من عام ١٥٧٤ . خوان رودريغى
دى بيافويرتى مالدونادو، بأمر مسئول الخزانة. تمت كتابة واستخراج وتصحيح هذا
النقل المذكور وتمت الموافقة عليه بقرار ملكى وتوصية، فى غرناطة، فى الثالث عشر من
شهر مارس من عام ١٥٧٦ .، الشهود الذين حضروا، ميغيل مرنس ودييغو فلوريس
وفيرناندو بوردادو، وهم سكان ومقيمون فى غرناطة. أنا المذكور ألونسو سانشيث،
كاتب صاحب الجلالة، وقعت وختمت هذا الخاتم

أختام وتوقيعات يقرأ منها أ. سانشيث، الكاتب.

دراسة استقصائية عن نوع وعدد السكان والممتلكات الموجودة فى منطقة أثيكيا
هذه، فى زمن الموريسكيين، قام بها حامل اليسانس ماتشوكا.

أثيكيا

فى تالارا، فى الخامس عشر من شهر يونيو من عام ١٥٧٢، سيادة
حامل اليسانس خوسيبى ماتشوكا، قاضى لجنة صاحب الجلالة، استدعى
أمامه شخصيا ديجو سولير مالدونادو وخوان دى سولير مالدونادو، من
مواطنى منطقة أثيكيا وسكانها الموجودين فى الوقت الحاضر فى وادى ليكرين
المذكور وحلفوا اليمين أمامه، وقد طرح عليهم بمقتضاه السيد القاضى المذكور
بعض الأسئلة للتحقق مما هو منصوص عليه فى لجنته وتوصيتها. ما قاله المذكورون
هو الآتى:

المذكور خوسيبى ماتشوكا، أمامى أنا، أنطونيو بيريث، الكاتب. تقع هذه القرية المذكورة على بعد خمسة فراسخ من مدينة غرناطة، وهى من أماكن الوادى المذكور الذى كان به ست وسبعون أسرة موريسكية وفى الوقت الحاضر لا يوجد أى منهم، ولا القرية مسكونة لأن المكان المذكور بيوته منهارة ومحرقة بسبب أنه كان موجوداً هناك معسكر دوق ثيسار ولأنه كان هناك أيام كثيرة من حظر التجول. كل البيوت المذكورة غير قابلة للسكن وهناك حاجة لإعادة تشييدها وطلائها من جديد. الكنيسة الموجودة فى ذلك المكان كلها سليمة وبحالة جيدة، ينقصها فقط الأبواب. يوجد فى ذلك المكان - الذى ينتمى إلى صاحب الجلالة، لأنه كان لموريسكيين ثائرين وتم القضاء عليهم - ثلاثمائة مارخال من أرض للرئى والتى يوجد فيها خمسون شجرة توت، دون حساب براعم أخرى لأشجار توت مقطوعة والتى هى أخذة فى التجدد وحوالى مائة برعم من أشجار الزيتون. وكل أشجار الفواكه الأخرى فاسدة ومقطوعة للسبب السابق ذكره. أرض الرئى المذكورة بحالة جيدة وكل مارخال سوف يدر ربحاً كل عام - بعد خصم التكاليف - قدره ريالان ونصف الريال لكل مارخال. يوجد فى ذلك المكان عند ضفة النهر طريق جميل محفوف بالأشجار، مع أنه يمكن إصلاح بعض هذه البيوت. من أشجار الزيتون الموجودة فى تلك الأماكن سوف يجمع كل عام - بعد دفع العشر ونصيب صاحب المعصرة وتكاليف أخرى - ثلاثون أروبا من الزيت تنتمى لصاحب الجلالة. من أشجار التوت المذكورة الموجودة فى تلك الأماكن سوف يوجد حوالى اثنتى عشرة أوقية من تربية القز أكثر أو أقل بقليل. يوجد فى الدائرة المذكورة خمسون مارخالاً من الكرم معقولة يوجد معظمها عند النهر وحالتها سيئة. يوجد فى السلسلة الجبلية ودائرة أتيكيا مائة فانيغادا من أرض زراعية بدون رى، أرض جيدة، مع أنها تحتاج لجهد كبير فى فلاحيتها لكونها انحدارات ولا توجد أرض أخرى لكسر هذا الانحدار. يوجد فرنان، وهما ملك الكنيسة ويستأجرهما بشكل دائم مسيحيون قدامى. توجد أربع طواحين للخبز صغيرة ومحطمة، معطلة ولا تطحن، تحتاج إلى إصلاح

كبير، وهى تعد ممتلكات محطمة، تنتمى لصاحب الجلالة، يوجد فى المكان المذكور معصرتان للزيت إحداهما تعمل بالماء والأخرى لها رافدة خشبية تجر عن طريق الدواب، هما أيضاً منهارتان ومعتلتان، كانتا لموريسكيين ثائرين وتنتميان إلى صاحب الجلالة، المكان المذكور به ساقية مائية يروون بها كل المزارع وكان يشرب منها سكان القرية، يأخذون بها الماء من النهر وكانوا يروون فقط بها نهراً وليس فى الليل لأن بتلك المياه الليلية بمنطقة موندوخار، فى زمن الموريسكيين كانوا يروون بهذه الطريقة، كان كل مارخال من الأرض يعطى له ربع ساعة من الماء، مرة واحدة كل أسبوع، وفى الوقت الحاضر لا يوجد نظام لأنها كما هو مذكور ليست عامرة ولا يوجد سكان، يوجد فى الدائرة المذكورة شبكة كبيرة لاصطياد سمك التن، إنها تابعة للكنيسة، فى الوقت الحاضر لا تزرع، لا توجد فى هذه الدائرة حدود أخرى، ولا جبال، ولا استفادات أخرى، أكثر مما هو معلن، إن الاستقصاء المذكور، قام به السيد القاضى المذكور بالطريقة المذكورة، بالأقوال وبالتصريحات التى أدلى بها المذكورون ديفغو سولييث مالدونادو وخوان دى سولييث مالدونادو، وهما مسيحيان قديمان، من مواطنى منطقة أتيكيا المذكورة، اللذان يعرفان ولديهما دراية بالمكان المذكور ومزارعه وقد حلفوا أولاً، أن ما قالاه هو الحقيقة، وما يعرفانه عن هذا الأمر أدليا به بعد اليمين التى حلفا بها ووقعا عليها، فإن حامل اليسانس خوسيبى ماتشوكا وديفغو سوليير مالدونادو وخوان دى سوليير وقعا أمامى أنا، أنطونيو بيريث، الكاتب،

إن منطقة أتيكيا المذكورة هذه تحدها من أعلى الجبال، مياه تنحدر نحو الأسفل، ويحدها النهر من جهة، وهو السيل الذى يخرج منه نهاية نيفيليس، ومن الجانب الآخر يحدها مخر الماء الذى ينزل من الجبال، الذى يقسم دائرة موندوخار، النهر المذكور والمخر المذكور، يهبطان من أعلى سلسلة الجبال المذكورة يتجمعان حيث تنفلق هذه المنطقة المذكورة.

إلى يمين الصفحة دونت هذه الملاحظات(*)

٦٦ أسرة	فى مكان ودائرة إثيكيا دل ياييى، فى الخامس والعشرين
كنيسة	من شهر يناير من عام ١٥٧٤، انا ألونسو سانشيث
طريق محفوف بأشجار	كاتب صاحب الجلالة من أجل عمليات حصر وتحديد
سوف تُدر أشجار	وتناول ملكية، باسم صاحب الجلالة، الأملاك التى كانت
الزيتون المذكورة ٣٠	للموريسكيين الثائرين والذين قضى عليهم، عندما دخلت
أروبا من الزيت	فى كل البيوت وذلك المكان المذكور وفى كل الأملاك التى
أشجار التوت المذكورة	تحيط به والتى كانت لموريسكيين ثائرين وتم القضاء
١٢ أوقية	عليهم. قلت إننى كنت أحصر وحُصرت حيازة الملكية
٥٠ مارخال من الكرّم	الحالية لأغلب البيوت المذكورة ولكل المناطق الزراعية،
١٠٠ فانيغادا من أراض	أراضٍ تزرع بالرى وأراض تزرع بدون رى وأشجار
تزرع بدون رى	ونباتات مثمرة وكروم ولكل الأملاك الأخرى التى كانت
فُرنان	للموريسكيين المذكورين والواقعة ومدرجة داخل زمام
٤ مطاحن للخبز	منطقة أثيكيا المذكورة هذه، التى حددها أنطونيو بيريث
مَعصَرتان للزيت	دى باداخوث، الكاتب الذى كان قبلى، والذى شكّل لجنة
ساقية	فى هذا الصدد. قلت إننى كنت أحصر وحُصرت الملكية
شبكة كبيرة لصيد	المذكورة باسم صاحب الجلالة كمتلكات تنتمى له بسبب
السّمك	ثورة الموريسكيين المذكورين ومررت بتلك البيوت المذكورة
وضع علامات الحدود	والمناطق الزراعية فى إشارة إلى حيازتها، والتى
الملكية	استلمتها فى هدوء وبشكل سلمى، دون اعتراض من أى
	شخص، وكان حاضراً كشهود كل من فرانتيسكو دى

(*) دونت هذه الملاحظات فى يمين الصفحة وقد أثّرنا أن نترجمها بأمانة، وإن كانت علاقتها بالجزء المدوّن فى اليسار ليست واضحة تماماً، (المراجع)

ميدينا ودييغو دى فرينتيس وميلتشور غارثيا وسكان
آخرون من القرية المذكورة.
أ. سانشيث.

الكاتب

توزيع العقارات على كل نصيب من الأنصبة العشرين
التي تم عملها فى منطقة أتيكيا هذه.
أتيكيا

١٦ أسرة	تم توطين ست عشرة أسرة فى منطقة أتيكيا وتم
٢٠ نصيباً	عمل عشرين نصيباً، أربعة منها تم إعطاؤها كمكافأة
بيت	إضافية حسبما رأت اللجنة ونظامها الذى حدد العقار
٢١ مارخال من أراضٍ تُزرع	الذى يناسب كل نصيب وهو مايلى:
٠٣ بالرى	بيت للسكن مع بعض المستلزمات الأخرى المحطمة .
٠٢ فانيغادا من أراضٍ	واحد وعشرون مارخالا من أرض زراعية بالرى .
تُزرع	ثلاث فانيغادا من أرض زراعية بدون رى .
٠٤ بدون رى	
٠٣ أوقية من حرير دودة	
القرز	
مارخال من الكرّم	خمس عشرة شجرة توت مميزة سوف تدر أوقيتين
أروبا من الزيت	من حرير دودة القز.
	أربع مارخال من الكروم.
	عشر أشجار زيتون سوف تدر ثلاثة أروبا
	من الزيت كل عام.

كل ما تم تقييمه بأكثر أو أقل قليلاً والعقار
الذى يناسب كل ساكن هو المدرج فى الرسائل
التي ترد لاحقاً فى هذا الكتاب .

أ. سانشيث

الكاتب

دييغو دى نوينتيس

القرار الخاص بحصّة دى موينتيس- وهو مواطن جديد فى قرية أثيكيا هذه-
يجب أن تخصص له حصّة بالإضافة إلى نصف الامتيازات التى تم تخصيصها لخوان
دى ميدينا الذى أعطى النصف الآخر لدييغو مالدونادو.

منزل كان ينتمى إلى خوان أثبولا بالقرب من الفرن الذى يحتوى على كهف به
ماء، يُمنح منزلان آخران بالقرب من المنزل المذكور، يفصل بينهما الشارع، وكانا
ينتميان إلى دييغو المنظرى ولورينثو بالومينو. يُمنح منزل آخر إلى جانب المنزل المذكور،
الذى كان يخص لويس دى خاين. //

فى اللحظة التى تم فيها توزيع أنصبة الحدائق كان من نصيبه العاشر، الذى يحدُّ
نصيب سيباستيان خويث، وقطعة أرض كان من المعتاد أن تكون حديقة مساحتها ٢
مارخال ونصف من أرض للرى. بها بعض السياج الساقطة، تحدُّ منزل صاحب هذا
النصيب، يُمنح قطعة أخرى من حديقة مساحتها مارخال ونصف، وبها شجرتا توت
مميزتان، تحدان المنزل والحديقة المذكورة.

مُنحت قطعة أخرى من حديقة متاخمة للفرن والمنزل المذكور والتى مساحتها
نصف مارخال مع شجرة توت متميزة، موجودة داخلها. //

فى اللحظة الأولى لتوزيع أراضي الرى التى تمت... الذى يكون نحو النهر،
متاخماً للطريق الذى/ (*)

خوان بيردوغو

قرار الأملاك التى خُصصت لخوان بيردوغو، ساكن ومستوطن جديد فى منطقة
أثيكيا دل بايى هذه، وقد دخل بدلاً من خوان دى ميدينا فى الحصّة. //

(*) بهذه الجملة الناقصة تنتهى الفقرة فى الوثيقة الإسبانية. (المراجع)

منزل، فى منطقة أثيكيا المذكورة هذه، وهو المنزل الذى كان للسيد إرنانديث الياتى، بجوار القرن، المتاخم لمنزل كان لغارثيا المنظرى. يُمنح مع كل ما يحتويه المنزل المذكور.

فى المرحلة التى تم فيها توزيع أنصبه الحدائق والبيوت كان نصيبه الحصه الرابعة عشرة .. وهى المرحلة الخاصة بحدائق من ثلاث قطع مساحتها ٢,٥ مارخال، وهى مجتمعة، مجاورة للساقية الرئيسية ومتاخمة لنصيب فرانثيسكو دى ميدينا وخوان مونتيرو، تحتوى فى داخلها على ست أشجار توت تُعطى له بسعر مقابل، هناك كذلك شجرة جوز مُنح له نصفها، لأن النصف الآخر هو المكافأة الخاصة بـ خوان دى ميدينا، ...

فى المرحلة الأولى التى تمت فى مزرعة داهار الواقعة بالقرب من النهر، ومتاخمة للطريق الصاعد من المكان. فى التقسيم كان له النصاب الرابع الذى تم فى نصف قطعة أرض كانت للمنظرى، ومتاخمة للطريق الصاعد.

ملحق وثائقي رقم ١

شهادات دامغة

نقدم في خاتمة هذا الكتاب بعض الأخبار المهمة عن المنظرى موجودة في الدراسة التي قام بها الدكتور رفائيل ج. بينادوسانتا ييبا الأستاذ بقسم تاريخ العصور الوسطى بكلية الفلسفة والآداب جامعة غرناطة. وهذه الدراسة بعيدة عن هدفنا من دراسة القائد الغرناطي ولكنها جذبت انتباهي إليها، حيث تفضل بإتاحتها لي، بل سمح بنشر تحقيق له عن بعض التساؤلات والاستقصاءات.

والأخبار الأكثر أهمية هي التي سدرجها توا، وهي التي وردت في الوثيقة المفهرسة تحت رقم ٢٠-١٩٤-٣ في محكمة غرناطة الملكية.

وفيما بين عامي ١٥٤٤ و ١٥٤٩ توجد دعوى حول الحدود بين بلدتي إثنايوث Iznaalloz وغوادا أورتونا Guadahortuna. والثانية هذه نشأت حديثاً بعد الاحتلال المسيحي وابتعدت عن بينيار غير الأهلة بالسكان لأن "... غوادا أورتونا كانت تابعة لبينيار، ولكن في عهد المسلمين كانت جبلاً ولم يكن هناك سكان...".

إن كل هذا الجهد كان لإيجاد شهود يوضحون سلطة بينيار وبالتالي يرجحون كفة غوادا أورتونا.

ومن الطبيعي أن يكون الشهود من الرجال المسيحيين الجدد لتلك الأرض في تلك التواريخ.

أحدهم كان من سكان كوغويوس لكنه كان جندياً قديماً لمملكة بنى نصر في بينيار وهو يؤكد أن قيادة مونتيخيكار وإثنايوث وبينيار كانت في بينيار.

شخص آخر من سكان بولياناس Pulianas، يدعى إيرناندو الكابري، يبلغ من العمر أربعة وسبعين عاماً ولكن عليه أن يتحدث عن طريق مترجم ولديه أخبار عن مدينة بينيار منذ ٦٠ عاماً... وقد عرفها هذا الشاهد منذ أن كان يبلغ أربعة عشر أو خمسة عشر عاماً، وكانت بينيار في ذلك الحين تحت سيطرة المسلمين، وقد عاصر هذا الشاهد قائداً في مدينة بينيار يدعى محمد المنظري، الذي رحل إلى تطوان قبل أن تسقط غرناطة بقليل، وبعد أن غادر محمد المنظري رأى هذا الشاهد أنه كان في تلك المدينة قادة آخرون، الزناقي والموديخار، يقال إنهما كانا قائدين لمدينة بينيار منذ ذلك الوقت وحتى سقوط مملكة غرناطة... وقد رأى هذا الشاهد في ذلك الوقت كيف أن مدينة بينيار كانت تتبعها مدن مونتيخيكار وأرينالس وإثنايوت وأراضٍ وقلاع أخرى كانت في تلك المنطقة التي كان يحكمها قائد بينيار...".

في شهادة الكابري المسهبة يوضح أن جده كان قائد مدينة إثنايوت وهو ما يعطى شهادته حول بينيار أهمية كبيرة.

دييغو دومان، هو شاهد آخر يبلغ من العمر ١٠٢ عاماً، ويعرف هذه المنطقة منذ ثمانين عاماً، ونرى أنه يوضح نقاطاً جوهرية.

وسوف نحاول أن نجملها أيضاً وإن كان بعضها غير واضح فمن الممكن أن ذلك يرجع إلى تقدم عمر هذا الرجل.

"... هذا الشاهد لديه معرفة بمدينة بينيار منذ أكثر من ثمانين عاماً بل منذ تسعين عاماً - لأنه ولد ونشأ فيها - في ذلك الحين كان يبلغ من العمر ثلاثين عاماً وقد رأى أنه كان في مدينة بينيار قائد يدعى ابن سالم Abenzalema وعرف بعده قائداً آخر هو خايين Jayen وبعده جبران Jubran وبعده المنظري والموديخار، وقد عاد المنظري بعد الموديخار وظل حتى استولى المسيحيون على الأرض... وأنه لما خرج المسلمون من مدن إثنايوت وبينيار ومونتيخيكار وكانبريل، كانت مدينة بينيار تحمل رايتها الملونة في الأمام دلالة على أنها كانت المدينة الرئيسية... فالقائد الذي كان يقيم آنذاك في بينيار كان يحكم مدن إثنايوت ومونتيخيكار وبينيار وكانبريل... وبما أن

مدينة بينيار كانت على رأس تلك المدن، فكان يسكنها نبلاء غرناطة ومنهم المنظرى الذى ذهب إلى غرناطة وكان أحد النبلاء الفرسان المسلمين الغرناطيين....".

ويؤكد شاهد آخر على سيادة بينيار حيث "كان لدى الملك المسلم أربعون أو ثمانون فارساً مسلماً ممن كانوا يطوفون الأرض....".

أما فيما يتعلق بالمنظرى فأعتقد أنه يكفي أن أعرض باختصار بعض النتائج التى تستنتج من نص الكتاب، لكنها أكثر إيضاحاً فى ظل تلك الشهادات المنسوخة.

فليس هناك أدنى شك فى النقاط التالية :

أولاً: أن المنظرى كان قائداً لقلعة بينيار.

ثانياً: أن مكانته ومنزلته بين نبلاء مملكة بنى نصر نشأت من أهمية القلعة التى تولى قيادتها.

ثالثاً: أنه عندما اندمجت بينيار مع إثنائوث ومونتيخيكا فى سبتمبر من عام ١٤٨٥، كان المنظرى وقتئذٍ فى تطوان .

رابعاً: أنه فى الغالب أن الكثير من الفرسان المسلمين الذين كانوا تحت إمرة المنظرى انتقلوا معه إلى تطوان.

إن مدينة تطوان غرناطية المولد وغرناطية فى جوهرها حتى يومنا هذا، كما تجلى ذلك فى تطور تقاليدها وحياتها الدينية.

المؤلف فى سطور:

غييرمو غوثاليس بوسـتو

– أستاذ التاريخ بجامعة غرناطة .

– له العديد من الكتب والأبحاث حول تاريخ المغرب العربى وعلاقته بإسبانيا .

– شارك فى العديد من المؤتمرات الدولية التى عقدت حول تاريخ العصور الوسطى والموريسكيين .

المترجم فى سطور :

– ممدوح محمد حامد

– مدرس اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر .

– ليسانس اللغة الإسبانية من كلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر بتقدير عام جيد جدا مع مرتبة الشرف .

– الدراسات التمهيديـة للدكتوراه فى جماعة سلمنكا بإسبانيا .

المراجع فى سطور :

- جمال أحمد عبد الرحمن .

- من مواليد ١٩٥٦ بقرية بنى مجد (أسيوط)

- حاصل على درجة الإجازة العليا (الليسانس) فى اللغة الإسبانية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف (١٩٧٩) ، كلية اللغات والترجمة ، جامعة الأزهر .

- الدراسات التمهيدية للدكتوراه من جامعتى سلمنكا ومدريد .

- حاصل على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف من جامعة مدريد المركزية (١٩٨٩) .

- فى عام ٢٠٠١ رقى إلى درجة أستاذ بقسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة ، جامعة الأزهر .

- له العديد من الكتب المترجمة والمقالات المنشورة فى مصر والخارج حول موضوعات مختلفة من الأدب الإشباني والعلاقة بين الإسلام والثقافة الإسبانية .

التصحيح اللغوى : رجب الصاوى
الإشراف الفنى : حسن كامل



هذا الكتاب الثانى للدكتور غوثالبيس بوستر حول الأثر الأندلسى الموريسكى فى المغرب. وكان الكتاب الأول بعنوان "الموريسكيون فى المغرب" وقد صدر عن المشروع القومى للترجمة منذ عامين. وكان يتناول الوجود الموريسكى فى المغرب بشكل عام. أما هذا الكتاب فيتحدث عن منطقة مغربية محددة هى تطوان. ويذكر أن قائدًا أندلسيًا هو الذى أعاد بناء المدينة بعد أن كانت أطلالًا. ويقدم الكتاب وثائق جديدة وجديرة بالمناقشة الهادئة. ونحسب أنه يضيف الكثير إلى من يريد دراسة تاريخ مغربنا العربى.

Bibliotheca Alexandrina



0655459

